من تراث العلامة الندوي



حول التعليم والتربية الإسلامية

للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

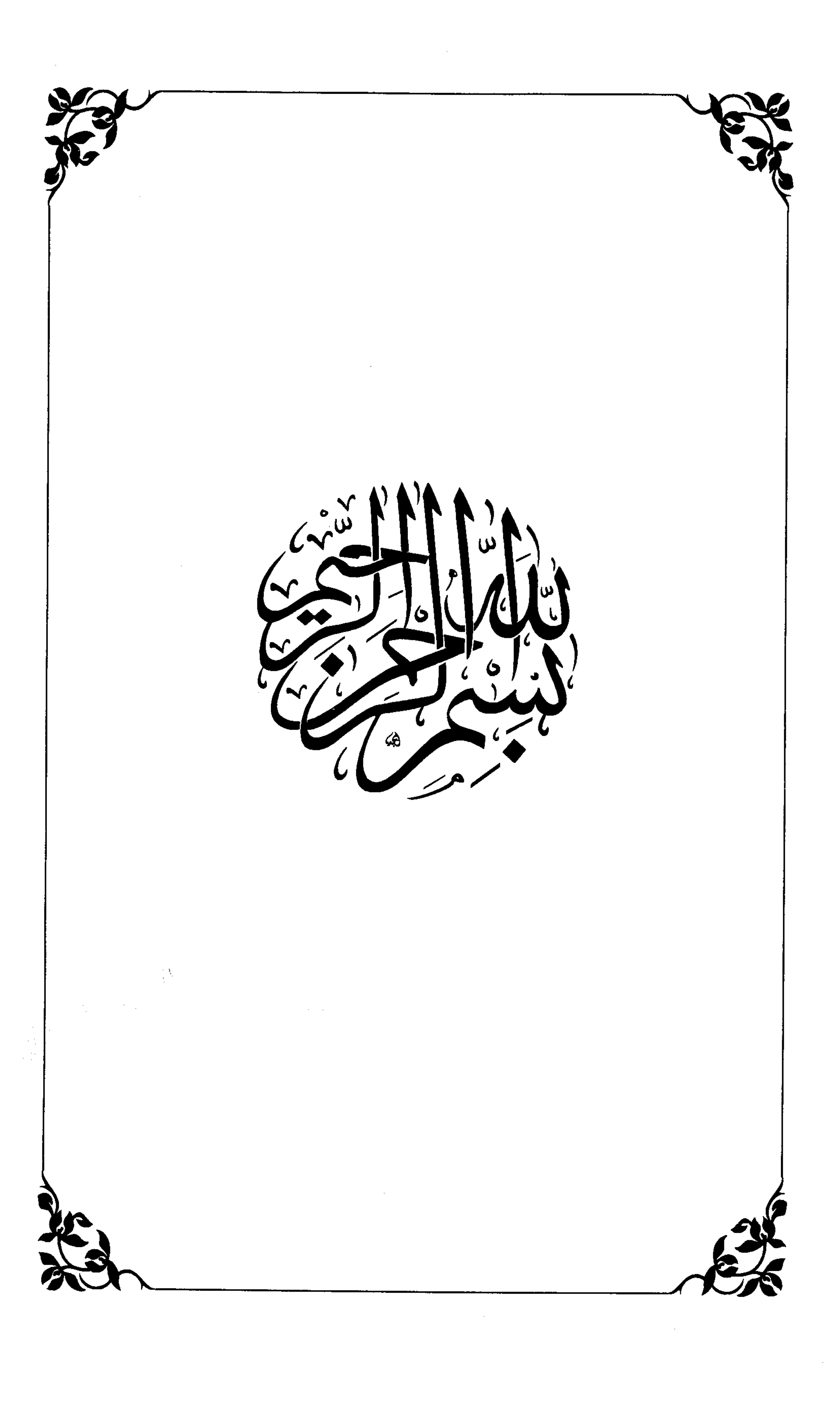
١٣٣٣ - ١٤٢٠هـ

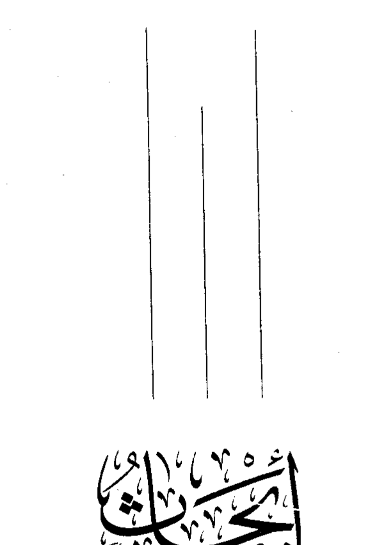
إعداد

سيد عبد الماجد الغوري



دمشق - بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم


أبحاث
حول التعليم والتربية الإسلامية

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م



دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص. ب: ٣١١ - هاتف: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠ - فاكس: ٢٢٤٣٥٠٢
بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
ص. ب: ١١٣/٦٣١٨ - تلفاكس ٠١٨١٧٨٥٧ - ٠٣٢٠٤٤٥٩

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فإن التربية والتعليم تمثل الجانب الأكبر من كتابات العلاَّمة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ـ رحمه الله ـ ، حيث ينحصر جل تفكيره فيها ، فهي السبيل الأمثل إلى تكوين الأجيال الصالحة لقيادة المجتمع الإسلامي المعاصر ، وهي الطريق لبناء تربية إسلامية حرة ، بعيدة عن التأثيرات الفكرية الوافدة على الإسلام من عقول وأدمغة أجنبية ، والتي تحمل الأفكار والمبادىء الدخيلة على الإسلام ، والتي تناهض تقدمه .

لقد كان هذا الموضوع يشغل باله ، وقد كتب وألقى العلامة ـ رحمه الله ـ في هذا الموضوع عدة مقالات ومحاضرات في شتى الفترات وفي مختلف المناسبات ، حيث يعتقد العلامة أن أهمّ الأسباب للتوترات السياسية والعسكرية في البلاد الإسلامية والفجوة الواسعة بين الشعوب المسلمة وحكامها ، واضطرابهم وقلقهم ، هي أن معتقدات هذه الأمة وعواطفها ومشاعرها وحاجاتها في وادٍ ، وهذه الأنظمة التعليمية الغربية التي استوردتها الحكومات من الخارج في وادٍ آخر ، وليس أن هذه الأنظمة التعليمية لا صلة لها ولا علاقة بعقائد هذه الأمة وعواطفها فحسب ، بل إنها تُحاول اقتلاع هذه المعتقدات والقضاء على هذه العواطف الدينية وإقامة بناء جديد على أنقاضها ، فأصبحت البلاد الإسلامية لأجل ذلك كمركب يسوقه فرسان من جهتين متقابلتين ، أو كقطار تقوده قاطرتان من جانبين مختلفين .

هذا الكتاب الّذي بين يديك يا قارئي العزيز هو المحتوي على تلك المقالات والمحاضرات التي كتبها وألقاها العلامة ـ رحمه الله ـ في هذا

الموضوع ، وهو يدعو إلى التأمُّل والإقدام بجرأة وصراحة في مجال التربية والتعليم ، ويقدِّم تحليلاً وافياً عن الوضع العلمي في البلاد الإسلامية ، وحلولاً جذرية ناضجة للمشكلات الراهنة .

أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب كل من قرأه ، ويتقبل جهدي المتواضع في إعداده ، خالصاً لوجهه تبارك وتعالى ، وهو السميع القريب .

حيدر آباد **المعتز بالله تعالى**

٢٢/ ٣/ ٢٠٠٠م **عبد الماجد الغوري**

ملامح من حياة
العلاّمة الإمام السيّد أبي الحسن الندوي وشخصيته

اسمه ونسبه وأسرته :

• علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني ، ينتهي نسبه إلى عبد الله الأشتر بن محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض ، بن الحسن (المثنى) بن الإمام الحسن السبط الأكبر بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، أول من استوْطَنَ الهند من هذه الأسرة في أوائل القرن السابع الهجري هو الأمير السيّد قطب الدين المدني (٦٧٧هـ) .

• أبوه العلامة الطبيب السيّد عبد الحيّ الحسني الذي استحق بجدارة لقب « ابن خلكان الهند » لمؤلفه القيم « نزهة الخواطر » في ثماني مجلدات عن أعلام المسلمين في الهند وعمالقتهم ، طُبعَ أخيراً باسم « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » .

• أمّه ـ رحمها الله ـ كانت من السيّدات الفاضلات ، المربيات النادرات ، المؤلّفات المعدودات ، والحافظات للقرآن الكريم ، تقرض الشعر ، وقد نظمت مجموعة من الأبيات في مدح رسول الله ﷺ .

ميلاده ونشأته :

• أبصرَ النورَ في ٦محرم ١٣٣٣هـ الموافق عام ١٩١٤م بقرية « تكية كلان » الواقعة قرب مديرية رائي بريلي في الولاية الشمالية (أترابرديش) .

• بدأَ دراسته الابتدائية من القرآن الكريم في البيت ، ثم دخل في الكُتَّاب حيث تعلّم مبادىء اللغتين (الأردوية والفارسية) .

• توفي أبوه عام ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) وكان عمره يتراوح آنذاك بين التاسعة والعاشرة ، فتولّت تربيته أمّه الفاضلة ، وأخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني ؛ الذي كان يدرس آنذاك في كلية الطب بعد تخرّجه من دار العلوم ديوبند الإسلامية ودار العلوم ندوة العلماء ، وإليه يرجع الفضل في توجيه وتربية العلامة الندوي .

• بدأ دراسة العربية على الشيخ خليل بن محمّد الأنصاري اليماني في أواخر عام ١٩٢٤م ، وتخرّج عليه مستفيداً في الأدب العربي ، ثمّ توسَّع فيه وتخصَّصَ على الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي عند مقدمه إلى ندوة العلماء عام ١٩٣٠م .

• التحق بجامعة لكهنؤ فرع الأدب العربي عام ١٩٢٧م ، ولم يتجاوز عمره آنذاك الأربعة عشر عاماً ، وكان أصغر طلبة الجامعة سناً ، ونال منها شهادة فاضل أدب في اللغة العربية وآدابها ، قرأ خلال أيام دراسته في الجامعة كتباً تعتبر في القمَّة في اللغة العربية والأردوية ، ممَّا أعانه على القيام بواجب الدعوة وشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة ، وإقناع الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية ، وتعلَّم الإنجليزية مما مكّنته من قراءة الكتب المؤلفة بها في التاريخ والأدب والفكر .

• التحق بدار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٢٩م وقرأ الحديث الشريف (صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي) حرفاً حرفاً مع شيء من تفسير البيضاوي على العلاّمة المحدّث الشيخ حيدر حسن خان الطونكي ، ودرس التفسير لكامل القرآن الكريم على العلاّمة المفسر المشهور أحمد علي اللاَّهوري في لاهور عام ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م ، وحضر دروس العلاّمة المجاهد حسين أحمد المدني في صحيح البخاري وسنن الترمذي خلال إقامته في دار العلوم ديوبند ، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن أيضاً .

جهوده العلمية ونشاطاته الدعويّة :

• انخرَطَ في سلك التدريس من عام ١٩٣٤م ، وعُينَ أستاذاً في دار العلوم

ندوة العلماء لمادتي التفسير والأدب ، وخلال تدريسه في دار العلوم ندوة العلماء استفاد من الصحف والمجلاّت العربية الصادرة في البلاد العربية ، ممّا عرَّفه على البلاد العربية وأحوالها ، وعلمائها وأدبائها ومفكريها عن كثب ، واستفاد أيضاً من كتب المعاصرين من الدعاة والمفكرين العرب وفضلاء الغرب والزعماء السياسيين .

• قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام ١٩٣٩م ، تعرَّف فيها على الشيخ المربّي العارف بالله عبد القادر الرأي فوري والداعية المصلح الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ، وكان هذا التعرّف نقطة تحوّل في حياته ، وبقيَ على الصلة حتى وافاهما الأجل المحتوم ، وتلقَّى التربية الروحية من الشيخ عبد القادر الرأي فوري واستفاد من صحبته ومجالسته ، وتَأسَّى بالشيخ محمّد إلياس الكاندهلوي في القيام بواجب الدّعوة وإصلاح المجتمع ، وقَضَى زمناً طويلاً في رحلات وجولات دعوية متتابعة للتربية والإصلاح والتوجيه الديني في الهند وخارجها .

• أسَّسَ مركزاً للتعليمات الإسلامية لتنظيم حلقات درس القرآن الكريم والسنة النبوية عام ١٩٤٣م ، وأسَّسَ حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين والهندوس عام ١٩٥١م ، والمجمع الإسلامي العلمي بدار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ عام ١٩٥٩م .

• عُيِّنَ أميناً عاماً لدار العلوم ندوة العلماء عام ١٩٦١م ، واستمر في هذا المنصب حتى وفاته ـ رحمه الله ـ .

• شارك في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) عام ١٩٦٠م ، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام ١٩٦٤م ، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام ١٩٧٢م .

أهم مؤلفاته :

• نُشِرَ له أول مقال بالعربية في مجلّة « المنار » للعلاّمة السيِّد رشيد رضا

المصري عام ١٩٣١م حول شخصية الإمام السيّد أحمد بن عرفان الشهيد ، وكان عمره ـ آنذاك ـ الأربعة عشر عاماً .

• ظهَرَ له أوّل كتاب بالأردوية عام ١٩٣٧م يحمل اسمه « سيرة أحمد شهيد » ونالَ قبولًا عاماً في الأوساط الدينية والعلمية في الهند وباكستان .

• بدأ سلسلة تأليف الكتب المدرسية بالعربية ، وظَهَر أوّل كتاب فيها بعنوان « مختارات من أدب العرب » عام ١٩٤٠م ، و « قصص النبيين » للأطفال و « القراءة الراشدة » عام ١٩٤٤م . وقررت جميع هذه الكتب في مقرّرات جامعات البلدان العربية والهندية .

• ألّف كتابه المشهور « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » عام ١٩٤٤م .

• دعيَ أستاذاً زائراً في كلية الشريعة جامعة دمشق عام ١٩٥٦م ، وألقى محاضرات بعنوان « التجديد والمجدّدون في تاريخ الفكر الإسلامي » نُشرتْ بعد ذلك في شكل كتاب مستقلّ ينضوي تحت أربع مجلدات باسم « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » .

• ألَّفَ كتابه حول القاديانية بعنوان « القادياني والقاديانية » عام ١٩٥٨م ، وكتابه « الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية في الأقطار الإسلامية » عام ١٩٦٥م وكتابه « الأركان الأربعة » عام ١٩٦٧م ، و « السيرة النبوية » عام ١٩٧٦م ، و « العقيدة والعبادة والسلوك » عام ١٩٨٠م ، و « المرتضى » في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عام ١٩٨٨م .

• شارك في تحرير مجلة « الضياء » العربية الصادرة من دار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٣٢م ، ومجلّة « الندوة » الأردوية الصادرة منها أيضاً عام ١٩٤٠م ، وأصْدَرَ مجلّة باسم « تعمير حيات » في الأردوية عام ١٩٤٨م ، وكَتَب مقالات في الأدب والدعوة والفكر في أمّات المجلاّت العربية الصادرة من مصر ودمشق كـ : « الرّسالة » للأستاذ أحمد حسن الزيات و « الفتح » للأستاذ محب الدين الخطيب و « حضارة الإسلام » للدكتور

مصطفى السباعي و « المسلمون » للدكتور سعيد رمضان المصري .

• أشْرَفَ على إصدار جريدة « نداي ملّت » الأردوية عام ١٩٦٢م ، وكذلك أشرف على مجلّة « البعث الإسلامي » العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٥م وجريدة « الرائد » العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٩م ومجلة « تعمير حيات » الأردوية الصادرة منذ عام ١٩٦٣م ، وكلها تصدر من دار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ ، (الهند) .

رحلاته :

• سافرَ إلى الشرق والغرب مرات داعياً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، عاملاً على إعلاء كلمة الإسلام بالكلمة المسموعة والمقروءة وبالعمل الإيجابيّ البنَّاء في كل مجال ، جوَّاباً للآفاق في سبيل الله ، محاضراً ، ومحدثاً ، ومحاوراً ، واعظاً ، وهادياً ، ومشاركاً بالرأي والفكر في المجالس العلمية ، والمجامع الجامعية والمؤسسات الإسلامية ، والمؤتمرات والندوات فيها[١] .

تقدير وتكريم :

• انتخبه مجمع اللغة العربية بدمشق والقاهرة والأردن عضواً مراسلاً لما اتصف به من العلم الجمّ ، والبحث الدقيق في ميادين الثقافة العربية والإسلامية ، ولمساعيه المكثفة المشكورة في سبيلها .

• اختير عضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام ١٩٦٢م .

• اختير عضواً في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها عام ١٩٧١م .

---

(١) انظر للاطلاع على رحلاته كتاب « رحلات العلاَّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي محاضراته ـ مشاهداته ـ لقاءاته ـ انطباعاته » جمع وترتيب وتعليق عبد الماجد الغوري ، صدر عن دار ابن كثير . دمشق ـ بيروت . عام ٢٠٠١م .

• اختير لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٠م ، لمؤلَّفه القيم « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » .

• مُنح شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كشمير عام ١٩٨١م .

• اختير رئيساً لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن عام ١٩٨٣م .

• اختير عضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية وللبحث والتأليف والتحقيق في عمّان (الأردن) .

• اختير رئيساً عاماً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) عام ١٩٨٤م .

• أقيمت ندوة أدبية كبيرة حول حياته وجهوده الحثيثة ومساعيه المشكورة ، ومفاخره العظيمة في مجال الدعوة والأدب عام ١٩٩٩م في إستانبول « تركية » .

• اختير لاستلام جائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٤١٩هـ لخدماته الجليلة ومآثره العظيمة في مجال الدعوة الإسلامية ، وقدَّم إليه الجائزة ولي العهد لحكومة الإمارات العربية المتحدة سمو الشيخ محمد بن راشد المكتوم .

رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع :

• تولّى العلامة الرئاسة والعضوية لعدة جامعات إسلامية ومجامع عربية ومنظمات دعوية ومراكز دينية في العالم الإسلامي وخارجه ، ومنها على سبيل المثال :

الأمين العام لدار العلوم ـ ندوة العلماء (التي أخذت صفة العالمية منذ ترأس أمانتها ، وتفوّقتْ على معظم جامعات العالم التي تَهْتم بشؤون الدراسات الإسلامية والعربية لأنَّها تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع) .

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) .

رئيس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ (الهند) .

رئيس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية (إنجلترا) .

رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند .

رئيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) .

عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة .

عضو المجلس التأسيسي الأعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة .

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق .

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

عضو مجمع اللغة العربية الأردني .

عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) بالأردن .

عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط .

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد (باكستان) .

عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم ديوبند الإسلامية (الهند) .

• وعدا ذلك تولّى العلاَّمة الرئاسة والعضوية لكثير من الجامعات الإسلامية ، والمراكز الدينية والمنظمات الدعوية ولجان التعليم والتربية في العالم الإسلامي وخارجه .

توفي ـ رحمه الله ـ يوم الجمعة في ٢٣ من شهر رمضان المبارك ١٤٢٠هـ وكان آخر يوم من شهر ديسمبر ١٩٩٩م . فغربت شمس القرن العشرين . توفي في بلدة رائي بريلي الواقعة على مسافة ٦٠ كيلومتراً من بلدة لكهنؤ ، اغتسل لصلاة الجمعة ، وأمر طالباً من طلابه أن يقرأ عليه سورة الكهف ، وما أن

انتهت سورة الكهف حتى فاضت روحه . إنا لله وإنا إليه راجعون . تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنانه .

صلَّى حوالي خمسة ملايين من المسلمين الوافدين من مختلف أنحاء العالم عليه صلاة الغائب في الحرمين الشريفين في ٢٧ رمضان بعد صلاة العشاء[١] .

* * *

(١) انظر كتاب « أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب » للمؤلف ، للاطلاع على حياة العلاَّمة الندوي ، وجهوده الحثيثة في خدمة الدعوة الإسلامية ومآثره القيمة في مجال الأدب الإسلامي وموقفه من القضايا الإسلامية والعربية مع التعريف بأهمّ مؤلّفاته ، صدَر عن « دار ابن كثير . دمشق ـ بيروت . عام ١٩٩٩م » .

إسهامات
العلامة أبي الحسن علي النَّدوي في الفكر التربوي

اهتم العلامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي ـ رحمه الله ـ بموضوع التربية الإسلامية بحكم أنه موضوع الساعة الذي يشغل قادة الفكر والمهتمين بشؤون العالم الإسلامي . وبدأ الكتابة في هذا الموضوع منذ عام ١٣٧٠هـ (١٩٥٠م) على شكل سلسلة من المقالات نشرها في المملكة العربية السعودية التي رحبت به واحتضنته ، ثم واصل الكتابة في موضوع التربية الإسلامية بين ثنايا مؤلفاته وأهمها :

أ ـ الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية .

ب ـ روائع إقبال .

ج ـ التربية الإسلامية الحرة .

والكتاب الأخير تجميع لأفكاره التي عبر عنها في عديد من محاضراته وندواته ، ومنها تلك المحاضرة التي ألقاها في جامعة الملك سعود بعنوان « التربية الإسلامية » عام ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م . ومن خلال اطلاعنا على هذه المؤلفات وتحليلنا لما جاء فيها من أفكار تبرز اتجاهات وآراء العلامة الندوي التربوية ، ويمكن بلورتها في ثلاثة محاور هي : الواقع التربوي في البلدان الإسلامية ، مبادىء وأسس التربية الإسلامية ، الحاجة إلى نظام تعليمي إسلامي جديد .

آراؤه التربوية والواقع التربوي في البلاد الإسلامية

يرى العلامة الندوي أن العالم الإسلامي يتأرجح اليوم بين عقليتين ،

وفلسفتين ، ووجهتين مختلفتين ، تتصارعان دائماً ، وأدى ذلك إلى ما يلي[١] :

أ ـ غموض والتباس في مسائل التربية والتعليم ، ترتب عليه فوضى تعليمية ، وتناقض وصراع بين العقائد والغايات والأهداف الإسلامية وبين نظام التعليم الذي يطبق النظريات الغربية المستوردة .

ب ـ صراع مستمر بين الفكر الإسلامي والروح الإسلامية من ناحية ، وبين نظم التعليم الغربية من ناحية أخرى ، وقد تجلى هذا الصراع واستفحل في جميع الأقطار الإسلامية التي أخذت العلوم الغربية برمتها والكتب المقررة في البلاد الأجنبية .

ج ـ شك واضطراب وفوضى فكرية هائلة ، وتناقض في الأفكار والآراء ، وارتياب في الدين واستخفاف بفرائضه وواجباته ، وثورة على الآداب والأخلاق ، وضعف وانحطاط في السلوك ، وتقليد للأجانب في القشور والظواهر وتبذير للأموال .

د ـ انقسام النظام التعليمي إلى معسكرين : المعسكر الديني والمعسكر العلماني ، أو بعبارة أخرى إلى المعسكر القديم والمعسكر الجديد ، وهذه الثنوية أو ما يسمى بازدواجية التعليم ، هي السبب الأكبر في خلق الحيرة والاضطراب والشك . إن الأصل في التعليم أن يكون وحدة واحدة لا تتجزأ . حقاً توجد في التعليم غايات ووسائل مركبة ، لكن ذلك لا يعني ثنائية أو ازدواجية ؛ لأن بين الوسائل والغايات وحدة تربطهما معاً .

هـ ـ لقد أدت ازدواجية التعليم إلى ازدواجية في عقلية وأسلوب المجتمع الإسلامي ، كما أدت إلى ازدواجية في وجداناته ومشاعره ، وهذا هو سر ما تعانيه البلدان الإسلامية من صراع مستمر بين الفكر الإسلامي والروح الإسلامية من جهة ، وبين العقلية الجديدة والنفسية الجديدة من جهة أخرى ،

---

(١) العلامة أبو الحسن الندوي « نحو التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية » ص٣٧ .

وهذا الصراع ـ كما يرى العلامة الندوي ـ ليس أقل شؤماً على الأمة الإسلامية ، ولا أقل جناية على حياتها وسلامتها ، من ذلك الصراع الذي عاشته أوربة في العصور الوسطى بين الدين والسياسة .

مبادىء وأسس التربية الإسلامية

يرى العلامة الندوي أن التربية في البلدان الإسلامية ينبغي أن تستند إلى المبادىء والأسس التالية[١] :

(أ) تميز التربية الإسلامية :

نخطىء كثيراً إذا اعتقدنا أن التربية نقل معلومات وشحن للذاكرة بأفكار مبعثرة لا وحدة بينها ، كما أنها ليست مجرد محاربة الأمية والجهالة . فالتربية ليست عملية تثقيف لأفراد المجتمع فقط ، وليست مجرد تعليم العلوم والفنون واللغات الوطنية والأجنبية والآداب الأوربية والمحلية ، وإنما عملية التربية في الحقيقة مسؤولية دقيقة . ويستشهد العلامة الندوي في هذا المجال بكتابات فلاسفة التربية الغربية أنفسهم ، ليؤكد أن عملية التربية مسؤولية ضخمة ، فينقل عن المربي الأمريكي كونانت Connant قوله : « إن عملية التربية ليست بيعاً وشراء ، وليست بضاعة تصدر إلى الخارج أو تستورد إلى الداخل . إننا في فترات التاريخ خسرنا أكثر مما ربحنا ، باستيراد نظريات التعليم الإنجليزية والأوربية إلى أمريكا »[٢] .

ويعلق العلامة الندوي على هذا بقوله : « هذا الرجل الفاضل (يقصد كونانت) قد بلغ من الحساسية إلى حد يرى فيه أن ما نقل من نظريات أوربة ـ في مجال التعليم ـ إلى أمريكا إنما يمثل جناية على الشعب الأمريكي ، وافتقاداً لشخصيته ، وعملية إجرام وهدم ـ هذا رغم ما بينهما من روابط كثيرة ـ

---

(١) المرجع السابق ص١٧٢ ـ ١٧٣ .
(٢) المرجع السابق ص١٧٣ .

فكيف ببلدين لا يلتقيان على دين واحد ، ولا على عنصر واحد ، ولا على لغة واحدة أو ثقافة واحدة »[١] .

لذا يرى العلامة الندوي ، أن هدف التربية ،وقضية التربية ، في البلدان الإسلامية ينبغي أن يكون مخالفاً للتربيات الغربية ، أي ينبغي أن يكون هدفها نابعاً من ذاتها ، متمثلاً في إنشاء جيل جديد يؤمن برسالته الإسلامية ، قادراً على تحمل هذه الرسالة السامية .

(ب) أن التربية سمة خاصة بكل مجتمع :

التربية لباس خاص يفصَّل في كل مجتمع على قامة الشعب وملامحه وثقافته وتقاليده وأهدافه وآدابه . إنه لباس يجب أن ينسجم مع أجوائه وبيئته التي يعيش فيها ، وتراثه وتاريخه الذي يغار عليه . إذا كان هذا هو أمر التربية وما يعترف به شتى المربين ، فينبغي علينا نحن المسلمين « أن نجعل عقائدنا التي جاءت بها النبوة الأخيرة والدين الذي لم تعبث به يد التحريف والمسخ أساس تربيتنا »[٢] ، وأن نفصِّل تربيتنا في ضوء القيم الإسلامية ومبادىء الإسلام وأهدافه .

(ج) التربية وسيلة وليست غاية :

لم تعد التربية والتعليم غاية في الأمم التي بلغت سن الرشد واستكملت الوعي ، بل أصبحت وسيلة . ولقد كان العلم في دور الطفولة العقلية ينظر إلى أشياء كثيرة على أنها غاية وهدف ، ثم أصبح مع تقدم العقل البشري وتطور تجاربه ينظر لها على أنها وسائل . فلا غرابة إذا كان قد نُظر إلى التربية والتعليم والمدارس والكليات والمكتبات باعتبارها غاية ، وللأسف لا تزال هذه النظرة شائعة ومسيطرة على الشرق . فنحن إذا علّمنا عدداً كبيراً من أفراد الشعب القراءة والكتابة ، وإذا أسسنا عدداً من المدارس والكليات شعرنا بأننا أدينا

---

(١) المرجع السابق ص١٧١ .
(٢) المرجع السابق ص٣٠ .

الرسالة وحققنا الغاية. والصواب أن التعليم قنطرة تصل بين الحاضر والماضي، وبين العلم والعقيدة، وأن التربية والتعليم في خدمة فكر الأمة وثقافتها وقيمها وأخلاقها، وبعبارة مختصرة في خدمة إسلامها الذي هو الدين الحق.

(د) التعليم مسألة خصوصية :

إن مسألة التعليم في البلاد الإسلامية مسألة مستقلة بذاتها، إنها ليست مسألة الصناعة التي يجوز فيها النقل عن الآخرين، والاستفادة من أفكارهم ونظرياتهم بقصد نقل خبراتهم وإنجازاتهم أملاً في تجاوزها. إن مسألة التعليم في البلدان الإسلامية مسألة ينبغي أن تكون قائمة بذاتها، لأن الأمة الإسلامية أمة لها خصوصياتها « إنها أمة ذات مبدأ وعقيدة، ورسالة ودعوة، فيجب أن يكون تعليمها خاضعاً لهذا المبدأ وتلك العقيدة، ولا يخضع لغير ذلك من أفكار أو فلسفات »[١].

(هـ) التعليم يرتبط بالعقيدة الإسلامية :

إن التعليم أداة لإنشاء الأجيال التي تؤمن بهذا المبدأ، وتدين بهذه العقيدة، وتحمل هذه الرسالة، وتؤدي هذه الدعوة. وكل تعليم لا يؤدي هذا الواجب ويخون الأمانة فليس بالتعليم الإسلامي، بل هو التعليم الأجنبي، وليس هو البناء والتعمير، بل هو الهدم والتخريب، وأولى للبلاد الإسلامية أن تتجرد منه وتُحرم من ثمراته المادية، « إن الأمية خير لها من هذا التعليم الذي يصيبها بالغدر » في طبيعتها وعقيدتها وروحها، وذلك لأن التعليم مثل الحامض يمكن أن يذيب شخصية الكائن الحي ثم يكونها كما يشاء. إن هذا الحامض هو أشد قوة وتأثيراً من أي مادة كيميائية، إنه يستطيع أن يحول جبلاً شامخاً إلى كومة من تراب »[٢]. فإن فقد الإنسان دينه وفكره وهويته فماذا يتبقى له بعد ذلك ؟!

---

(١) المرجع السابق ص٣٠.
(٢) المرجع السابق ص١٠.

(و) للعلم روح وضمير :

إن العلم والكتب مثلها مثل الكائنات الحية ، فالعلوم التي توصل إليها المسلمون والكتب التي ألفوها سرت فيها روح الإيمان بالله والتقوى والخشية والفضيلة والإيمان بالآخرة . والعلوم التي توصل إليها اليونان والكتب التي ألفوها حملت خرافاتهم وروحهم الملحدة . وكذلك العلوم التي توصلت إليها أوربة الملحدة والكتب التي ألفها مفكروها سرت فيها أفكارهم الإلحادية وإيمانهم بالماديات والمحسوسات ، وقلة تقديرهم لكل ما لا يوزن ويحصى أو يرضخ للتجربة ، وسرت هذه الروح في علومهم وآدابهم وفلسفاتهم[١] .

ومما سبق يتضح أن نقل هذه العلوم وتلك الكتب بأطرها وروحها وضميرها إلى أبناء المسلمين يضر بالمسلمين أبلغ ضرر . « لذا ينبغي على البلدان الإسلامية أن تعيد تدوين هذه العلوم من جديد تدويناً إسلامياً ، وأن ينشأ جيل جديد يفكر بالعقل الإسلامي ، ويكتب بقلم مسلم ، ويدير دفة البلاد وفق مبادىء الإسلام »[٢] . الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى أن تصبح البلاد الإسلامية إسلامية حقاً في عقلها وتفكيرها وسياستها واقتصادها وتعليمها .

(ز) أهداف واضحة ومحددة للتربية الإسلامية :

للتربية الإسلامية أهداف واضحة ودقيقة تتمثل فيما يلي[٣] :

١ ـ أن يفهم أبناؤنا غايتهم ورسالتهم ، وأن يدركوا أنهم يتعلمون ليستحقوا سعادة الدنيا والآخرة ، وينقذوا أنفسهم وأهليهم من النار وسخط الخالق والحياة الجاهلية ، ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

٢ ـ أن يدرك أبناؤنا أن كل شيء في حياتهم فرع ووسيلة ، وأن غايتهم

---

(١) المرجع السابق ص٥١ .
(٢) المرجع السابق ص٢٠ .
(٣) المرجع السابق ص٨٣ .

النهائية ليست الوظائف (وإن كانوا يشغلونها بأهلية ، ويقومون بها بأمانة ويقظة) ، ولا المهن والحرف (وإن كانوا يباشرونها بيقظة وكفاءة) ولا الراحة والرغبة والمجد ، (وإن كانوا يتمتعون به في حل وفي اعتدال) ، وإنما غايتهم حسن العمل إلى الله ، لذلك عليهم أن يستعملوا مواهبهم ، ويركزوا قواهم وجهودهم ، ويعملوا لذلك على اختلاف أذواقهم وفنونهم ومهنهم .

٣ ـ أن يقدر أبناؤنا قيمة علمهم ، ويعرفوا كيف يحافظون على كرامتهم . فلا يضعون أنفسهم إلا في أشرف موضع يقدرون عليه من غير تكبر ولا أنانية ، وأن يستعملوا مواهبهم في الوجه الذي يليق بها ، وأن يعتزوا بدينهم والانتساب إليه .

٤ ـ أن يتشبع أبناء المسلمين بروح الدعوة ، فقد اتضح أن أمة أو جماعة ليس فيها روح الدعوة والتقدم والهجوم لا تحافظ على مبادئها وعقيدتها ، ذلك أن موقف المدافع موقف ضعيف ، وكل من لا يكون داعياً يكون هدفاً لدعوة أخرى . كما ثبت بالتجربة أن خير وسيلة للإيمان بالمبدأ والثبات عليه هي الدعوة إلى هذا الإيمان ، فالداعي قوي الإيمان بمبدئه متحمس في عقيدته نشيط في عمله ، فإذا أردنا أن نوجد في أبنائنا هذه الصفات فينبغي لنا أن نجعلهم دعاة .

٥ ـ أن يختلط أبناء المسلمين المتعلمين (طلاب المدارس والجامعات) بإخوانهم أبناء المجتمع على اختلاف طبقاتهم ممارسين دورهم في الدعوة والإرشاد والتوجيه بالموعظة الحسنة ، وبهذه الطريقة يحقق أبناء المسلمين هدفاً سامياً ، ويقضون في الوقت نفسه على داء شديد حل بدور العلم ورجاله ، وهو العزلة عن العالم الذي يعيشون فيه والانقطاع عن الأمة التي هم من أفرادها .

(ح) إن العلوم والفنون ليست غايات :

إن الشعوب التي تتخذ الوسائل غايات والعلوم والفنون آلهة تعبد ، ويقوى فيها النظر والجدل على حساب الابتكار والعمل ، وتضعف فيها الإرادة وقوة

المقاومة للمغريات ووسائل الترفيه ، وتعشق الحياة والملذات ، وتنشر فيها البلبلة الفكرية والتشكيك الشامل للعقائد والآداب والاستخفاف بجميع التقاليد والعادات التي كان فيها الشيء الكثير من القوة والصلاح ، ويتطاول فيها الريب إلى مصادر الدين ومراجع التاريخ ، هذه الشعوب لا تثبت أمام أي عدو زاحف أو قوة مهاجمة ، ولا تثبت في أي معركة يوماً واحداً[١] .

(ط) إن التعليم لا يعطي ثماره بدون مساندة المجتمع :

إن التعليم مهما كان راقياً ، ومهما اتسعت شبكته وأحكم صنعها ، لا يعطي ثماره الشهية ولا يؤثر التأثير المطلوب إذا كان المجتمع يجتاز مرحلة عنيفة غير عادية من الحالة النفسية أو الخلقية ، أو كان مصاباً بالهستيريا المادية ، وتمجيد رؤوس الأموال بصرف النظر عن القيم والمستوى الخلقي . في هذه الحالة المشبعة بالهستريا المادية تذوب طبقة المثقفين الجامعيين وغير الجامعيين والمفكرين والباحثين والمحققين . لذا لا يجوز التغاضي عن الحالة الاجتماعية في البلد وما يجتاح المجتمع من موجات وتيارات ، ولا بد من العناية بتقويم المجتمع ومكافحة الأوبئة والأمراض التي تفترسه وتنخر هيكله ، وذلك عن طريق الدعوة الدينية والخلقية[٢] .

(ي) ينبغي أن يساند الإعلام دور المدرسة :

إن وسائل الإعلام في كل بلد أصبحت أقوى وأوسع من كل مدرسة ، وأصبحت لها الكلمة الأخيرة في تقديم القيم ، وفي وزن الأشياء ، وفي تصريف الميول والرغبات ، لذا يقول عنها بعض الخبراء أنها كالقلب إذا صلُح صلح جسد المجتمع ، وإذا فسد فسد جسد المجتمع ، لذا ينبغي أن يتوافر الانسجام التام بين هذه المؤسسات الإعلامية وبين المدرسة[٣] .

---

(١) المرجع السابق ص١٦٠ .

(٢) المرجع السابق ص١٦٦ .

(٣) بحث ألقاه الندوي في المؤتمر التعليمي العالمي الأول بمكة المكرمة في ٢١ مارس - ٨ أبريل ١٩٧٧م .

(ك) تعليم الفتاة المسلمة :

إن تعليم الفتاة المسلمة قضية تحتاج إلى دقة واستقلال فكري ، وتحرر من تقليد مفهوم التعليم النسوي الذي أخذت به الأقطار الغربية والشرقية في ظروف تختلف عن ظروفنا كل الاختلاف ، إنها قضية تحتاج إلى تخطيط فيه الإبداع والأصالة ، وفيه الذكاء والخبرة .

إن تاريخ البلاد والأمم يشهد بأن أعظم أسباب الانحطاط والفوضى التي أدت إلى زوال الأمم وانقراضها ، وانحطاط المدنيات وانهيارها ، هو تفكك نظام الأسرة ، واختلال الميزان في الحياة المنزلية ، وزهد النساء فيها والتهرب من مسؤولياتها ، وانتشار السفور والتبرج ، إن انصراف النساء عن الحياة المنزلية وزهدهن في الأمومة وحضانة الأولاد والاعتناء بتكوين البيت الصالح الذي يجد فيه الرجل جميع أسباب الراحة والهدوء ، يؤدي إلى فساد الحضارة وانحطاطها . إن تقليد نظام التعليم الغربي في مجال تعليم الفتاة بقدِّه وقديده يعد مخاطرة تهدد شخصية البلاد الإسلامية ورسالتها ، لذا ينبغي أن نكون على حذر من استعارتها ، والعاقل من اتعظ بغيره[١] .

(ل) صياغة العلوم والآداب الغربية صياغة جديدة :

إن العلوم والآداب الغربية ينبغي أن نتناولها كمواد خام ونصوغها صياغة جديدة . إن علوم الغرب وآدابه لا يمكن أن نتجاهلها ، ولا يمكن أن نتجاهل إمكانات الغرب وإنجازاته ، بل ينبغي أن نأخذها ونصنع منها ما نشاء وفق حالتنا وحاجتنا . وذلك بأن نفرغها من قالبها ونجردها مما اقترن بها من عوامل الإلحاد والفساد والاستخفاف بالقيم ، ونأخذها نقية صافية مهذبة منقحة ، بل وعلينا أن نُطعِّمها بالإيمان بالله والنظر العميق المؤسس على التوحيد .

---

(١) نحو التربية الإسلامية الحرة ص١٦٨ .

الحاجة إلى صوغ نظام تعليمي إسلامي

يرى العلاّمةُ الندوي أن حل مشكلة التربية والتعليم في المجتمعات الإسلامية يكمن في الحاجة إلى صوغ نظام تعليمي إسلامي في روحه وأهدافه وتربيته ، بحيث لا يخلو كتاب من الكتب ـ أياً كان ـ سواء أكان كتاباً في مبادىء اللغة أو في الأدب الإنجليزي أو العلوم البحتة من روح الدين والإيمان[١] .

إن وضع هذا المنهاج التعليمي يعد من حاجات البلاد الإسلامية الأولى التي لا يمكن التغافل عنها أو التساهل فيها ، ولا بد من بدء عملية تطوير المناهج ، وسبك منهج تعليمي جديد ، يتغلغل في أحشائه الإيمان بالله ، ويسيطر على جميع فروعه وجزئياته .

إن هذا العمل ليس بالسهل أو الهين ، إنه مشروع ضخم يتطلب ثورة في التفكير ومغامرة في المساعي ، لكنه عمل تجديدي من أعمال الإصلاح التربوي . إنه عمل شاق واسع يتطلب وقتاً طويلاً ، ولا يستطيع أن ينجزه فرد من الأفراد أو حفنة من الناس ، إنما هو عمل تقوم به جماعات ولجان ومجامع علمية ، بمساعدة الحكومات الإسلامية وتشجيعها ، على أن يسند كل جزء من هذا الإنتاج العلمي إلى جماعة تتوفر فيها مؤهلاته ، وهذه هي أكبر خدمة للإسلام والمسلمين في هذا العصر .

إن هذا العمل ـ مهما كان طريقه طويلاً وشاقاً ، ومهما كانت العقبات والعراقيل التي تواجه البلدان الإسلامية في إنجازه ـ يعد الحل لموجة التغريب الطاغية التي اكتسحت العالم الإسلامي ، والتي تهدد كيانه الفكري وجهازه الاجتماعي ، بل وتهدد حياته وبقاءه . وفي كل الحالات ينبغي لمناهجنا أن يحتل فيها القرآن الكريم مكانته ، فليكن له القسط الأوفر والنصيب الأكبر في

---

(١) نحو التربية الإسلامية الحرة ص١١ .

دراستنا . وكذا السيرة النبوية ، وتاريخ الصحابة ، مع الاهتمام بالتربية المعنوية ، والتربية البدنية والعلوم العصرية الجديدة[١] .

لكن تحقيق ذلك كله يتوقف على وجود معلمين يؤمنون بهذه المبادىء والعقائد ، ويخلصون لها كل الإخلاص ، ويدعون إليها بإيمان وحكمة ، وتكون حياتهم خير مثال لما يدعون إليه . غير أن قضية اختيار المعلمين ليست سهلة كما يظن كثير من رجال التربية . فالعلم والقدرة التعليمية والمؤهلات العلمية لا تكفي وحدها ، بل يجب أن تكون للسيرة والخلق والمبدأ والغاية والإيمان والعقيدة المكانة الأولى والأهمية الكبرى عند اختيار المعلم[٢][٣] .

* * *

(١) المرجع السابق ص٩٥ .
(٢) المرجع السابق ص٢٢ .
(٣) من « أصول التربية الإسلامية » بتصرف .

صوغ نظام التربية والتعليم من جديد

نتائج تطبيق النظام التعليمي الغربي في الشرق الإسلامي :

لا يخفى على المطلع الخبير : أنَّ نظام التعليم روحٌ وضميرٌ ، كالكائن الحيِّ له روحٌ وضميرٌ ـ كما أسلفنا في المقال السابق ـ إنَّ روح نظام التعليم وضميره إنَّما هو ظلٌّ لعقائد واضعيه ونفسيتهم ، وغايتهم من العلم ودراسة الكون ، ووجهة النظر إلى الحياة ، ومظهرٌ لأخلاقهم ، وذلك ما يمنح نظام التعليم شخصيةً مستقلةً ، وروحاً وضميراً بذاتها . إنَّ هذه الروح هي التي تسري في هيكله تماماً . إنَّها تسري في جميع العلوم ، في الأدب والفلسفة ، والتاريخ والفنون ، والعلوم العمرانية ، حتى في علمي الاقتصاد والسياسة ، بحيث يصعب تجريدها من هذه الروح ، وليس في وسع كلِّ شخص أن يميز بين الصحيح والسقيم منها ، وإنما يتيسر ذلك لرجلٍ أوتي من قوة الاجتهاد ، وملكة النقد القوية ما يستطيع به أن يميز الجزء النافع من الجزء الضار ، فيكون عاملاً بمبدأ « خذ ما صفا ودع ما كدر » ويفرق بين الأصل والزائد حتى يتمكن من أخذ جوهرها وروحها .

وهذا العمل سهلٌ في العلوم الطبيعية التطبيقية ، بينما هو صعبٌ ودقيق في نفس الوقت في الأدب والفلسفة ، والعلوم العمرانية ، ولا سيما إذا كانت أمة تؤمن بعقائد معينةٍ ، وتتبنى فلسفةً مستقلةً ، وأسلوباً خاصاً للحياة ، وتاريخاً مستقلاً لا يعدُّ من ألفاظ الماضي ، وإنَّما هو منارة نور للأجيال القادمة . وتعتبر شخصية الرسول وعهده الأسوة الحسنة التي تفوق جميع القيم والمثل العليا للحياة الإنسانية ، إذا كانت أمةٌ هذه صفتها ، تتبنى نظام تعليم الأمة ، تختلف في الأساس والقيمة والمعيار ، يحدث هنالك صراعٌ مستمرٌّ ، لا يفارق

هذه الأمة في أيِّ مرحلةٍ من مراحل حياتها يجر إلى بناء واحدٍ ، وهدم آخر ، إلى تصديق واحدٍ ، وتكذيب آخر ، إلى إجلال واحدٍ ، وازدراء آخر ، وفي مثل هذه الحال يجب أن يحدث هنالك نزاعٌ عقلي ، وتزعزعٌ في العقيدة ، وانحرافٌ عن الدين ، وأخيراً قبول القيم والأفكار الحديثة مكان القيم والأفكار السالفة ، وذلك أمرٌ طبيعيٌّ يجب أن يحدث كأمورٍ طبيعيةٍ ، لا يحول دون حدوثه حسن النية ، أو القلق ، ورغبة الآباء والأولياء ، والاحتياطات الفرعية والخارجية ، وإنما يمكن تأجيل موعده ، أو إبطاء سيره على أكثر تقدير ، دون تعويقه أو القضاء عليه ، كما أنَّ الشجرة إذا نشأت وتربت وفق نظامها الطبيعي تؤتي أكلها ، وتثمر في موعدها ، أمَّا الإنسان فبإمكانه ألا يغرس شجرةً ، ولا يسهر عليها بالتعاهد والسقي ، أو يعضدها إذا اكتملت وشبت ، ولكن ليس بإمكانه أن يقوم في وجه شجرةٍ مثمرةٍ خضراء ، أو يفرض عليها أن تثمر ثمر شجرٍ آخر .

تلك هي قصة نظام التعليم الغربي ، فإنَّه يحمل روحاً مستقلةً ، وضميراً منفرداً ، تتجلَّى فيه عقيدة مؤلفيه ، وعقلية واضعيه ، وهو نتيجة التقدُّم الطبيعي في آلافٍ من السنين ، وتعبيرٌ عن أفكار أهل الغرب ، ومجموع أقدارهم وقيمهم ، فإذا طبق هذا النظام التعليمي في بلادٍ مسلمةٍ ، أو مجتمعٍ إسلاميٍّ ، يحدث به قبل كلِّ شيءٍ صراعٌ عقليٌّ ، ثم يتدرج ذلك إلى تزعزع العقيدة ، والردَّة الفكرية ، وأخيراً إلى الردَّة الدينية ، وذلك طبيعي لكلِّ من يستهدف لذلك (إلَّا من عصم ربُّك) وما أحسن ما كتبه أحد علماء الغرب الناقدين[١] الذي له خبرة واسعة بنتائج نظام التعليم الغربي في الشرق : « لقد بسطنا في الفصول الماضية بعض الأسباب المؤيدة للرأي القائل بأنَّ الإسلام والمدنية الغربية ـ وهما يقومان على فكرتين في الحياة متناقضتين تماماً ـ لا يمكن أن يتفقا ، فإذا كان ذلك كذلك ، فكيف نستطيع أن نتوقع أن تظل تنشئة أحداث المسلمين على أسسٍ غربيةٍ ، تلك التنشئة القائمة في مجموعها

(١) هو محمد أسد (Leopold Wess) سابقاً .

على التجارب الثقافية الأوروبية ، وعلى مقتضياتها ، خالصةً من شوائب النفوذ المعادي للإسلام .

ليس ثمة ما يبرر توقعنا لذلك ، وإننا إذا استثنينا بعض الأحوال النادرة ، التي يتاح فيها لعقلٍ نيِّرٍ للغاية أن يتغلب على مادة التعليم ، فإنَّ التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ، ستفضي حتماً إلى زعزعة إرادتهم في أن يعتقدوا ، أو أن ينظروا إلى أنفسهم على أنَّهم هم ممثلو الحضارة الإلهية الخالصة التي جاء بها الإسلام ، وليس ثمة من ريبٍ في أنَّ العقيدة الدينية آخذةٌ في الاضمحلال بسرعةٍ بين « المتنورين » الذين نشؤوا على أسسٍ غربية[1] ! » .

ثم يقول ، وهو يتحدث عن أجزاء برامج التعليم الغربية المختلفة ، فيتحدث عن تدريس الآداب الغربية ، وتأثيرها في عقلية النشء الإسلامي :

« إنَّ تعليم الأدب الأوروبي على الشكل الذي يسود اليوم الكثير من المؤسسات الإسلامية يقود إلى جعل الإسلام غريباً في عيون الناشئة المسلمة ، ومثل هذا ـ ولكن إلى حدٍّ أبعد ـ يصدق على التعليل الأوروبي للتاريخ العام ؛ إذ لا يزال الموقف القديم فيه : (رومانيون وبرابرة) يظهر بجلاء ، ثم إنَّ لمثل هذا العرض في التاريخ هدفاً خفياً ، ذلك أنه يدلِّل على أنَّ الشعوب الغربية ومدنيتها أرقى من كلِّ شيءٍ جاء ، أو يمكن أن يجيء إلى هذا العالم ، وهكذا يمكن خلق نوعٍ من التبرير الأدبي لسعي الأوروبيين إلى السيطرة ، وإلى القوة المادية »[2] .

ويتكلَّم عن تأثير تدريس مادة التاريخ على النمط الغربي ، فيقول :

« أما التأثير الوحيد الذي يمكن أن يتركه مثل هذا التثقيف التاريخي في عقول الأحداث من غير الشعوب الأوروبية ، فإنما هو شعور هذه الشعوب بالنقص فيما يتعلق بثقافتهم الخاصَّة ، وبماضيهم التاريخي الخاص ، وبالفرص السانحة لهم في المستقبل ، وهكذا يتربون تربيةً منظمةً على احتقار

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص٧٣ .
(٢) الإسلام على مفترق الطرق ص٧٣ .

ماضيهم ومستقبلهم ، اللَّهمَّ إلَّا إذا كان مستقبلاً مستسلماً للمثل العليا الغربية » .

وأخيراً يقول بكلِّ حماسٍ وصراحةٍ :

« وإذا كان المسلمون قد أهملوا فيما مضى البحث العلمي ، فإنهم لا يستطيعون أن ينتظروا إصلاح هذا الخطأ اليوم عن طريق قبول التعليم الغربي من غير وازعٍ ما ، إنَّ كل تأخرنا العلمي ، وكلّ فقرنا لا يوزنان بذلك التأثير المميت الذي سيحدثه تقليدنا الأعمى لنظام التعليم الغربي في قوى الإسلام الدينية الكامنة ، إذا أردنا أن نحفظ حقيقة الإسلام على أنها عنصرٌ ثقافي ؛ فيجب علينا أن نحترس من الجوِّ الفكري للمدنية الغربية ، ذلك الجو الذي أصبح على وشك أن يتغلب على مجتمعنا وعلى ميولنا ، وبتقليد عادات الغرب وزيِّه في الحياة يصبح المسلمون تدريجياً مضطرين إلى الأخذ بوجهة النظر الغربية . إنَّ تقليد المظاهر الخارجية يقود شيئاً فشيئاً إلى تقبل الميل العقلي المصاحب لذلك[١] » .

وقد تكهَّن بهذه النتيجة بعض مفكري الغرب الذين كانوا مسؤولين عن تطبيق هذا النظام التعليمي في بلدان الشرق ، وقد كتب الكاتب الإنجليزي المعروف اللورد ميكالي (Lord Macaulay) في تقريره ، وقد كان رئيس اللجنة التعليمية (عام ١٨٣٥م) التي قررت جعل اللغة الإنجليزية أداة التعليم لأهل الهند بدلًا من اللغات الشرقية الأخرى ، إنه يقول :

« يجب أن ننشىء جماعةً تكون ترجماناً بيننا وبين ملايين من رعيتنا ، وستكون هذه الجماعة هندية في اللون والدم ، إنجليزية في الذوق والرأي ، واللغة والتفكير »[٢] .

ويقرر المستشرق الكبير « جب » (Gibb) في كتابه « وجهة الإسلام » (Wither Islam) : أنَّ التجدد ، والتفرنج في الشرق إنما هما خاضعان لمقياس

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص٧٣ .

(٢) تاريخ التعليم لمؤلفه ميجر باسو ص٨٠ .

نظام التعليم الغربي ، ومدى سيطرته ، وتغلغله في المجتمع الإسلامي الشرقي ، يقول :

« والسبيل الحقيقي للحكم على مدى التغريب (أو الفرنجة) هو أن نتبين إلى أيِّ حدٍّ يجري التعليم على الأسلوب الغربي ، وعلى المبادىء الغربية ، وعلى التفكير الغربي ، والأساس الأول في كلِّ ذلك هو أن يجري التعليم على الأسلوب الغربي ، وعلى المبادىء الغربية ، وعلى التفكير الغربي . . . هذا هو السبيل الوحيد ، ولا سبيل غيره ، وقد رأينا المراحل التي مرَّ بها طبع التعليم بالطابع الغربي في العالم الإسلامي ، ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين ، وقليل من الزعماء الدينيين »[١] .

يلاحظ جب : أنَّ النشاط التعليمي والثقافي (عن طريق المدارس العصرية والصحافة) قد ترك في المسلمين ـ من غير وعيٍ منهم ـ أثراً جعلهم يبدون في مظهرهم العام لا دينيين إلى حدٍّ بعيد ، ثم يعقب على ذلك بقوله : « وذلك خاصَّةً هو اللبُّ المثمر في كلِّ ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار »[٢] .

مؤامرة دقيقة لإبادة العنصر الإسلامي :

لقد كان نظام التعليم الغربي محاولةً عميقةً وخفيةً لإبادة العنصر الإسلامي ، والقضاء عليه ، وانتقل مفكرو الغرب من طريقتهم الممقوتة القديمة التي كانوا يؤثرونها في إبادة الأجيال ، والفتك بها إلى هذه الطريقة الجديدة التي قرَّروا صوغها في قالبهم ، فأسسوا لهذا الغرض مراكز كثيرةً باسم الكليات والجامعات ، وقد عبَّر عن هذه الحقيقة التاريخية أحسن تعبير الشاعر الإسلامي « أكبر الإله آبادي » في أسلوبه الطريف الخاص إنه يقول في بيته السائر :

---

(١) الجزء الثاني من الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ص٢٠٢ .

(٢) الجزء الثاني من الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ص٢٠٤ .

« يا لبلادة فرعون الذي لم يصل تفكيره إلى تأسيس « الكليات » ، وقد كان ذلك أسهل طريق لقتل الأولاد . ولو فعل ذلك لم يلحقه العار ، وسوء الأحدوثة في التاريخ » .

كما أوضح الفرق بين ساسة الشرق والغرب في بيتٍ آخر يقول : « إنَّ أهل الشرق يقضون على العدو بشدخ رأسه ، ولكن الغربي يغيِّر طبيعته وقلبه » ، وجاء إقبال بعده بعدَّة سنوات ، وقد اكتوى بنار نظام التعليم الغربيِّ شخصياً ، وخاض في دراسته ، فأبدى حقيقته في أسلوبٍ أكثر عمقاً ، وأبعد عن التنكيت والدعابة ، يقول :

« إيَّاك أن تكون آمناً من العلم الذي تدرسه ، فإنه يستطيع أن يقتل روح أمَّةٍ بأسرها »[١] إنَّه يعبر عن ذلك الانقلاب الهائل والتحويل الجذري الذي يحدثه نظام التربية الحديث بقوله :

« إنَّ التعليم هو « الحامض » الذي يذيب شخصية الكائن الحي ، ثم يكوِّنها كما يشاء ، إنَّ هذا « الحامض » هو أشدُّ قوةً وتأثيراً من أيِّ مادةٍ كيميائية ، هو الذي يستطيع أن يحوِّل جبلاً شامخاً إلى كومة تراب »[٢] .

إنه يرى نظام التعليم الغربي مؤامرةً على الدِّين والخلق ، كما يقول :

« إنَّ نظام التعليم الغربيِّ ، إنما هو مؤامرةٌ على الدِّين ، والخلق ، والمروءة »[٣] .

إنَّ إقبال من أولئك الرجال المعدودين الذين خاضوا بحر نظام التعليم الغربي ، فلم يخرجوا من قعره سالمين فقط ، بل وقد جاؤوا معهم بدرر كثيرة ، وازدادوا إيماناً بخلود الإسلام ومضمراته الواسعة ، وازدادوا ثقةً بنفسهم ، ولو كان من الصعب أن نحكم على إقبال : أنَّه لم يخضع للتعليم

---

(١) أرمغان حجاز .
(٢) ضرب كليم .
(٣) ضرب كليم ص٨٥ .

الغربيّ ، والفلسفة الغربية في قليلٍ أو كثير ، وأنَّ فهمه للدين يطابق الكتاب والسنة ، وفهم السلف تماماً ، ولكنَّ الذي لا مرية فيه : أنه لم ينصهر في بوتقة الغرب ، كما انصهر آلاف من معاصريه ، وحقَّ له أن ينشد في هذه المناسبة شعره الذي معناه :

« كسرت طلسم العصر الحاضر ، وأبطلت مكره ، التقطت الحبَّة وأفلتُّ من شبكة الصيّاد ، يشهد الله أني كنت في ذلك مقلداً لإبراهيم ، فقد خضت في هذه النار واثقاً بنفسي ، وخرجت منها سليماً محتفظاً بشخصيَّتي »[١] .

أما شهادة الزعيم الإسلامي الهندي مولانا محمد علي عن التعليم الحديث وأثره ، فتحمل قيمةً لا تنكر ، وقد تربَّى في بيئةٍ مؤمنةٍ دينيَّة ، ثم بدأ دراسته في أكبر مراكز التعليم الغربي « الجامعة الإسلامية في عليكره » في الهند ، إنَّه يقول في ترجمة حياته :

« لقد كانت الحكومة البريطانية تحمل لواء الحياد الديني الكامل ، فقد أقصت دراسة مادة الدين حتى دراسة الأخلاق تماماً من الكليات ، وطبقت هذه السياسة التعليمية عملياً في ذلك ، ولم يبق من المعلومات الدينية والخلقية إلّا ما يتلقفه الطلاب بأنفسهم من الكتب الإنجليزية ، أو الكتب الدراسية المؤلفة بلغات الشرق .

كما أنَّ نظريَّة التعليم التي وضعتها الحكومة للشباب الهندي ، كانت « حديثةً » وكانت تهدف بجميع ما فيها من عوامل هدامة إلى أن يتربى في الطالب شعورٌ خاطىءٌ بعلمه وكبريائه ، يقضي على قداسة الرواية ، والحجَّة ، والإسناد بأوهامه التي يرجع تاريخها إلى ما قبل قرون ، وممّا لا شكَّ فيه : أنَّ هذا التعليم سبب إثارة دافع التحقيق والبحث عن الحقيقة مع مسايرته للزمان ، غير أنَّه كان هداماً في حملته على الديانة والأخلاق ، أما ما أعطاه بدلًا ممَّا قضى عليه من « الأوهام الدينية » (كما يقول الغربيون) فلا يقوم أيضاً إلَّا على

---

(١) أرمغان حجاز ص٧٠ .

أساسٍ من الأوهام والعقائد الخرافية ، ولكن هذه الثقافة التي يتزوّد بها الطالب كانت حديثةً لا شك »[١] .

مصدر حركة التحرر والإباحية :

إنَّ مؤلف « الإسلام في التاريخ الحديث » (W: C: Smith) الذي يحمل معلوماتٍ جديدةً حول نزعات العالم الإسلامي وطبقاته المختلفة ، يعترف بالتأثير العقلي العميق الذي يتركه التعليم الغربي الحديث ، ومراكزه في العالم الإسلامي . إنَّه يقول وهو يتحدث عن حركة التنوّر والتسامح في العالم الإسلامي (Liberalism) :

« إنَّ من أهم أسباب حركة الحرية والإباحية التي تسود اليوم في العالم الإسلامي ، ومن أكبر عواملها نفوذ الغرب ، فقد بلغت هذه الحركة أوجها إلى أوربة من أواخر القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الأولى ، وهكذا شأن نهضة أوربة وتقدمها ، وقد سافر كثير من الشباب المسلم إلى الغرب ، واطلعوا على روح أوربة وقيمها ، وأعجبوا بها إلى حدٍّ ، وينطبق هذا بخاصَّةٍ على الطلاب الذين درسوا في جامعات أوربة بعددٍ لم يزل يزداد مع الأيام ، وهم الذين سبّبوا استيراد كثيرٍ من أفكار الغرب وقيمه إلى العالم الإسلامي ، وقد حازت قصب السبق في هذا المضمار تلك المعاهد الثقافية التي قامت بتربية جيلٍ بأكمله على النمط الغربيِّ الحديث ، وكان ممَّا صدَّره الغرب إلى العالم الإسلامي تلك الأفكار المتعدِّدة الجديدة التي تقع من الأهمية والدقَّة بمكان ، والاتجاهات العقلية الدقيقة الفجَّة ، والميول الحديثة التي كان في نشرها أوفر نصيب لنمط التعليم الغربي الحديث ، ويفوقها في ذلك تأثير معاهد الغرب الحقوقية والسياسية ، والاجتماعية الجديدة ، ونفوذها الزائد ، ومنها ما يسلَّط إجباراً ، وما يحاول تسليطه ، وبينما قام بعض المسلمين لمقاومة هذا التيار رحب به البعض الآخر . إنَّ بعضهم قد وقع تحت تأثير هذه التربية رسمياً ، وبعضهم قد رحَّب بهذا التيار بدافعٍ من أنفسهم ، وأنتج ذلك

(١) My Life, A. Fragment, P. 23-24.

أنَّ كثيراً من المسلمين اعترفوا بهذه النظريات والمعاهد كحقيقةٍ ثابتة ، وخضعوا لها بالتدريج ، وهكذا استمرَّ عمل التغريب بسرعةٍ ، وقوَّةٍ بالغتين »[١] .

لقد جرف تيار نظام التعليم الغربي الشباب الإسلامي في البلاد العربية والعجمية (الذين كانوا زبدة أمتهم ، وزهرة بلادهم) وغيَّر عقليتهم إلى حد أنَّ عقولهم أصبحت لا تستطيع أن تسيغ الإسلام الصحيح ، وأصبحوا لا يندمجون في المجتمع الإسلامي أيضاً ، ويصبحون جزءاً منه ، ويشير إلى ذلك « إقبال » بقوله :

« إنَّ سحر الإفرنج أو فنَّه أذاب الصخور وأسالها ماءً » .

ظلال التفكير الغربي في الجيل المثقف الحديث :

إنَّ الإلحاح على كون الدين قضيةً شخصيةً لا علاقة لها بالدولة والحكم ، والمعاملة مع الإسلام كمعاملة الكنائس المسيحية ، ونظرية فصل الدين عن الدولة ، والاعتقاد بأنَّ الدين عائقٌ في سبيل النهضة والاكتشافات والتحقيق ، وإقامة علماء الإسلام في صفٍّ ممثلي الكنيسة المسيحية ؛ الذين كانوا يملكون السلطة المطلقة في العصور المتوسطة ، وإعطاء المرأة حقَّ الإسهام في جميع أمور الحياة في كفاحها ، والخروج مع الرجل متكاتفةً متساويةً ، وجعل الحجاب ـ في أيِّ شكل كان ـ تذكاراً لنظام الحريم القديم في الشرق ، وعلامة استبداد الرجل بالمرأة ، والقضاء عليه خطوة أولى نحو الإصلاح والتقدم ، والاعتقاد بأنَّ قانون الوراثة ، والنكاح ، والطلاق ؛ اجتهاد فقهاء المسلمين في العصور المتوسطة ، ونتيجة طبيعية للمجتمع البدائي المحدود الذي وجد في القرنين السابع والثامن الميلاديين ، وإدخال التغيير والإصلاحات في ذلك المجتمع ، وصوغه في قالب المجتمع الغربي بتطبيق المبادىء الغربية ومعاييرها عليه ، فريضة الساعة وواجب الوقت ، وصرف النظر عن الربا ،

---

(١) المصدر المذكور ص٦٤ .

والخمر ، والميسر ، وعن العلاقات الجنسية المنطلقة ، والإيمان بالقومية ، والاندفاع نحو إحياء الحضارات القديمة ، واللغات العتيقة ، والإيمان بأهمية الخط اللاتيني وفوائده ، كلُّ هذه النزعات والاتجاهات وما أشبهها التي تحتل محل الحقائق الثابتة لدى الجيل المثقف ، وتعدُّ من أمارات التنور ، والنهضة ، والتقدم ، كلُّ ذلك نتيجة نظام التعليم الغربي ، وبيئته الفكرية ، وجوِّه العلمي والعقلي ، وتراثه التاريخي ليس غير .

إنَّ القادة وولاة الحكم في البلاد المسلمة ، كلُّهم إنتاج نظام التعليم الغربي ، ووليد حضارته ، أما الذين لم يتح لهم أن يثقفوا في بلدٍ أوربي وينشؤوا في بيئته ، فإنَّهم تعلموا في مراكز هذا التعليم في بلادهم ، وتثقفوا بها تحت إشراف ممثليه الكبار ورقابتهم ، إنَّ بعضهم تخرَّجوا من الكليات الحربية التي يعنى فيها بالتعليم الغربي والتربية الغربية عنايةً فائقة .

وذلك هو السرُّ في أنَّ العالم الإسلامي اليوم يتأرجح بين عقليتين ، وفلسفتين ، ووجهتين مختلفتين ، تتصارعان دائماً ، وهذا الصراع ينتهي في أغلب الأحوال بانتصار فئة هي أكثر قوةً وأكثر تسلحاً ، إنَّه صراعٌ طبيعي ، وهو إن استحقَّ الأسف ؛ فلا يستحق الاستغراب أبداً ، بل كان موضع الدهشة والاستغراب إذا لم ينشأ هذا الصراع ، ولم توجد هذه النزعة إلى التجدُّد و « التغريب » .

الحاجة إلى موضوع جديد :

وحلُّ هذه المشكلة ـ مهما تعقد ، وطال ، واحتاج إلى الصبر والمثابرة ـ ليس إلّا أن يصاغ هذا النظام التعليمي صوغاً جديداً ، ويلاءم بعقائد الأمة المسلمة ، ومقومات حياتها ، وأهدافها وحاجاتها ، ويخرج من جميع موادِّه روح المادية والتمرُّد على الله ، والثورة على القيم الخلقية والرُّوحية وتعبُّد الجسم والمادة ، وينفخ فيه روح التقوى والإنابة إلى الله ، وتقدير الآخرة ، والعطف على الإنسانية كلِّها ، فمن اللغة والآداب إلى الفلسفة وعلم النفس ، ومن العلوم العمرانية إلى علوم الاقتصاد والسياسة لا تسيطر على كل ذلك إلا

روحٌ واحدةٌ ، تُقصي استيلاء الغرب العقلي ، وتكفر بإمامته وسيادته ، وتجعل علومه ونظرياته موضوع الفحص والدراسة الجريئة ، ويوضح ماذا جنى نفوذ الغرب وسيطرته على الإنسانية والمدنية ، وتدرس علومه بشجاعةٍ وحريَّةٍ ، وتعتبر كمواد خامة (Raw Material) تصنع منه ما يوافق حاجاتنا ورغباتنا ، وعقيدتنا وثقافتنا .

إن هذا العمل ولو كانت في طريقه عقباتٌ وعراقيل ، ولو تأخرت نتائجه ، ولكنّه حلٌّ وحيدٌ للموجة الطاغية التي قد اكتسحت العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، موجة التجدد والتقرُّب التي تتحدَّى الكيان الفكري للإسلام ، وجهازه الاجتماعي ، وظلت تهدّد حياته وبقاءه ، ونتيجة لذلك ، أصبحت عاطفة الشعوب المسلمة ، وتضحياتها ، وجهودها ، وإخلاصها ، ووفاؤها (التي هي السبب المباشر الأساسي في إنشاء الحكومات الإسلامية ، وتحرير البلاد المستعمرة) وقوداً حقيراً في نار التجدُّد والتغرُّب ، وأصبحت الجماهير المسلمة ، السليمة المخلصة ، المتحمسة الصامتة قطعاناً من الغنم يحكم في رقابها هؤلاء القادة والولاة ، وتساق إلى أي هدفٍ في صمتٍ وهدوء .

لقد كان السرُّ في نجاح الحكم الإنجليزي في الهند ، واستمرار طبقة الضباط ، والموظفين الكبار والحكام الذين رُبُّوا تربية غربيةً خالصةً ، ونشؤوا على الطاعة والنظام أنهم وضعوا نظام هذه البلاد ، ومارسوه مئة سنة حسب رغبة ولاتهم الأجانب ، وفكرتهم وثقافتهم ، فالطريق إلى تغيير اتجاه البلاد الإسلامية والعودة به إلى الحياة الإسلامية أن يُهتم بتعليم هذه الطبقة الإسلام ، وتربيتها على أسس الإسلام ، فإنها الطبقة التي تتحكم في البلاد ، وأن نصلح نظام التعليم الذي يخرج هؤلاء الأشخاص .

هذا التغيير الجذري لنظام التعليم وتكوينه الإسلامي أمرٌ لا غنى عنه ، ولكنَّه يحتاج إلى وقتٍ طويل ، ويحتاج إلى مواهب ومؤهلاتٍ عظيمةٍ ، ووسائل كثيرة[١] .

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية ص١٧٧ ـ ١٩١ =

مأساة العالم الإسلامي الكبرى :

ومن المآسي التي تحيِّر العقل ، وتجرح القلب أن تظلَّ الأقطار الإسلامية وحدها في فوضى تعليمية ، وغموضٍ والتباسٍ ، بل في تناقضٍ ومصارعةٍ بين العقائد والحقائق التي تؤمن بها ، والغايات والأهداف التي خلقت لأجلها ، والرسالة والدَّعوة التي تحتضنها ، وبين نظام التعليم الذي تطبقه والنظريات التي تستوردها ، والأساتذة الذين لا يؤمنون بها ، وعلى الأقل لا ينشطون في تدعيمها وتنميتها ، ولا تفكر في التطبيق بين العقيدة التي تتمسَّك بها ، وبين التعليم الذي تنفق عليه أكبر جزء من إمكانياتها ووسائلها ، مع أنها كانت بحملها الرسالة الأخيرة ، والأمل الأخير للإنسانية ، أجدر بهذا التطبيق ، وأحرص على إزالة جميع العناصر التي تجني على شخصيتها ، ومقوِّمات حياتها ، ومستقبل أجيالها ، وأغير على عقيدتها ودينها من الشعوب الغربية بما فيها من الشيوعية والرأسمالية والتي تتناولها دائماً بالتغيير والتحوير ، وتعيش هذه الأقطار الإسلامية متطفلةً على مائدة الأمم الأجنبية والنظم الدخيلة ، تقتبس منها ، وقد تطبقها بحذافيرها ، ولم تفكر إلى الآن في إخضاع جهاز التعليم لرسالتها السماوية ، وعقائدها الثابتة ، وعلومها المعصومة عن الخطأ والضلال ، وإزالة جميع العقبات في سبيل هذا الوئام ، والتعاون بين العلم والدين ، وتصارعه القوى المضادة ، والموجهون المتنافرون ، ويسيطر عليها الفصام النكد بين العلم والدين ، والصراع المستميت بين الحقائق الغيبيّة والمحسوسات المادية ، وبين الإيمان والشك ، وبين الإسلام والنفاق ، وبين الخلق والثبات ، والاستغلال والانتهازية .

نداء الوقت وحاجة العالم المعاصر :

وقد شعر بضرورة ذلك بعض علماء الغرب المنصفين ، فقال أحد كبار أساتذة الإسلاميات في أمريكا (Charles L.Cedder) في كلمته التي ألقاها في ١٣

= (الطبعة الأولى) .

مايو عام ١٩٦٦م في كراتشي : « إنَّ الإسلام يملك جميع الخصائص التي تستطيع أن تنشر السلام والانسجام في العالم » إنَّ الغرب يؤمل من المسلمين الذين يحملون الدين الذي أنزله الله ، وكان لهم ماضٍ مجيدٌ مشرقٌ أن يقدموا مبادىء الحياة وفلسفتها إلى الغرب ، وبذلك يستطيعون أن يحملوا راية السلام التي عينت لهم في عالم الغد » .

وذلك لا يكون إلّا بإنشاء الجيل المؤمن المثقف ، الذي يجمع بين العقيدة والعلم ، ويؤمن بخلود رسالته وصلاحيتها لكلِّ عصرٍ ومصر ، وأنها هي المنقذة للعالم من النهاية الأليمة التي ترتقبه ، ومن المستنقع الذي يتردَّى فيه .

وذلك لا يمكن كما لا يخفى إلَّا بوجود نظام التربية والتعليم ، يقوم على تطبيق بين العقيدة والثقافة ، وبين قوة العاطفة ، وإشراق الروح ، والتهاب جذوة الإيمان ، وبين العلم الواسع والفكر النيِّر ، ومعرفة أحدث ما وصلت إليه الأجيال البشرية من تجربةٍ واكتشاف .

ولا بدَّ من بدء عملية تطوير المناهج لهذا الغرض ، وسبك منهجٍ تعليمي جديد ، يتغلغل في أحشائه الإيمان بالله ، ويسيطر على جميع فروعه وجزئياته ، في الأوساط العلمية في الشرق[١] .

إنَّه مشروعٌ ضخمٌ ، يتطلب ثورةً في التفكير ، ومغامرةً في المساعي والجهود ، ومثابرةً تنهك القوى ، وتستنفد المجهود ، ولكنَّه عمل تجديديٌّ من أعمال الإصلاح والتربية ، وأكبر خدمةٍ للإسلام والمسلمين في هذا العصر ، والذي يقوم به يستحقُّ شكر الأجيال القادمة ، وأردِّد قول بديع الزمان

---

(١) أضرب مثلاً بما يقوم به صديقنا الفاضل الدكتور رفيع الدين (رئيس مجمع إقبال في كراتشي سابقاً) في لاهور ، وقد أنشأ لذلك مؤسسة سماها المؤتمر التعليمي الإسلامي ، لباكستان ، (All Pakistan Islamic Education Congress) وقد انتقل إلى رحمة الله بعد كتابة هذه السطور .

الهمذاني ، وأقول : « إنه فتح تتضاءل أمامه الفتوح ، وتثني عليه الملائكة والروح » والعالم الإسلاميُّ يتطلَّع إلى العملاق الذي يقوم بهذا العمل الذي يؤثر في مصير هذه الأمة بما لا يؤثر غيره[١] .

* * *

(١) مقتبس من المذكرة التي قدمها المؤلف إلى مؤتمر وزراء التربية للدول العربية ، المنعقد في الكويت سنة ١٣٧٨هـ .

نظرة محمد إقبال
إلى نظام التعليم العصري ومراكِزه[(١)]

نقده لنظام التعليم :

نظر الدكتور محمد إقبال إلى نظام التعليم الحديث ، فرأى فيه مواضع ضعفٍ كثيرةً ، وجوانب نقص عظيمةً ، فتناولها بالانتقاد في صراحةٍ وشجاعة ، ولفت إليها أنظار الرجال القائمين عليها ، وذكر من جنايات المدرسة ـ ويقصد بها نظام التعليم الحديث ـ على هذا الجيل شيئاً كثيراً تفيض به دواوين شعره ، يقول في بيت : « لقد خرجت من المدرسة و« الزاوية » حزيناً ، لم أجد فيهما الحياة ، ولا الحب ، ولا الحكمة ، ولا البصيرة » ويقول في بيت آخر : « أمّا رجال المدرسة ففاقدو البصر ، وميتو الذوق ، وأما شيوخ الزاوية فقاصرو الهمة ، ضعيفو الطلب ، قليلو البضاعة » .

جنايات المدرسة :

ومن رأي محمد إقبال : أنَّ التعليم الحديث قد جنى على هذا الجيل جنايةً عظيمةً ؛ إذ اعتنت بتربية عقله ، وتثقيف لسانه ، ولم تعتن شيئاً بتغذية قلبه ، وإشعال عاطفته ، وتقويم أخلاقه ، وتهذيب نفسه ، فنشأ جيلٌ غير متوازن القوى ، غير متناسب النشأة ، قد تضخَّم ، وكبر بعض نواحي إنسانيته وحياته على حساب بعض ، وأصبحت المسافة بين ظاهره وباطنه ، وعقله وقلبه ، وعلمه وعقيدته ، مسافةً شاسعةً ، بل أصبح التفاوت بين عقله وجسمه كبيراً ، فالأول ضخمٌ كبيرٌ ، والثاني ضعيفٌ ناعمٌ ، وهو إذا وصف هذا الجيل ، الذي

---

(١) من محاضرة ألقيت في كلية دار العلوم بالقاهرة في ٢٠ جمادى الثانية ١٣٧٠هـ .

عاش فيه ، وعرفه عن كثبٍ واتصال ، صوَّره تصويراً صادقاً ، ينطبق تمام الانطباق على أبناء المدارس ، والشباب الجديد ، يقول :

« إنَّ الشباب المثقف فارغ الأكواب ، ظمآن الشفتين ، مصقول الوجه ، مظلم الروح ، مستنير العقل ، كليل البصر ، ضعيف اليقين ، كثير اليأس ، لم يشاهد في هذا العالم شيئاً ، هؤلاء الشبان أشباه الرجال ولا رجال ، ينكرون نفوسهم ، ويؤمنون بغيرهم ، يبني الأجانب من ترابهم الإسلامي كنائس وأدياراً ، شباب ناعم ، رخو رقيق في الشباب كالحرير ، يموت الأمل في مهده في صدورهم ، ولا يستطيعون أن يفكروا في الحرية ، إنَّ المدرسة قد نزعت منهم العاطفة الدينية ، وأصبحوا خبر كان ، أجهل الناس لنفوسهم ، وأبعدهم من شخصياتهم ، شغفتهم الحضارة الغربية ، فيمدون أكفهم إلى الأجانب ؛ ليتصدقوا عليهم بخبز شعير ، ويبيعون أرواحهم في ذلك ، إنَّ المعلم لا يعرف قيمتهم ، فلم يخبرهم بشرفهم ، ولم يعرِّفهم بشخصيَّتهم ، مؤمنون ، ولكن لا يعرفون سرَّ الموت ، ولا يؤمنون بأنه لا غالب إلا الله ، يشترون من الإفرنج اللات ومناة ، مسلمون ، لكن عقولهم تطوف حول الأصنام ، إنَّ الإفرنج قد قتلوه من غير حربٍ وضرب ، عقولٌ وقحةٌ ، وقلوبٌ قاسيةٌ ، وعيونٌ لا تعفُّ عن المحارم ، وقلوبٌ لا تذوب بالقوارع ، كلُّ ما عندهم من علمٍ وفنٍّ ، ودينٍ وسياسةٍ ، وعقلٍ وقلبٍ يطوف حول الماديات ، قلوبهم لا تتلقى الخواطر المتجددة ، وأفكارهم لا تساوي شيئاً ، حياتهم جامدةٌ ، واقفةٌ ، متعطلةٌ » .

ويذكر محمد إقبال : أنَّ السبب في جبن هذا الجيل وضعفه الخلقي ، هو الوضع التعليمي الحاضر ، وإهماله للجانب الخلقي ، ونشأة الشباب المتحلِّلة ، يقول في قصيدة : « لا أستغرب أيها الشباب المتعلم ! أنك حييّ جبان ، فإنَّ قلبك باردٌ ، لا لوعة فيه ، ولا حرارة ، ونظرك غير عفيف ، إنَّ الشباب المثقف الذي استنارت عينه بنور الإفرنج قد يكون لبقاً في الحديث ، متشدقاً في الكلام ، ولكن عينيه لا تعرف الدموع ، وقلبه لا يعرف الخشوع » . ويرى محمد إقبال : أنَّ المدرسة هي المسؤولة عن هذا المسخ الخلقي ، وهي التي نزلت بالشباب المسلم عن مقامه الرفيع إلى المحل

الوضيع ، يقول في بيت : « أشكو إليك يا رب ! من ولاة التعليم الحديث ، إنَّهم يربُّون فراخ الصقور تربية بغاث الطيور ، وأشبال الأسود تربية الخروف » ، ومن أسباب هذا الضعف النفسي هو العقل المثبّط الذي يمنع من المغامرات والمخاطرة بالنفس ، ويحذِّر من سوء العاقبة ، ويكبر الأخطار ، يقول في بيت : « إنَّ التعليم قد باعدك من الجنون الذي كان ينازع العقل ، ويقول له : لا تعلل ولا تثبطني عن المغامرة ، إنَّ الأسرار التي حجبتها عنك المدرسة لا تزال مكشوفة في خلوات الجبال والصحارى » ، ومن أكبر أسباب هذا الضعف : الذلُّ والتقدير الزائد للمادة ، والنظر إلى الوظيفة والمرتب كغايةٍ للتعلم ، يقول في بيت : « إنَّ ذلك العلم سمٌّ ناقعٌ للأفراد الذين ليست لهم غاية إلّا حفنتان من شعير » (يعني الراتب الذي يتقاضاه الموظف) .

مآخذ على التعليم :

ومن أكبر مآخذه على هذا التعليم : أنه يبعث على التعطُّل وحبِّ الهدوء والراحة ، ويجعل المتعلم كالمحيط الهادىء لا حركة فيه ولا اضطراب ، يقول في بيت : « رماك الله أيها المتعلم بطوفان ، فإن بحرك هادىء لا اضطراب في موجه » ، وكذلك يبعث هذا التعليم في الشباب المسلم « إفرنجية » وحبَّ الزينة ، يقول في قصيدة : « إن مقاعدك أيّها الشباب المسلم ! إفرنجية ، وزرابيك إيرانية ، وإني أكاد أبكي دماً إذا رأيتك في الترف والبذخ ، لا خير فيك ، ولو أصبحت تملك الدنيا ما دمت متجرداً من قوة عليٍّ ، واستغناء سلمان » .

ومن مآخذه على هذا التعليم : أنَّه يحدث الفوضى الفكرية ، يقول في بيت : « إنَّ المدرسة تحرِّر العقل بلا شكٍّ ، ولكنَّها تترك الأفكار بغير نظامٍ وارتباط » .

ومن مآخذه على نظام التعليم العصري ، والمدرسة التي تمثله ، وتؤدي رسالته : أنَّها مصابةٌ بالتقليد والجمود ، ومجردةٌ من الابتكار والاجتهاد ، يقول في قصيدة : « إنَّ العالم أسير التقاليد والأوضاع ، وإنَّ المدرسة منحصرةٌ

في نطاقٍ ضيق ، يا للأسف ! إنَّ الرجال الذين كانوا يستطيعون أن يكونوا أئمةَ زمانهم أصبحت عقولهم باليةً ، وفقدت كلَّ نشاطٍ وجدَّةٍ ، فاقتنعوا بتقليد عصرهم » .

إنَّ الدكتور محمد إقبال لا يرى أنَّ هذا الجيل حيٌّ قائمٌ بنفسه ، ويفكِّر بعقله ، إنه يعتقد أنَّه ظلٌّ لأوروبة ، وإنَّ حياته عاريةٌ من الغرب ، يقول في بيت : « يتراءى لك أنَّ الشباب المتعلم حيٌّ يرزق ، ولكنَّه في الحقيقة ميت ، استعار حياته من الغرب » ، ويخاطب المتفرنج ، ويقول : « ليس وجودك إلا تجلِّي الإفرنج ، لأنك بناءٌ قد بنوه ، هذا الجسم العصري فارغٌ من معرفة النفس ، فأنت غمدٌ محلى بغير سيف ، وجود الله غير ثابتٍ في نظرك ، ووجودك أنت غير ثابت في نظري » .

ومن رأيه أنَّ نظام التعليم الغربي قد أضعف الروح المعنوية في الشباب المسلم ، وجنى على رجولته جنايةً عظيمةً ، فأصبح شباباً رخواً رقيقاً مائعاً أغيد ، لا يستطيع الجهاد ، ولا يتحمَّل المكروه ، يقول في قصيدة يخاطب فيها بعض المربين : « حيا الله شبيبتك ، يا مربي الجيل الجديد ! ألق عليهم درس التواضع ، وهضم النفس مع الاعتزاز بالنفس ، والاعتداد بالشخصية ، علِّمهم كيف يشقُّون الصخور ، ويدكُّون الجبال ، فإنَّ الغرب لم يعلمهم إلّا صنع الزجاج ، إنَّ عبودية قرنين متواليين قد كسرت خاطرهم ، وأوهنت قلوبهم ، فانظر كيف تعيد الثقة إلى نفوسهم ، وتحارب الفوضى الفكرية » ، وكان لا يغتفر هذه الجريمة ، يقول في موضعٍ آخر : « أنا لا أقيم لذلك العلم وتلك الحكمة وزناً ، الحكمة التي تجرِّد المجاهد من سلاحه ، وتجعله أعزل ضعيفاً » .

* * *

طرق الاستفادة من التعليم
وضرورة إزالة العقبات عن سبيله(١)

إنَّها روح التسامح والمساواة ؛ التي تعرَّف بها العالم عند ظهور الإسلام في هذا البلد ، وإنَّها الروح العلمية المجرَّدة عن كلِّ عصبيةٍ وهوى ؛ التي اتسمت بها النهضة العلمية المباركة ، التي قادها العرب المسلمون في فجر التاريخ الإسلامي ، فكانت انتفاضةً علميةً عقليةً جديدةً بعثت روح العلم والبحث في كلِّ مكان ، وأزالت عن العلم احتكار المحتكرين ، وجعلته حقاً مشاعاً ، وثروةً مشتركةً للعالمين .

كما يعلم الإخوان الذين قرؤوا كتاباتي في موضوع التربية الإسلامية في الأقطار الإسلامية عامَّةً ، وفي الجزيرة العربية خاصَّةً ، أنَّني من المؤمنين بأنَّ نظام التربية لباسٌ يجب أن يفصَّل على قامة البلد ، أو الأمة التي يراد تربية أبنائها وشبابها ، وعلى ملامحها الخاصَّة ، وعقائدها العزيزة ، وآدابها المفضَّلة ، وأهدافها التي تعيش لها ، وتموت في سبيلها ، إنَّه لباسٌ يجب أن ينسجم مع أجوائها ، وبيئتها التي تعيش فيها ، والآداب والعادات التي تحتضنها ، والتاريخ الذي يغار عليه ، والقيمِ والمثلِ العليا التي تعشقها وتتغنَّى بها ، وأنَّ سياسة التعليم ، أو المناهج التربوية ليست بضاعةً تستورد من بلدٍ إلى بلدٍ ، من أمَّةٍ إلى أمَّةٍ ، أو شجرةٍ تُقتلع من أرضٍ ، وتُغرس في أرضٍ

---

(١) بحث أعدّ للمؤتمر التعليمي العالمي الأول المنعقد في مكة المكرمة بين ٢١ مارس و ٨ أبريل ٧٧م وتُلي في جلسة ٧/ ٤/ ١٩٧٧م .
ثمّ نشر في مجلة « البعث الإسلامي » في عدديها التاسع والعاشر ، المجلد الواحد والعشرون ، عام ١٩٧٧م .

أخرى ، وإنَّه عملٌ ليس غير طبيعي فحسب ، بل هو أشبه بقتل شخصية الأمَّة ، وإبادةٍ معنويةٍ لها ، وقد استشهدت في بعض كتاباتي بكلمة الأستاذ الأمريكي الدكتور Dr. J. B. Conant في كتابه « التربية والحرية » «Education and Liberty» :

« إنَّ عملية التربية ليست تعاطياً ، ولا عملية بيع وشراء ، وليست بضاعةً تُصدَّر إلى الخارج ، أو تُستورد إلى الداخل ، إنَّنا في فتراتٍ من التاريخ خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الإنجليزية ، أو الأوربية إلى بلادنا الأمريكية » .

ونقلت كذلك قول أحد أئمة التربية في العهد الحاضر Sir Percy Neinn الذي يقول فيه : « إنَّ أفضل تفسير لنظام التربية هي أنَّها السعي الحثيث المتواصل يقوم به الآباء والمربُّون لإنشاء أبنائهم على الإيمان بالعقيدة التي يؤمنون بها ، والنظرةِ التي ينظرون بها إلى الحياة والكون ، وتربيتهم تربيةً تمكِّنهم من أن يكونوا وَرَثَةً صالحين للتراث الذي ورِثَه هؤلاء الآباء عن أجدادهم ، مع الصَّلاحية الكافية للتقدُّم ، والتوسع في هذه الثروة »(١) .

وإنني كذلك اؤمن بأنَّ الشعب العربيَّ المسلم الذي يسكن في هذه البلاد المقدَّسة ، والذي أراد الله به أن يكون مَصدَر إيمانٍ وثقةٍ بصلاحية الإسلام وخلودِه للشعوب الإسلامية جميعاً ، ومركز شَحنٍ للكَشّاف الإسلامي بشحنةٍ جديدةٍ كلَّما احتاج إليه ، له أشرف قامةٍ وأكبر قيمةٍ ، وأنَّه يجب أن يكون ـ إذا قيست القامات بالطول والقصر ـ عملاقاً يسمُو على كلِّ طويلٍ فارع القامة ، وأن يكون عَنقاء أكبر من أن تُصادَ أو تساومَ ، لا تطمع في شرائه المعسكرات السياسية ، والفلسفات الأجنبية ، إذا كانت هنالك قضية القيم والأثمان ، وإذا كانت الشعوب والمجموعات البشرية تُقوَّم وتُساوَم .

إنني مع هذا الإيمان العميق ، والدَّعوة الصارخة إليه ، إذا استعرضتُ سياسة التعليم في المملكة العربية السعودية مطبوعةً منشورةً في نشرات وزارة

---

(١) مقالة التربية في دائرة المعارف البريطانية Education .

المعارف ، ومعلنةً بها لا أجد فيها مأخذاً أحاسبها عليه ، كمسلم له حقُّ المحاسبة والسؤال عن هذه البلاد ، إنها سياسة إسلاميَّة فنيَّة رشيدةٌ ، وضعها واضعوها بمقدرةٍ ولباقةٍ ، وفي وضوحٍ وصراحةٍ .

إنَّها جعلت « منطلق التربية والتعليم مبنياً على أساسٍ سليمٍ موضوعٍ من خالق الكون العالم بقدرات عباده وأحوالهم ، بعيداً عن الأسس والمبادىء التي توَصَّلَ إليها الإنسان بالتجربة ، لأنها عُرضة لتأثير الظروف والبيئات » .

إنَّها في الحقيقة نظرةٌ تختلف عن نظرات قادة التعليم والتربية في الغرب ، وفي البلاد الشيوعية والعلمانية ؛ اختلافاً جوهرياً ومبدئياً ، وتُحوِّل تيارَ التعليم كلَّه من المادية إلى الإيمان ، والمعرفة الصحيحة .

ثم إنها تعلن في صراحةٍ واعتزازٍ : أن « المملكة العربية السعودية التي تؤمن بأهمية التعليم ودوره في بناء المجتمعات المتطورة ، لم يكن لها في يومٍ من الأيام منطلقٌ في التربية والتعليم غير دينها الإسلامي الحنيف ، بنت عليه مناهجها ، وكُتب التعليم فيها ، وبنت سياستها التعليمية على أسس ومبادىء نابعةٍ من الإسلام ؛ الذي تدينُ به عقيدةً ، وعبادةً ، وخُلُقاً ، وشريعةً ، وحكماً ، ونظاماً متكاملاً في الحياة ، وهي جزءٌ أساسيٌّ من السياسة العامَّة للدولة » .

وأيُّ ميثاقٍ أوضح من هذا الميثاق التعليمي ؟!

ثم بيّنت هذه النشرةُ المؤمنة الأسسَ العامةَ التي يقوم عليها التعليم في المملكة ، وكلُّها أسسٌ إسلامية سليمةٌ ، لا تقبل نقاشاً ، ولا تُثير شكّاً ، منها : « أنَّ الرسالة المحمدية هي المنهج الأقوم للحياة الفاضلة ، التي تحقق السَّعادة لبني الإنسان ، وتنقذ البشرية مما تردَّت فيه من شقاءٍ وفسادٍ » ، ومنها : « المثل العليا التي جاء بها الإسلام لقيام حضارةٍ إنسانيَّةٍ رشيدةٍ بنّاءةٍ تهتدي برسالة محمد ﷺ لتحقيق العزَّة في الدنيا والسعادة في الآخرة » .

ومن هذه الأسس التي يقوم عليها التعليم في المملكة :

« توجيه العلوم والمعارف بمختلف أنواعها وموادِّها وجهةً إسلاميَّةً في

معالجة القضايا والحكم على النظريات ، وطرق استثمارها ، حتى تكون متناسقةً مع التفكير الإسلاميِّ السديد » .

« والثقة الكاملة بمقوِّمات الأمة الإسلامية ، وأنَّها خير أمةٍ أخرجت للناس ، والإيمان بوحدتها على اختلاف أجناسها وألوانها ، وتباين ديارها » .

ولم يَفُت هذا الميثاق التعليمي العظيم أن يضغط على الارتباط الوثيق بتاريخ الأمة الإسلاميَّة ، وحضارة دينها الإسلامي ، والإفادة من سِيَر أسلاف الأمة ، ليكون ذلك نِبراساً للشباب المتعلمين في حاضرهم ومستقبلهم ، وقد نصَّ هذا الميثاق أخيراً على أنَّ « شخصية المملكة العربية السعودية متميزةٌ بها بما خصَّها الله به من حِراسة مقدَّسات الإسلام ، وحفاظها على مهبط الوحي ، واتخاذها الإسلام عقيدةً ، وعبادةً ، وشريعةً ، ودستورَ حياةٍ » .

وهل يستطيع مسلمٌ غيورٌ على دينه ورسالته ، عارفٌ بقيمته وقامته ، شاعرٌ بها بمسؤوليته وواجباته أن يقول أكثر من هذا ، أو أن يضع سياسةً للتعليم في بلدٍ إسلاميٍّ أحسن من هذه السياسة ؟! .

ثم إنَّه ذكر من أهداف التعليم في المملكة « تنمية روح الولاء لشريعة الإسلام ، وذلك بالبراءة من كلِّ نظامٍ ، أو مبدأ يخالف هذه الشريعة ، واستقامة الأعمال ، والتصرفات وفق أحكامها العامَّة الشاملة ، ثم تزويد الفرد بالأفكار والمشاعر ، والقدرات اللازمة لحمل رسالة الإسلام ، وتحقيق الخلق القرآني في المسلم ، والتأكيد على الضوابط الخلقية لاستعمال المعرفة ، وتبصير الطلاب بما لوطنهم من أمجادٍ إسلاميةٍ ، وحضارةٍ عالمية إنسانيةٍ عريقة ، ومزايا جغرافيةٍ وطبيعيةٍ واقتصاديةٍ ، وبما لمكانته من أهمية بين أمم الدنيا » ، ويتقدَّم هذا الميثاق خطوةً أخرى جريئةً ، فيوصي بالتأكيد على « الناحية الروحية الإسلامية بحيث تكون هي الموجِّه الأول للسلوك الخاص والعام للفرد والمجتمع »[1] .

---

(١) العبارات التي بين الهلالين مقتبسة نصاً وحرفاً من « سياسة التعليم في المملكة العربية السعودية » .

أما المناهج والمقررات الدراسية ، فالحديث عنها يطول ، ويتشعَّب ، وهي خاضعةٌ دائماً لسياسة التعليم والتربية في البلاد ، وفيها استعدادٌ دائمٌ للتطوير والترقية ، والتعديل ، ووزارة المعارف في المملكة ، واللجان المختصة بالمناهج والمقررات الدراسية واسعة الصدر دائماً لما يُقدَّم إليها من ملاحظاتٍ وآراء ، وقد كان لكاتب هذه السطور مساهمةٌ ضئيلةٌ في إبداء الرأي عن هذه المناهج وبعض التجارب التعليمية ، بطلبٍ من الوزير العالم معالي الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ وزير التعليم العالي للمملكة ، وقد نصَّ القانون على : أن « العلوم الدينية أساسيةٌ في جميع سنوات التعليم الابتدائي والمتوسط ، والثانوي ، والثقافةُ الإسلامية مادةٌ أساسية في جميع سنوات التعليم العالي » ، وقد ذكر أنَّ « الدَّعوة إلى الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها بالحكمة والموعظة الحسنة من واجبات الدولة والأفراد هدايةً للعالمين ، وإخراجاً لهم من الظلمات إلى النور » ، فلا أريد أن أشغل قسطاً كبيراً من وقت هذا المؤتمر المحدود في ذكر الجزئيات والتفاصيل عن هذه المناهج التي لا يأتي عليها الحصر .

وأريد أن أركز البحث على ما له صفةٌ وثيقةٌ بواقع الحياة والمجتمع المعاصر في هذه البلاد ، ومدى تأثير الجهود التربوية التعليمية الجبارة ، التي تقوم بها هذه المملكة العزيزة الغنية ، وتنفق عليها بسخاءٍ وهمَّةٍ ، لا يوجد لها نظير في الأقطار الإسلامية في ميول هذا المجتمع واتجاهاته ، وأخلاقه ، وتصرفاته ، ودرئه من الأخطار ، التي هي شديدة الخطورة في كلِّ بلدٍ ، وهي أشدُّ خطورةً وخطراً في هذا البلد الذي هو مأرزِ الإسلام ، ومعقل الإيمان ، ومدى تمثيل الشاب المثقف للقيم والمثل الإسلامية العليا ، ووفائه لرسالة الإسلام وأهدافها حين عمّ النكران ، وما مدى تمسك هذا الشاب بالضوابط الخلقية » ، والتعاليم الإسلامية السامية في معترك الإيمان والكفر ، والفضيلة والرذيلة ، والمنفعة العاجلة والمنفعة الآجلة ، والمصلحة الفردية والمصلحة الاجتماعية ؟!

إنَّ كثيراً من رجال التعليم والتربية في الشرق والغرب اعتادوا قديماً

وحديثاً أن يبحثوا في قضية التعليم والتربية ، كقضيةٍ منفصلةٍ عن الحياة والمجتمع ، ليست بينهما صلةٌ إلّا الصلة المؤقتة العارضة ، كأنَّ التعليم قنطرةٌ يعبر بها الإنسان نهراً من الأنهار ، ويصل من برٍّ إلى بَرٍّ ، ثم يعود إلى موطنه الأول بنفس السيرة ، والنفسية ، والخلق ، والفكرة ، والتعليمُ عندهم حاجة من حاجات البشر يقضيها الإنسان ، ثم يعود من السوق ومن المزرعة ، بل من ميدان الحرب ، فلا يحكمون على نجاح التعليم وإخفاقه إلّا بالمعلومات التي تلقّنها الرجل المثقف ووعاها ، وبالأرقام التي حصّلها في الاختبارات ، والشهادة التي يحملها ، واللباقة التي يتكلم بها ، والأناقة التي يعيش بها ، ولا يقيسون نجاح عملية التعليم والتربية بمقاييس عمليةٍ واقعيةٍ اجتماعيةٍ ، وقد صار كثيرٌ من هواة التعليم يقيسون رقيَّ بلد ، ويحكمون على نهضته ومستواه الحضاري بعدد الجامعات الموجودة في هذا البلد ، وإن كانت غير مؤثرةٍ في حياة البلاد مطلقاً ، تعيش فيها كقنصلياتٍ أجنبية ، وسفاراتٍ خارجية لا تؤثر في الشعب ، وقد تكون هذه الجامعات عاملاً قوياً من عوامل التقويض الاجتماعي ، والفوضى الخلقية والفكرية ، وقد تكون أوكار الفساد والانحلال والقلق والتذمّر ، والتعطل والبطالة ، ويكون المتعلمون فيها ، أو المتخرجون منها في طليعةِ دعاةِ الإفساد ، والاضطراب ، كما هو الشأن في كثيرٍ من البلاد الشرقية ، الآسيوية والإفريقية .

إنّها نظرة تقليدية غير واعيةٍ يجب أن تتطور وتتغيَّر ، ولنكن نحن المسلمين ـ وفي مقدمتهم قادةُ الفكر ، وعلماء التربية ـ روّاد الحقيقة ، مقررين للواقع ، قوّامين بالقسط ، شهداء لله ، غير مسترسلين إلى الخيال ، والمعاني الشعرية ، والنظريات التقليدية ، فلنستعرض واقعنا ، ولنقارن ، كتاجر جادٍّ مخلصٍ ، بينَ ربحنا وخسارتنا ، وبين المسافة التي قطعناها والمسافة التي يجب علينا أن نقطعها ، وبين المنجزات والمعطيَات ، وبين المشاريع والمخططات ، وإنَّ هذا البلد الكريم ، وهذا المؤتمر العظيم هو خير مكانٍ لهذا الاستعراض المنصف ، والمقارنة الدقيقة الأمينة ، وأعتبر ذلك قيمةَ اجتماعنا من أمكنةٍ بعيدة ، والجهود التي تستحق كلَّ تقديرٍ واحترامٍ لإعداد

الجوِّ المناسب الهادىء للبحوث القيِّمة في موضوع التعليم والتربية في الأقطار الإسلاميَّة عامَّةً ، وفي هذه المملكة العزيزة خاصَّة .

وقبل أن نستعرض واقعنا كمعلِّمين ، وكممثلين للتعليم في مختلف مراحله ومجالاته ، يجب علينا أن نستحضر ما تتمتَّع به هذه البلاد من سماتٍ ومزايا ، وشخصيةٍ متميزةٍ ، يجب علينا أن نأخذها بعين الاعتبار قبل أن نبحث في نتائج الجهود التعليمية ومعطياتها في هذه البلاد المقدَّسة ، إنَّها سماتٌ ومزايا ، تُيسِّر مهمة التعليم الإسلامي الهادف في هذه البلاد ، وتساعد على تحقيق أهدافها السامية ، ومُثُلها العليا .

إنَّ هذه البلاد هي المختبر الأول للتعاليم الإسلامية ، والدَّعوة الإسلامية ، وعلى هذه الأرض الطيبة تمثَّلت أروعُ رواية من روايات الصدق والإخلاص ، والوفاء والفداء ، والفُتوَّة والبطولة ، التي شهدها التاريخ ، فهي صفحةٌ منشورةٌ ، كُتِبَ كلُّ سطرٍ من سطورها من نورٍ ، ويُلقى على كلِّ من يعيش فيها ويزورها دروساً في العقيدة والخُلق والسيرة ، ويجسِّم التاريخ الإسلامي بحيث يفهمه كلُّ إنسانٍ ، ويراه رأيَ العين . إنَّ الجامعات الغربية الشهيرة ، والمراكز الثقافية الكبيرة تلجأ لغرس المعاني والحقائق التي تُعلِّمها ، ولتقريب البعيد ، وإيضاح الغامض ، وإعادة المناظر التاريخية والحضارات القديمة وتجسيمها ، إلى مسرحياتٍ وتمثيليات ، وإلى رحلاتٍ ، وجولاتٍ في الآثار القديمة ، والمدن العتيقة ، وإلى مخيَّماتٍ ومهرجاناتٍ ، يقضي فيها الطالب وقتاً محدوداً في جَوٍّ تاريخي ، أو حضاريٍّ خاص ، تحلِّق عليه روحٌ تختلف عن الروح العصرية ، ويستنشقون نسائم العهد القديم ، وكلُّها محاولاتٌ صناعيةٌ ، بعيدةٌ عن الحقيقة .

أما الطالب الذي يعيش في هذه الجزيرة ، فإنَّه يستحضر هذه المعاني كلَّها ، ويعيش فيها ، فكلُّ ذرَّةٍ من ذرات هذه الصحراء ، وكلُّ جبلٍ من جبال هذه الجزيرة ، يذكِّره بحادثٍ من حوادث التاريخ الإسلامي الأول ، ويذكِّر بما قامت له هذه الجزيرة ، وعاشت ، وبما أريق في سبيله من الدماء الزكيَّة ، وبما كانت عليه في الجاهلية من جهلٍ وفقرٍ وخمولٍ ، وبما عادت إليه بعد

الإسلام من علمٍ ، وغِنىً ، وعِزٍّ ، وبمن يرجع إليه الفضل في ذلك ، وما هو مصدر هذا الانقلاب والتحوُّل الذي ليس له نظير في تاريخ الإنسان .

ثم إنَّ هذه البلاد جعلها الله مركزاً للحجِّ ، وله رُوحانيتهُ ، وتأثيرهُ في النفوس والقلوب ، ويجتمع فيه أكبر عددٍ يجتمع في أيِّ مكانٍ في العالم ، من أهل القلوب المؤمنة ، والنفوس الصافية ، والأرواح الملتهبة ؛ الذين ساقهم الإيمان والحَنان ، وحُبُّ مركزِ الإسلامِ ومهبط الوحي ، يتهافتون عليه كالفَراش على النور ، والظِّماء على الماء ، يتمنون أن يمشوا إليه على أهدابهم ، ويستهينون في سبيل ذلك بكلِّ غالٍ ، ويستعذبون المشاق ، فيتكهرب هذا الجوُّ بالإيمان والحنان ، ويسري تياره إلى النفوس الخامدة ، والجدران والأخشاب الجامدة ، فهل هنالك مدرسةٌ أقوى من هذه المدرسة الإيمانية ، وأقدر على أداء رسالة العلم والأخلاق ، وشحن النفوس بقوَّةٍ جديدةٍ تتغلب على التيارات المادِّية ، والاتجاهات العصرية ؟! .

ثم إنَّ اللغة التي تسود في هذه البلاد هي اللغة العربية التي نزل فيها القرآن ، ونطق بها الرسول ، والقرآن يُتلى في كلِّ مكانٍ ، والأذان يعلو ، ويدوِّي في كلِّ ناحيةٍ ، ولا يوجد في هذه الجزيرة ـ والحمد لله ـ دينان ، إنَّما يحكمها ويعيش فيها دينٌ واحد ، هو الدين الإسلاميُّ الحنيف ، ثم أكرم الله هذه الجزيرة أخيراً بأن وفّق حكومتها ـ المملكة العربية السعودية حرسها الله ـ لرفع شعار الإسلام ، وتحكيم الشريعة ، وتنفيذ الحدود ، والقوانين الشرعية ، وقد قامت على أساس الدعوة ، وعلى التوحيد والسنة ، واتباعِ السَّلف الصَّالح ، فكان كل ذلك عوناً على تهيئة الجوِّ الملائم لنُشُوء الفرد المسلم ، الصالح الواعي ، وتيسير مهمّةِ التعليم والتربية في هذه البلاد ، وتذليل العقبات التي تعترض في سبيلها ، وإزالة جميع العوائق التي تواجهها البلاد غير الإسلاميَّة ، أو البلاد التي امتُحن فيها الإسلام والمسلمون بقياداتٍ محارِبَةٍ للإسلام ، أو منافقةٍ مضطربةٍ ، أو ضعيفةِ الثقةِ بصلاحية الإسلام في هذا العصر .

هنا نقف وقفةً قصيرة ، ونقول : كان من المعقول المنتظَر ، بل من

المفروض المؤكَّد ، أن يكون الشاب المثقف في هذه البلاد شاباً مثالياً ، في استقامة الخلق ، وحسن السلوك ، والتماسك أمام المُغريَاتِ ، والتمرُّد على الشهوات ، وفي قوَّة النفس والإرادة ، والصبرِ على المكاره والمشاق ، والدأب على العمل ، والتسامي على مواضع الضعف ، والتضحية في سبيل راحة الوافدين إلى بيت الله ، لا يكون أقل من اجتهاد قريش في رِفادة الحُجاج ، وحسن وفادَتهم قبل الإسلام ، وأن يكون الرجل المثقّف بقدرِ ثقافته أكثر تَحلِّياً بهذه الأخلاق من مُواطنٍ لم تقدَّر لَه هذه الثقافة ، وكلُّ منْ علا كعبه في العلم والثقافة كان خليقاً بأن يقوم على القمة من هذه الأخلاق ؛ لأنه نشأ في أحضان ثقافةٍ إسلاميَّةٍ هادفةٍ مُؤمنة ، خُطِّطَت تخطيطاً دقيقاً أميناً ، وأنفقت عليه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وجُنّد لها أفواجٌ من المُعلِّمين والمربين ، واختير لها خيار الأساتذة والموجّهين ، وقامت هذه المدارس تحت ظلال الكعبة ، وفي رِحاب المسجد النبوي ، وفي حِجر الإسلام ومهده .

إنَّ نتيجة الجهود التعليمية التي تَبذُلها المملكة ووزارة المعارف الموقرة ، نتيجةٌ ذات قيمةٍ لا يُنكرها عاقل مُنصف ، قد عَرف هذه البلاد في ماضيها وحاضرها ، وعَرف ما كانت عليه هذه البلاد من أمِّيةٍ فاشيةٍ ، وفقرٍ في المدارس ، ومراكز التعليم حتى التعليم البدائي ، وبعد البادية العربية عن المبادىء الأولى للعلم ، وللإسلام ، وللإنسانية ، وما سبّبه الجهل لتعاليم الإسلام ، والانطواء على النفس والبادية ، من عاداتٍ همجيةٍ ، واستهانةٍ بحياة الإنسان ، بل بحياة المسلم ، والجَراءة على سفك الدماء ، ونهب الأموال ، وقلة الوسائل للاتصال بالعالم الخارجي ، وغيبة مظاهر الثقافة الأولى ، فإذا قارنّا بين الماضي القريب والحاضر المستمر ، رأينا انقلاباً مدهشاً ، وقفزةً واسعةً أشبه بالخيال من الحقيقة ، ولم يَسَعْنا إلّا الاعتراف بضخامة عمل المملكة العربية السعودية أيّدها الله ، وإنجازاتها في مجال النهوض بالبلاد علمياً وثقافياً .

إنَّ النتيجة كانت أضخم وأعظمَ ، وأدعى للدهشة والاستغراب ، إذا

تعاونت العواملُ المؤثرةُ في تكوين السيرة ، وتثقيف العقل ، وسبك الخُلق أكبر تأثير ، وأزيل التناقض الذي يعانيه المسلمون في كلِّ بلدٍ ، فلم تكن فجوةٌ بين مراكز التعليم التي تنحصر في جدرانها ، وبين الحياة التي تَمُوج موجة البحر ، فلا يؤتي التعليم ووسائل التربية أكُلَها ، ولا تتحقق أغراضُها إلّا إذا كان هنالك انسجامٌ كاملٌ ، وتعاونٌ وثيقٌ بين هذه المؤثِّرات الخارجية والدَّاخلية ، وكانت تسير على خطٍّ واحدٍ إلى غايةٍ واحدةٍ .

وهنا أذكرُ بطريق الإشارة والإجمال العقباتِ الرئيسية التي تعترض سبيل استفادة البلاد والأمة ، بالمؤسسات التعليمية والتربوية المنتشرة في المملكة ، والتي إذا لم تحبط مساعي قادة التعليم وموجهي التربية ، وكبار الأساتذة والمعلمين ، فإنها تحصرها في نطاقٍ ضيّقٍ محدودٍ جداً ، ليس كفاء هذه الجهود العظيمة ، وهي كما يلي :

١ ـ إنَّ التعليم مهما كان راقياً ، ومهما اتسعت شبكته ودقّت ، وأحكم صُنعها لا يعطي ثمارَه الشهيَّة ، ولا يؤثِّر تأثيره المطلوب إذا كان المجتمع يجتاز بمرحلةٍ عنيفةٍ غير عادية من الحالة النفسية ، أو الخلقية ، وكان مصاباً « بالهستيريا » المادية ، تحكُمه المُثُل الزائفة ، والقِيَمُ السقيمة من تقديس المادة ، وتمجيد أصحاب رؤوس الأموال ، بصرف النظر عن قيمتهم الذاتية ، ومستواهم الخلقي ، هنالك تذوب هذه الطبقة من المثقفين الجامعيين ، وغير الجامعيين حتى المفكرين منهم ، والباحثين والمحققين في هذا الاندفاع القاهر ، كما تذوب قطعةٌ صغيرةٌ من اللحم إذا ألقيت في معدن الملح ، وتتحوَّل في وقتٍ قريبٍ إلى قطعة من الملح .

إذاً لا يجوز التغاضي عن الحالة الاجتماعية في البلد ، وما تجتاح المجتمع من موجاتٍ وتيَّارات ، ولا بدَّ من العناية بتقويم المجتمع ، ومكافحةِ الأوبئةِ والأمراض التي تفترسُه ، وتنخر هيكله ، وذلك عن طريق الدَّعوة الدينية ، والخلقية ، وعن طريق الأدب الصالح ، والصَّحافة الهادفة التي تتقي الله في أعراض الناس وأخلاقهم ، وعن طريق سنِّ القوانين والحسبة إذا كان لا بدَّ من ذلك .

٢ ـ لا بدَّ من قدوةٍ صالحةٍ ، ونماذج عمليةٍ في مختلف الطبقات ، في الاقتصاد وبساطة العيش والإيثارِ على النفس ، وعلوٍّ الهمّة في خدمة الأمة والبلاد ، والاحتساب عند الله ، والقدوةُ الحسنة كما يعلم الجميع أكبرُ مؤثر نفسيٍّ في كلِّ عصرٍ وجيلٍ ، وهي التي بعثت في الأجيال الماضية الروح والطموح ، فكان منها علماء ، ومؤلفون ، وباحثون ، ومحققون ، ومصلحون ، ومجددون من الطراز الأول ، احتسبوا عملهم في التعليم ، والتأليف ، والإصلاح ، والتجديد ، لا يريدون على ذلك جزاءً ولا شكوراً ، وكان منهم عماليق في الفكر ، ونوابغُ في الإنتاج ، قد حوَّلوا مجرى التاريخ أحياناً كثيرة[1] أما المتخرجون من مدارسنا وجامعاتنا اليوم ؛ فقد انساقوا مع التيَّار الجاري ، وسايروا عصرهم ، ومجتمعهم في بناء المستقبل ، وتكوين حياةٍ سعيدةٍ ، وأصيبوا بمرَضٍ نستطيع أن نسميه بـ كيريرازم « Careerism » .

٣ ـ إنَّ مدرسة الإعلام في كلِّ بلدٍ قد أصبحت أقوى من كلِّ مدرسة ، وأوسع من كلِّ مدرسةٍ ، والتي أصبحت في البلاد « المتمدنة الراقية » كالهواء والماء الذي لا يَستغني عنهما إنسان ، والتي أصبحت لها الكلمةُ الأخيرة في تقويم القيم ، وفي موازين الأشياء ، وفي تصريف الميول والرغبات ، والتي صار بعض الخبراء يقولون : إنها كالقلب ، إذا صلُح ؛ صلُح جسد المجتمع ، وإذا فسد ، فسدَ جسد المجتمع ، وكذلك الصحافة التي تقرِّب البعيد ، وتُبعد القريب ، وكان لها من السيطرة والنفوذ أنْ سماها الغرب بـ « صاحبة الجلالة » .

وقد كانت التوصيات لوزارة المعارف حكيمةً ودقيقةً ؛ إذ قالت في إحدى نشراتها : « وسائل الإعلام والنشر ، والتوعية والإرشاد ، ورعاية الشباب تخدم الفكرة الإسلامية وتخضع ـ في أهدافها ووسائلها ـ للسياسة التعليمية ، وتوجَّه عن طريق المجلس الأعلى للتعليم »[2] .

---

(١) ليراجع للتفصيل كتابنا « رجال الفكر والدَّعوة في الإسلام » (١ ـ ٢) .
(٢) تاريخ التعليم في مكة المكرمة ، ترجمة الأستاذ عبد الرحمن صالح عبد الله ـ ص٣٤٧ .

وتقول : « تُسهم وسائل الإعلام في التوعية العامة التي تمهِّد لتحقيق أغراض التعليم ، وإزالة العقبات ؛ التي تحول دون تنفيذها ، كما تُسهم في تنمية روح الإيجابية بين المجتمع والمدرسة في التعاون مع الجهات التعليمية ، للوصول إلى ما يحقّق أهداف التربية والتعليم على خير الوجوه »[١] .

إنَّ عدم وجود الانسجام التام في هذه المؤسسات العظيمة والوسائل القوية المؤثِّرة ؛ قد أحدث تناقضاً في مجتمعنا الإسلامي ، وبلبلةً فكريةً ، وحيرةً مُرديةً ، يعانيها الشباب المسلم ، وفي الحقيقة عَقَّدَ مهمةَ روّاد الإصلاح ، ورجالِ التربية ، ودعاةِ الفضيلة والاستقامة والاعتدال والصبر ، وعسَّرها ، وجعل كثيراً من المشتغلين بمهنة التعليم ، والمكافحين في سبيله يعتقدون في بعض الأحيان أنهم يضيِّعون جهودَهم ووقتهم .

وأنقل هنا ما قلته في جواب سؤال وُجّه إليَّ في ندوةٍ علميةٍ في بلدٍ عربيٍّ كبيرٍ عن سبب حيرة الشباب المسلم ، قلت :

« إنَّ الشباب المسلم يعالج صراعاً مريراً ، هائلاً عميقاً ، إنَّه يتلقى من مؤسسة الإعلام ، ومؤسسة الصحافة بالمعنى العام ، ومن التلفزيون ألواناً مختلفةً من التوجيه ، إنَّه يسمع إذاعاتٍ وأحاديث ، وبرامج قد تقضي على البقية الباقية من آثار التربية الإسلامية ، وتحدث فيه ثورةً فكريةً ، وقلقاً نفسياً ، والصحافة التي هي « صاحبة الجلالة » في نظر كثيرٍ من الناس تقدِّم إليه في أول النهار الغذاء الفاسد العفن ، والموادَّ المثيرة المهيِّجة للعواطف ، قبل أن يتلو شيئاً آخر ، فأول ما يقع عليه نظره صور مهيِّجة ، وعناوين مثيرة للغرائز ، ومقالاتٍ باعثةً للشكوك ، مُزَعزعةً للإيمان والثقة ، فيتلقى هذا في رغبةٍ ونهامةٍ ، وفي شوقٍ واستجابةٍ ، ثم تقع في يديه كتبٌ علميةٌ ، لها عناوين هائلةٌ ، وأسماء مرعبةٌ ، صادرة من أقلام أناس ، آمن هذا الشاب بفضلهم ، وعبقريتهم ، فيقرأ ما يشكّكه في الدين ، يشكّكه في التاريخ الإسلامي ،

(١) تاريخ التعليم في مكة المكرمة ، ص٣٤٧ .

يشكّكه في مصادر الشريعة الإسلامية ، وحتى في مصادر اللغة والأدب الأولى ، ويشككه في صلاحية هذه الأمة ، وفي خلود الرسالة التي قُلِّدتها ، يشكّكه في صلاحية اللغة العربية ، فيتلقى هذا المزيج العجيب ، وهذه الخميرة الطريفة ، من أفكار ، ومبادىء ، وإغراءات ، ومن نظريات علميةٍ ، ويقع من كل ذلك في حيرةٍ لا تعدلُها حيرةٌ ، فخليقٌ بكل هذا أن يُوقِعَ الإنسان ـ وإن كان ناضج الفكرة مختمر العقل ، حصيف الرأي ـ في حيرةٍ ، فكيف بالشباب الغضِّ الناعم ، وكيف بهذه البراعم الناعمة التي لم تتفتح بعدُ ، كيف يُرجى منه أن يقف أمام التيارات المتصارعة ؟!

إن مَثَل ذلك كمَثَلِ عَجَلةٍ أو مَركبة رُكِّب فيها فرسٌ في الأمام ، وفرسٌ في الوراء ، وكلاهما قويان ، فكما أنَّ هذه العجلة من المعقول جداً ، أن يكون رُكّابها في حيرةٍ من أمرهم ، هذا يجرُّها إلى الأمام ، وهذا يجرّها إلى الوراء ، فكذلك الشباب يتأرجحون في أرجوحةٍ يميناً وشمالاً .

إنَّ الأدب الذي لم يزل يواجهنا منذ خمسين سنة على الأقل ، من العواصم العربية الكبرى ، التي كان لها التوجيه ، وكانت لها الزعامة الفكرية والدينية ، غَرَسَ في قلوب الناشئة ، وفي قلوب الشباب ، بل في قلوب كثيرٍ من الكهول بذوراً من الشكِّ والاضطراب ، تشكّكوا حتى في وجودهم ، تشكّكوا في كلِّ ما تواتر واستفاضَ ، وأصبح من قَبيل البديهيات أنَّ هذه الكتب التي أريد من ورائها رزقٌ ، أو شهرةٌ ، أو زعامةٌ فكريةٌ ، أو هتافٌ وتصفيقٌ حادٌّ ، غرست في قلوب شبابنا الشكَّ ، والحيرة والتناقض » .

وقد أصبحت زيادة قسطِ مواد التسلية ، والبرامج الشائقة المثيرة ، غير الهادفة في برامج الإذاعة والتلفزيون قضيةً شاغلة لتفكير رجال التربية ، والمعنيين بقضايا الشباب في الغرب وفي الشرق ، وقد دفعت هذه الزيادة الشباب من الجدّية والصبر ، والعكوف على الدراسات ، وإعداد الواجبات المدرسية إلى تسلية النفس ، والتهرُّب من كلِّ ما يتطلب العناء والمثابرة ، والعمق ، بل حمل ذلك كثيراً من رجال التربية ، وعلماء النفس على الاعتراف بأنَّ هذا الاتجاه قد أغرى كثيراً من الشباب بإجراء تجارب في المغامرة ،

والاعتداء على النفوس والأموال ، وأفلَتَ الزمام من قادة التربية ، وأولياء الأسرة في البيوتات ، وهبط مستوى ثقافة الطالب هبوطاً كبيراً ، لأنَّ هذه البرامج قد استحوذت على حيِّز كبيرٍ من وقته وجهده ، وهي قضية تستقطب عناية المعنيين بقضايا التعليم والتربية ، وتطلب منهم حلاًّ سريعاً ، وعلاجاً ناجحاً .

٤ ـ وأشد من هذا خطورةً هو ما اعتاده كثيرٌ من بلادنا الشرقية العربية ، والإسلامية ، ووزارات التربية فيها من إرسال بعثاتٍ من الشباب إلى أوربة ، وأمريكا ، ولم تنضَج عقولهم بعد ، وليست عندهم حصانةٌ خُلقيةٌ ، ويزيد الأمر خطورةً إذا كان فيها كثيرٌ من الشباب المراهقين ، وهي أدقُّ مرحلةٍ من مراحلِ حياة الطالب ، وأشدُّها حساسية ، أن نوجِّه هؤلاء الشباب إلى بلاد موبوءةٍ ، قد انتَشَر فيها الجذام الخلقي ، واضطربت فيها أسس الحياة الفاضلة والقيم والمثل اضطراباً كبيراً ، وأفلت الزمام من يد رجال التربية . إنَّها مجازفةٌ بشخصيات الجيل الصَّاعد في بلادنا الذي سيتسلَّم زمام القيادة والتوجيه ، وأملُنا في أنهم سيَجنون أفضلَ ثمار الثقافة الغربية ، والعلوم التجريبية النافعة ، ويتحرّزون من مساوئها ، وثمارِها المُرّة إغراقٌ في التفاؤل ، ومخالفةٌ لطبائع الأشياء ، ومنطق الواقع ، خصوصاً إذا كانت إقامتهم في أسرٍ أوربيةٍ ، أو أمريكيةٍ ، ولم يكن نظام للأروِقة الخاصَّة التي يسودها الجوُّ الإسلامي ، ويهيأ فيها الزاد العلميُّ والتوجيهيُّ ، فما مَثل هؤلاء الشباب في هذا الخِضم من الحضارة الغربية إلَّا كما قال الشاعر القديم :

ألقاه في البحر مكتوفاً وقال له إيَّـاكَ إيَّـاكَ أن تبتـلَّ بـالمـاء

٥ ـ وليس أقلّ من هذا كله خطورةً ودقةً قضيةُ تعليم الفتاة المسلمة ، فإنها قضية تحتاج إلى دقَّةٍ ، واستقلال فكريٍّ ، وتحررٍ من تقليد مفهوم التعليم النسوي الذي أخذت به الأقطار الغربية والشرقية في الظروف التي تختلف عن ظروفنا كلَّ الاختلاف ، وتحتاج إلى تخطيطٍ فيه الإبداع ، وفيه الأصالة ، وفيه الذكاء ، وفيه الجرأة . وتاريخ البلاد والأمم يشهد بأن أعظم أسباب الانحطاط والفوضى التي أدَّت إلى زوال الأمم وانقراضها ، وانحطاط المدنيات

وانهيارها ، هو تفكُّك نظام الأسرة ، واختلال الميزان في الحياة المنزلية ، وزهدُ النساء فيها ، والتهرُّب من مسؤولياتها ، وانتشار السفور الوقح ، والتبرُّجُ الجاهلي ، فما رأينا مجتمعاً مائلاً إلى التدنِّي والانحطاط ، وأمةً تسير بخُطىً سريعةٍ واسعةٍ إلى الزوال والانقراض إلَّا وقد فشا فيها هذا الداء ، وبدأت السيِّدات فيها ينصرفن عن الحياة المنزلية وتكاليفها ، ويَزهدن في « الأمومة » ومسؤولياتها ، وحضانة الأولاد ، وإنشاء الجيل الجديد ، والاعتناء بتكوين البيت الصالح الذي يجد فيه الرجلُ جميع أسباب الراحة والهدوء ، ويتخيَّل إذا دخله أنه في الجنة ، ينصرفن عن كل ذلك إلى مشاركة الرجال في وظائفهم ، ومجالات نشاطهم ، ومزاحمتهم بالمناكب ، ومسايرتهم ، بل ومنافستهم في جميع ميادين الحياة ، وهذا الذي مُني به المجتمع الغربيُّ ، فتفكَّكَ نظام الأسرةِ ، وفسدت الخلايا الاجتماعية ، التي كانت مركز القوة ، ومنشأ الجيل الجديد ، الذي ساد العالم في الماضي ، وقد بدأ علماء الاجتماع في الغرب يعترفون بهذا الخطأ في صراحةٍ وجرأةٍ ، ولكن الزمام قد أفلت منهم ، وبلغ السيل الزُّبى ، وفاضَت كأس الحياة ، وهم يتخوفون نهاية هذه الحضارة قريباً .

فتقليد هذا النظام في بلدٍ شرقي إسلاميٍّ ، فضلاً عن مركز الإسلام ومعقله ، وإعادة هذه التجربة الفاشلة ، مخاطرةٌ بسلامة هذه البلاد ، وشخصيتها ، ورسالتها ، فلنعتبر بهذه التجارب ، ولنكن على حذر من إعادتها في بلادنا التي يتوقف عليها مستقبل الإسلام ، والسعيد من وُعظ بغيره .

وأختم هذا البحث الذي قد طال بعض الطُّول ، والحديث ذو شجون ، بكلمتي الأخيرة ، وهي أنَّ سياسة التعليم في هذه البلاد التي عرضنا بعض نماذجها ، والتقطنا منها أهم توصياتها ، سياسةٌ إسلاميةٌ رشيدةٌ ، والمناهجُ التعليميةُ مناهج خاضعةٌ لهذه السياسة بشكل عامٍّ ، وهي مستعدةٌ لاشك لتطوير أفضل ، وترقية مثلى ، وإنَّ وسائل هذا التعليم التي تملكها المملكة العربية السعودية ، وتستخدمها بهمَّةٍ عاليةٍ ، وأريحيَّةٍ فائقة ، واستعداد الشعب للانتفاع بها ، عظيمٌ ممتازٌ ، ومُساعدة البيئةِ والأجواء ، التي تغذّي العاطفة الإسلامية ، وتذكّر برسالة متحققة متوفرة .

وكلٌّ ذلك كفيلٌ بإبراز النتائج الجسيمة العظيمة ، وتحقيق أهداف التعليم الإسلامي تحقيقاً لا يوجد له نظير في العالم الإسلامي ، كلُّ ذلك ممكنٌ بسهولةٍ إذا أزيلت الموانع ، والمتناقضات ، وحصل الانسجام التامُّ بين عوامل التأثير والتكوين ، ومدارس التربية والتعليم ، وسدَّت المنافذ التي يتسرب منها الفساد ، والضعف ، والتناقض ، داخليةً كانت أو خارجيةً ، وما هو بعملٍ شاقٍّ عسيرٍ على هذه المملكة العظيمة التي قامت على أساس العقيدة والدعوة ، وعُنيت بقضية الإسلام في كلِّ بلدٍ ، وتكفَّلت التعليم الإسلامي ، والدَّعوة الإسلامية في القارات البعيدة ، وحملت راية التضامن الإسلاميِّ ، ولا على وزارة المعارف الموقرة التي يقودها رجال العقيدة والدعوة ، وأهلُ الغيرة الإسلامية ، والفقه في الدين ، ولو تحقق كلُّ هذا ؛ كان حدثاً كبيراً في تاريخ الإسلام المعاصر ، وكان قُدوةً لكلِّ بلدٍ إسلاميٍّ ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم : ٤ ـ ٥] .

* * *

سياسة التربية والتعليم السليمة
في الأقطَار ذَاتِ الشخصِيّة وَالعقائد
وَالمبَادىء ذات الرسَالة والدور القيَادي[(١)]

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وخاتم النبيين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .

شعوران متناقضان :

أيها السادة !

إنني أشكركم من أعماق قلبي على هذه الفرصة الكريمة التي أتحتموها لي للتحدُّث في موضوع التربية والتعليم في هذه البلاد المقدسة ، وعلى هذه الثقة الغالية التي وضعتموها في شخصي الحقير ، وذلك إن دلَّ على رحابة صدوركم ، وسعة قلوبكم ، وشدَّة عنايتكم بالموضوع ، وإيمانكم بقيمة التعليم النبويِّ القائل : « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » فإنه يدل كذلك على وجهة نظركم إلى هذا البلد ، واعتباره الوطن الأول للمسلمين ، الذي يتحتم على كل مسلم الاهتمام بشؤونه ، وبذل أفضل ما عنده من علمٍ ، وتجربةٍ ، وتفكيرٍ ، واعتصار أحب ما عنده من عقلٍ ، وقلبٍ ، وضمير .

---

(١) بحث ألقاه العلاَّمة الندوي في جامعة الرياض ، وقد حضره معالي وزير المعارف السعودية ، وعدد كبير من أصحاب الاختصاص في التربية والتعليم ، وأساتذة الجامعات ، وذلك في ٢٢ شعبان ١٣٨٨هـ ـ ١٣ من نوفمبر ١٩٦٨م .

إنني في هذا الموقف الشريف الذي أقفه الآن أواجه صراعاً نفسياً ، فإنَّه يجاذبني عاملان متناقضان قويان ، أما العامل الأول : فهو عامل السرور والإعجاب ، والتقدير والاعتراف ، ذلك لأنني إذا نظرت إلى الشبكة الدقيقة الواسعة من الكليات والثانويات والمدارس الابتدائية التي مدَّت على هذه الجزيرة المترامية الأطراف ، والتي لم يفلت منها مدينةٌ كبيرةٌ ، ولا قريةٌ صغيرة ، وإذا نظرت إلى هذه الموازنة الضخمة الهائلة التي خصصت لنشر التعليم والثقافة في هذه المملكة ، والتي يحقُّ لكلِّ حكومة راقيةٍ عصريةٍ أن تفتخر بها ، وإذا نظرت إلى عدد الأساتذة والمعلمين الذين جلبوا ، ولا يزالون يجلبون من الخارج ، ويتمتَّعون من وزارة المعارف ومن المشرف عليها ـ الوزير العالم ـ بكل تقديرٍ واحترامٍ ، وما يتمتَّع به الطالب السعودي في كلِّ مرحلةٍ من مراحل التعليم من تسهيلاتٍ ، ومرافق ، وأنواعٍ من التشجيع ، وما يصحُّ أن يسمَّى عطف الآباء ورعاية الأمهات ، مما يندر وجوده في كثيرٍ من الأقطار الشرقية والغربية ، وإذا رأيت كفاح المملكة ـ عن طريق وزارة المعارف ـ في محاربة الأميَّة ، وإذا قارنت بين عناية حكومة الأتراك والأشراف بموضوع التعليم في هذه البلاد وبين عناية هذه الحكومة بهذا الموضوع ، وإذا قارنت بين نسبة المتعلمين في تلك الحكومات ونسبة المتعلمين في هذه الحكومة غمرتني موجةٌ من السرور والإعجاب . ولم يسعني إلَّا الاعتراف بعظمة هذا المشروع التعليمي العملاق الذي نهضت به المملكة العربية السعودية في هذا العصر ، ووقفت أمام هذا الصرح التعليمي الهائل مشدوهاً ذاهلاً ، لا أملك سوى الاعتراف بالأمر الواقع ، والثناء العاطر على ولاة الأمر ، ومن يرجع إليه الفضل في تحقيق هذه المأثرة الجليلة .

إنَّ المسافة الطويلة الشاسعة التي قطعتها المملكة العربية السعودية في مدَّةٍ قصيرةٍ في مجال التربية والتعليم ، وفي حقل العلم والثقافة ، ونشر الكتابة والقراءة في الجهال والأميين الذين كانت تزخر بهم المدن ـ فضلاً عن البوادي والقرى ـ قبل عقود من السنين ، وإنَّ أفواج المتخرجين في المدارس والمتعلمين في الجامعات الغربية والحائزين منهم على شهادات عالية ،

والمتخصصين منهم في موادّ دراسية متنوعةٍ ، والحاذقين منهم لعدَّة لغاتٍ أجنبية ، إنَّ كلَّ هذه الحقائق تثير العجب والإعجاب بمآثر هذه الحكومة ، وجهود وزارة المعارف . وهو العامل النفسي القوي الذي يملأ جوانح النفس ، ويوشك ألا يدع مجالًا للتفكير في موضوعٍ آخر ، ولا يسمح إلا بالتهنئة الحارَّة ، وبالشكر الخالص .

فرق بين بلدٍ وليدٍ لا رصيد له ، وبين بلدٍ له جذورٌ في الماضي ، وخيوطٌ تربطه بالحاضر والمستقبل :

إنني إذا وقفت في بلدٍ قد قفز إلى الوجود في طرفة عين ، ودخل في مصافِّ الأمم المتمدنة بين عشيةٍ وضحاها ، وانتقل من طور البداوة إلى طور الحضارة من غير (ذاتية) يعتزُّ بها ، ومن غير رسالةٍ ينوء بها ، ومن غير عقائد ومبادىء مخصوصة يؤمن بها ، ويرتبط بها ارتباط الجسم بالروح واللفظ بالمعنى ، ومن غير دعوةٍ يعرف بها ، وتعرف به ، ومن غير تاريخ وماض يستلهم منهما المعاني الشريفة ، ويستمدُّ منهما الثقة والقوة ، لو وقفت في مثل هذا البلد الوليد الجديد الذي لا يتَّصل بالحياة ، ولا بالأمم المعاصرة ، ولا بالقضايا الإنسانية إلّا عن طريق البطون والمعدات ، وعن طريق الحرف والصناعات ، وعن طريق اللغة واللهجات ، وعن طريق النقوش والكتابات ، وعن طريق الحكومة والسفارات ، لكان هذا هو العامل الوحيد الذي يتحكَّم في عقليتي ، ويسيطر على حديثي .

انتشار العلم المجرد ، والتخلص من الأميّة ليس مقياس النجاح في بلدٍ يدين بدين ، ويحمل رسالة وحضارة :

أما العامل الثاني ، فهو الحذر والإشفاق ، وقد ظلَّ الحبُّ الخالص مصدر الحذر والإشفاق دائماً ، ورافقته الغيرة في كلِّ زمانٍ ومكان ، وذلك : أنَّ هذه الجزيرة ذات شخصيةٍ فرضتها عليها الحكمة الإلهية قبل مئاتٍ من السنين ، واقترنت بها اقتران الطبيعة والمزاج بفردٍ أو جماعةٍ ، ورافقتها في رحلتها التاريخية الطويلة الشاقة المستقيمة الهادئة أحياناً ، والمنعطفة الملتوية أحياناً

من غير أن تفارقها ، أو أن تتخلّف عنها ، ولو فترة قصيرة من الزمان . وقد ساعدتها على ذلك جميع العوامل التاريخية ، والطبيعية ، والخلقية ، والاجتماعية ، وألحّت على أن تحتفظ بها ، وتستقيم عليها ، وهي ذات رسالةٍ اختارها الله لها ، واختار الجزيرة لها ، وارتبطت مصلحة كلٍّ واحدةٍ منهما بالأخرى ، وأصبحت محاولة تجريد كلٍّ واحدةٍ منهما عن الأخرى محاولةً أثيمةً إجراميةً ، فضلاً عن أنها محاولةٌ غير طبيعيةٍ ، ومخفقةٌ دائماً .

وقد منحت هاتان الحقيقتان التاريخيتان الطبيعيتان هذه الجزيرة مركزاً رئيسياً في كلِّ فترةٍ من فترات التاريخ ، ووضعتها في محلِّ القيادة ، والتوجيه ، والإشراف ، والحسبة ، ورفعتها عن مستوى التقليد ، والاتباع ، والتمثيل ، والمحاكاة ، والتلمذة ، والتطفل ، ومجرَّد التنفيذ ، والتطبيق ، والاقتباس ، والتلقين ، وفرضت عليها بطبيعة الحال الأصالة والاستقلال ، سواء في الأساليب المدنية ، أو المناهج التعليمية . فليست قضية هذه البلاد التعليمية من البساطة والسهولة بالمكان الذي يتصوره كثيرٌ من رجال التربية والتعليم ، ولا يقاس النجاح فيها ، والتغلب على مشكلاتها بانتشار مجرد القراءة والكتابة في الجمهور ، وكثرة وجود مدارس البنين والبنات ، وقيام عدد ضخمٍ من الثانويات والكليات ، ونشوء بعض الجامعات ، وكثرة عدد المتخرجين فيها ، والقاصدين إلى عواصم الأرض للتوسع في الدراسات العليا ، والعائدين منهم بنجاحٍ باهر ، والشاغلين منهم للمراكز الإدارية والتعليمية الرئيسية ، فذلك مقياسٌ يمكن أن يكون لبلدٍ مغمورٍ من بلاد إفريقية التي دخلت في حلبة المدنية العصرية حديثاً ، وقد أبى اليابان البوذي ، وأبت الهند البرهمية أن تتخذاه المقياس الحقيقي ، أو الهدف الأسمى من نشر العلم والثقافة ومحاربة الأمية والجهالة ، وألحتا على أن يكون هذا التعليم وهذه الثقافة مصطبغين بصبغتهما الحضارية الخاصّة ، وفلسفتهما العريقة في القدم ، خاضعين للأسس الفكرية ، والجذور العميقة التي تؤمنان وتعضّان عليها بالنواجذ .

رفض البلاد السوفيتية الأخذ بمبدأ التعليم والتربية كمبدأ عام ، واستيراد منهج من الخارج ، وغيرتها على عقيدتها وفلسفتها :

وإضافة إلى ذلك فالبلاد السوفيتية التي رفضت الأديان قاطبةً ، وقطعت شوطاً بعيداً في حرية الرأي ، وشاع عنها أنها تمنح كلَّ إنسانٍ حقَّ الأخذ بما يحبُّ ويختار ، وخلعت ربقة القيود والحدود ، وحاربت فكرة تقديس جميع أفراد البشر ، وفيهم الأنبياء ، والرسل ، والزعماء الروحيون ، وقادة الفكر ، وأصحاب المدارس الفكرية ، وأنكرت الاحتكار بكلِّ أنواعه ومظاهره ، إنَّ هذه البلاد لم تأخذ بمبدأ التعليم والتربية من حيث هو مبدأ إنساني عالمي ، وتراث بشريٌّ مشاع ، وماء صافٍ سائغ لا يتلوَّن بلون ، ولم تسمح باستيراد منهج من مناهج التعليم في خارج المعسكر الشيوعي ، ولا بإدخال العلوم والآداب التي نشأت في حضانة المربين البورجوازيين ، أو الأرستقراطيين ـ كما تقول اللغة السوفيتية ـ والتي طعمت بأفكارهم ، ونزعاتهم ، وطرق تفكيرهم ، ويخاف منها إضعاف العقيدة الشيوعية ، أو التشكيك فيها . إنَّ روسيا هذه التي حملت راية التحرر والثورة على كلِّ تقليدٍ ، وتقديسٍ ، وتحديدٍ ، وتقييدٍ ، قد أخضعت جميع العلوم والآداب النظرية منها والتطبيقية ، حتى علوم الطبيعة والجغرافيا والتاريخ لمبادئها الشيوعية ، ولنظريات قادتها ، ومؤسسي دعوتها « كارل ماركس » و « أنجلس » و « لينين » وربطت بين هذه العلوم وبين أسس أولئك القادة رباطاً وثيقاً مقدساً ، تغار عليه غيرة المؤمنين القدامى على عقائدهم وحرماتهم ، وغيرة العرب الأولين على عرضهم وأهلهم ، ويعلنون ذلك من غير أن يأخذهم في ذلك حياءٌ أو تردُّد .

ونكتفي هنا بشهادةٍ واحدةٍ لأحد أئمة التربية في البلاد السوفيتية ، يقول عالم طبيعي من كبار علماء البلاد السوفيتية M. C. Govern « إنَّ العلم الروسي ليس قسماً من أقسام العلم العالمي ، إنَّه قسمٌ منفصلٌ قائمٌ بذاته ، يختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف . فإنَّ سمة العلم السوفيتي الأساسية أنَّه قائم على فلسفةٍ واضحةٍ متميِّزةٍ ، إنَّ التحقيقات العلمية لا تزال في حاجة إلى أساس ،

وإنَّ أساس علومنا الطبيعية الفلسفة المادية التي قدَّمها (ماركس) و (أنجلس) و (لينين) و(ستالين) إنا نريد أن نخوض ـ وفي أيدينا هذه الفلسفة ـ في معترك العلم الطبيعي العالمي ، ونصارع جميع التصورات الأجنبية التي تناهض فلسفتنا المادية والماركسية بكلِّ حزمٍ وقوَّةٍ » .

العلم السوفيتي له سمة خاصة ، وأساس مستقل :

وهكذا استطاعت أن توفق بين العلوم التي احتاجت إليها ، والمبادىء التي آمنت بها ، وتجعل منها وحدةً متكاملةً متناسقةً ، ولم تترك فجوةً بين الحياة التي تعيشها ، أو تسعى إليها وبين المبادىء التي تؤمن بها ، وتدعو إليها بحماسة ، وقد حاربت في سبيلها حرباً شعواء ، وسلمت بذلك من الاضطراب الفكري ، والقلق النفسي اللذين يسودان في عالم تتوزَّعه القوى المتناقضة ، ويسوده النفاق والتناقض .

إباء البلاد الرأسمالية من استيراد المناهج التعليمية ، واستعارة الأساتذة الأجانب :

وكذلك البلاد الرأسمالية وإن اشتهرت في العالم بمبدأ التسامح الديني ، والحرية المطلقة في المذاهب والآراء ، والاستفادة من كلِّ مصدرٍ ، ومن كل إنتاجٍ بشريٍّ في مجال العلم والتجربة ، إنَّ هذه البلاد كذلك لا تسمح بالمواد الأجنبية ، والمناهج التعليمية التي تبذر بذور الشيوعية ، والاشتراكية المتطرفة ، وتستهزىء بفكرة الملكية ، وتثمير الثروة ، وتنظيمها على غير أسس الشيوعية الماركسية ، ولا تسمح ولا تفكر في استيراد أقل عددٍ من الأساتذة من البلاد السوفيتية مهما بلغوا في البراعة والإبداع ، والتفوق في العلوم والفنون ، ولم يقف الأمر على هذا الحدِّ بل قد أصبح قادة التربية والتعليم في الغرب لا يرون استيراد منهج تعليمي من بلدٍ إلى بلدٍ ، ولو كانا يلتقيان على العقيدة والفكرة الأساسية في الاجتماع ، والنظرة الواحدة إلى الإنسان ، والحياة ، والكون . فلا تفكر إنجلترا في استعارة المناهج التعليمية والنظريات التربوية من فرنسا ، ولا فرنسا من إنجلترا ـ وهما الحليفتان في

الحروب ، والزميلتان في الصلح ـ فضلاً عن أن تقتبسا هذه المناهج من ألمانيا المنافسة الدائمة لهما ، البغيضة القديمة إليهما .

وقد جمعت اللغة الإنجليزية ، والثقافة الأنجلوسكسانية ، والمصالح السياسية الكثيرة ، والزمالة المتكررة في حربين عالميتين ، والمشاركة في الدم والنسل إلى حدٍّ كبيرٍ بين الشعب البريطاني ، والشعب الأميركي ، وساد في البلدين المذهب البروتستانتي ، فهو مذهب الأكثرية الساحقة في هذين البلدين ، ولكن رغم هذه الالتقاءات كلِّها لا يرى الموجهون لسير التربية والتعليم والواضعون لسياستها في أمريكا استيراد مناهج التعليم وموادِّها من بريطانيا .

النظام التعليمي ليس بضاعةً تستورد من بلدٍ إلى بلد :

ومن رأيهم أنَّ النظام التعليمي ليس من البضائع التي تستورد من بلدٍ إلى بلدٍ ، كالمصنوعات ، أو المواد الخام ، أو مرافق الحياة . يقول الأستاذ الأميركي الكبير الدكتور (Dr. J. B. Conant) في كتابه التربية والحرية (Education and Liberty) : « إنَّ عملية التربية ليست عملية تعاطٍ وبيعٍ وشراءٍ ، وليست بضاعة تصدر إلى الخارج ، أو تستورد إلى الداخل ، إننا في فتراتٍ من التاريخ خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الإنجليزية ، والأوروبية إلى بلادنا الأمريكية » .

* * *

مشكلات الشباب
في الجامعات الدينية وعلاجُهَا السَّليم[١]

أما بعد ، فقد علمنا جميعاً : أن هذا العصر ، عصر المشكلات والأزمات ، وإنْ كان لكلِّ عصرٍ طابعٌ يغلب عليه ، ويكون له سمةً وشعاراً ، فطابع هذا العصر القلق النفسيُّ ، والاضطراب الفكريُّ ، وعدم الثقة ، والشعور المتزايد لدى كلِّ طبقةٍ وفردٍ بما له من حقوق ، والتهرُّب من واجباته ومسؤولياته ، ولعلَّ نصيب الجامعات أوفر من نصيب كلِّ مؤسسةٍ ومنظمةٍ ؛ لأنها أوكار الشباب ، وخلاياهم ، وهم أكثر خضوعاً لروح العصر ، ولما تغزوه من موجاتٍ واتجاهاتٍ لحداثة سنهم ، وعدم نضجهم ، وقلَّة الصبر والاحتمال عندهم ، ولأنَّ جميع الأحزاب السياسية ، والحركات الثورية تستغلُّ هذه الخصائص ، وما عند الشباب من حماسٍ ، وطموحٍ ، واندفاع ، وتستخدمهم في كلِّ بلدٍ لغاياتها السياسية ، ولقلب النظام ، ونشر الفوضى ، وتتخذهم مطيةً لأغراضها التافهة الخسيسة أحياناً ، والهدامة أحياناً أخرى ، فأصبحت الجامعات في الغرب والشرق أكبر مسرحٍ للفوضى والقلق ، ونقطة انطلاقٍ للإضرابات والاضطرابات ، وتوزَّعت جميع الجامعات بين معسكرين : معسكر رجال الإدارة ، وأسرة التعليم ، ومعسكر التلاميذ والشباب ، والحرب قائمةٌ على قدمٍ وساق بين هذين المعسكرين ، كأنَّها حربٌ بين المستعمرين والمواطنين ، وبين ظالمين ومظلومين .

وقد أصبحت قضية الجامعات وما تعانيه من مشكلاتٍ وأزماتٍ (فضلاً عن

---

(١) ألقى العلامة الندوي هذا البحث في المجلس الاستشاري في المدينة المنورة في ١٩/ ٤/ ١٣٩٤هـ .

هبوط المستوى الخلقي ، والعلمي ، والإنساني ، وأنَّ التعليم قد أصبح لا يؤتي أكله ، ولا يحقق غايته) القضية الكبرى في الغرب والشرق ، وهي أكثر تعقداً في بلادنا ؛ لأنَّها تمرُّ بمرحلةٍ دقيقةٍ انتقالية ، حتى أصبح بعض قادة الرأي ، وساسة البلاد يرون أنَّ ضرر هذه الجامعات والتعليم العالي أكبر من نفعه ، ولكنَّ الأمر قد أفلت من أيديهم لما نشروا من دعايةٍ ساحرةٍ مسلَّحةٍ بأقوى الأساليب العلمية ، والنفسية للتعليم العالي ، وحاجة البلاد إلى أكبر عددٍ من الجامعات ، حتى أصبح ذلك مقياساً لحضارة البلاد ، وقابلية الشعوب ، ولما بالغ الكتاب والمثقفون في تمجيد العلم والثقافة خصوصاً الثقافة الراقية مبالغةً تشبه التقديس والتأليه ، من غير اشتراطٍ لشروطٍ ، وتنويهٍ بالغايات ، فأصبحت الثقافة والتعليم العالي في أيِّ لونٍ كان إلهاً يعبد ، ويقدَّس ، وأصبح شيئاً خيالياً شعرياً ككثيرٍ من المعاني والخيالات الشعرية عند الإغريق ، وبراهمة الهند ، حتى أصبح الواقعيون العمليون يشكُّون في منزلة العلم التي أنزله فيها الفلاسفة ، ويشكون في الفطرة الإنسانية وصلاحيتها ، وليس الخطأ خطأ العلم ، ولا خطأ الفكرة البشرية ، إنما الخطأ تقديس العلم مجرَّداً من كلِّ غايةٍ ، ومن كلِّ خلقٍ ، ومن الإيمان والعقيدة « ومبدأ العلم لأجل العلم » الذي آمن به الغرب أخيراً ، والطريق القويم هو طريق الأنبياء ، وطريق القرآن في وصف العلم والعلماء ، وما شرع له من آدابٍ وأحكام ، وما حدَّد له من غاياتٍ ، ونحن في غنىً في هذا المجلس الموقر الذي ضمَّ نخبةَ العلماء ، وصفوة المفكرين عن الإفاضة عن هذا الموضوع .

إنَّ هذا السيل من القلق والفوضى لم يجس خلال جامعاتنا الإسلامية ومعاهدنا الدينية بعد ، وإنَّها لا تزال تعيش في هدوءٍ كثيرٍ ، حتى أصبحت الجامعات المدنية ورجالها يحسدونها ، ويستغربونها . والفضل في ذلك يرجع إلى الإيمان والعقيدة ، وإجلال العلم والعلماء الذي أمرت به الشريعة الإسلامية ، وزخر به الكتاب والسنة ، وما عند شبابنا المسلمين من بقايا أخلاقٍ إسلاميَّةٍ ، وتقاليد اجتماعية .

ولكن الفتنة تدق أبواب هذه الجامعات ، فإنَّه لا مجال لجزيرة على البرِّ .

وإنَّ هذه الجامعات مهما كانت لها من أسوار منيعةٍ ليست بعيدةً عن هذه الحياة القلقة الثائرة ، والمجتمع المائج الهائج ، فلنكن على حذرٍ من هذه الأخطار التي تهددنا ، ولنأخذ لها أهبتنا .

ولهذا القلق الذي قد سيطر على الجامعات من زمانٍ ، وحوّلها إلى ميدان حربٍ ونضالٍ أسبابٌ كثيرةٌ ، ليست بمكانٍ من الدقَّة والغموض تحتاج فيه لأي تحليلٍ وضرب أمثال ، ولكن أسبابه الرئيسية على ما يبدو لي خمسة ، أشير إليها باختصار :

١ ـ عدم الإيمان بقيمة ما تعطيه هذه الجامعات من ثقافةٍ ومعلوماتٍ وصلاحيةٍ ، وعدم إيمان الشباب بحاجتهم إليها حاجة المشرف على الغرق ، والمعرَّض للتلف إلى الإنقاذ ، بل بالعكس من ذلك إيمانهم بضآلة الفائدة التي تحصل لهم من هذا الطريق الطويل ، الملتوي ، الشاق العسير ، المكلف للأموال الباهظة ، والمتاعب الجمَّة ، وبضحالة الثقافة التي تحصل لهم في هذه الجامعات ، وفصول الدروس ، والإنسان منذ وجد على هذا الكوكب مؤمنٌ بمنطق النفع ، خاضعٌ مجلٌّ لمن كان سبباً له في ذلك .

٢ ـ تشكك الشباب في إخلاص المعلمين والعاملين في هذه المراكز الثقافية ، ونزاهتهم وسموِّهم ، وأنهم على مستوى هو فوق مستواهم في العلم ، والعمل ، والخلق ، والاستقامة ، وفي الذكاء والمواهب ، وفي الاجتهاد والجهاد لأداء رسالتهم ، بل يرون كثيراً منهم دون مستواهم ، ويرونهم محترفين بصناعة التعليم ، لا يمتازون عن المحترفين الآخرين من أصحاب المهن والصناعات بكثير .

٣ ـ ضعف الصِّلة بين الأساتذة والتلاميذ إذا كان هنالك أساتذة بالمعنى الحقيقي ، وإذا كان التلاميذ بالمعنى الحقيقي ، فقد تحوَّلت الجامعات والمعاهد العلمية حتى الدينية الإسلامية منها من أسرٍ مؤتلفةٍ يسود عليها الإخاء والتعاون ، والحبُّ والرقَّة ، يوقر فيها الكبير ، ويُرحَم فيها الصغير إلى طبقاتٍ متنافسةٍ ، لا تلتقي إلا على الأغراض والاستغلال ، وصلة المعلم بالتلميذ صلةٌ سطحيةٌ مؤقتةٌ لا تتجاوز الفصول والدروس .

٤ ـ عدم وجود رسالة يؤمن بها الشباب ويتحمَّسون لها ، ويتفانون في سبيلها ، ويتشرفون ويتظرفون بحملها والاعتزاء إليها ، وعدم وجود دعوةٍ تشغلهم ، وتستحوذ على مشاعرهم ، وتجعلهم بمأمنٍ من أن يكونوا فريسة لدعواتٍ أخرى ، فلا سبيل إلى تأمين شباب متفتحي القلب والعقل من الوقوع في شباك الدعوات والفلسفات إلا أن يحوَّلوا إلى دعاة أصحاب عقيدةٍ ومبدأ ، ولا سياج للقلب ولا حارس له أفضل من الحبِّ ، فإنَّ الحب إذا وقع في القلب ، واستولى عليه ؛ منع من أن يغزوه حبٌّ آخر و ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب : ٤] .

٥ ـ عدم وجود العاطفة القوية الدافقة ، والإيمان الملتهب ، وقد عجز العلم ـ في تاريخه الذي دُوِّن وعُثِر عليه ـ عن أن يقاوم المغريات المادية والنزوات النفسية ، كما عجز مقدارٌ من العقل عن مقاومة الفتن الداخلية والخارجية ، بل كانت وظيفة العقل مقصورةٌ على تهيئة الدلائل العلمية والمبررات العقلية لما يزيِّن له الشيطان ، وتجنح إليه النفس ، وإنَّ دوره في مثل هذه المواقف دور المحامي الحاذق ، والحقوقي البارع ؛ الذي يدافع عن كلِّ قضيةٍ في لباقةٍ ومهارةٍ ، وفي براعةٍ وبلاغةٍ ، وخبرةٍ دقيقةٍ بالقوانين والحقوق .

وقد أهملت المراكز التربوية كلُّها جانب العاطفة والحبِّ والإيمان ، واعتبرته من خصائص بعض النظم التي كانت محدثةً دخيلةً على الإسلام ، والتي تنافي في نظر بعض قادة التعليم ورجال الفكر روح الشريعة الإسلامية والطريقة السلفية ، مع أنه حاجةٌ من حاجات البشر ، ومطلبٌ من مطالب الإسلام إذا نُقِّيَ مما التصق به في العهود الأخيرة ، وقد اتَّصف بهذا الجانب الرعيل الأول من المسلمين من الصحابة والتابعين لهم بإحسانٍ ، ولولا هذا الإيمان القوي ، والولوع ، والحبُّ العميق ، وقوة العاطفة (ولا مشاحة في الاصطلاح) لما ظهرت منهم هذه الروائع الإيمانية ، والبطولات التي لا نظير لها في تاريخ الأمم .

إنَّ إهمال هذا الجانب قد جنى على نظامنا التعليمي جنايةً كبيرةً ، وأفقده

العمق ، والرقَّة ، والسمو ، وقوة المقاومة ، وصلاحية الإبداع ، وإشعال القرائح وتدفقها ، فأصبح نظامنا التعليمي نظاماً خشبياً جامداً لا حياة فيه ، ولا حركة ، ولا نمو فيه ، ولا ازدهار ، وأصبحت مراكزنا الثقافية ، وجامعاتنا الإسلامية مراكز حياة رتيبةٍ جامدةٍ ، يسود عليها الركود ، ويهيمن عليها الجمود ، وتتحكم فيها القوانين واللائحات .

وهذا الذي تحدَّثنا به من مشكلاتِ مراكز التعليم العصري والجامعات المدنية طبيعيٌّ معقولٌ ، يجب ألا يثير استغراباً ، ولم يكن مجرد مفاجأة ، أو مصادفةٍ ، بل هي طبيعة الأشياء . والشجرة لا تلام على ثمرتها الطبيعية ، ولا أبلغ من التعبير النبوي ، فهذه المعاهد العلمية هي (خضراء الدمن) .

أما بخصوص مراكز التعليم الديني ، والثقافة الإسلامية ـ والجامعة الإسلامية عضوٌ كريمٌ من أعضاء هذه الأسرة الكريمة ـ فكان من المفروض أن تكون بعيدةً كلَّ البعد عن تأثير هذه الأسباب ، وفعل هذه العوامل ، فإنَّ الأسباب التي تحدَّثنا عنها وليدة المادية ، ونتيجة التعليم اللاديني ، والنظرة الخاصة إلى التعليم والعلوم والآداب ، وتجريد العلم عن الإيمان ، والعقيدة ، والخلق والسيرة ، والفصل بين الدين والدنيا .

بالعكس من ذلك : إنَّ نظامنا التعليمي قائمٌ على الإيمان بشرف العلم ، وفضل العلماء ، ونظرته إلى العلم ، ومكانته ، ومصادره ، ومهمته ، ورسالته تختلف كلَّ الاختلاف عن نظرة النظام التعليمي الغربي المادي ، وكذلك نظرة التلاميذ إلى أساتذتهم ، وكل ما يتصل بالعلم من وسائل وأدوات ، وأسباب ومقدمات ، تختلف اختلافاً كبيراً عن نظرة المتعلمين في الغرب ، وفي العصر الحديث ، ولنظرةٌ عجلى في فضائل العلم والعلماء في الإسلام ، وما ورد فيها من آيات وأحاديث ، وما أُلف فيها من كتب ورسائل ، تكوّن مكتبة مستقلةً تكفي لفهم الفرق بين أبناء المعاهد الدينية ومراكز التربية العصرية .

ولكن من الواقع الذي يجب أن نعترف به تأثير الزمان والبيئة ، والفلسفات العصرية ، والعوامل السياسية والاقتصادية كان عميقاً جداً في أبناء جامعاتنا الإسلامية ، ومعاهدنا الدينية ، لم يخل عنه المعلمون والمربون ، وقد أصيبت

طائفةٌ كبيرةٌ من الطلبة بالبلبلة الفكرية ، والقلق النفسي ، وعدم الإجلال للعلم والعلماء ، وعدم الثقة بفائدة هذا العلم وقيمته ، وندر من كان مخلصاً في طلبه للعلم ، يطلبه ، ويعكف عليه إيماناً واحتساباً ، وابتغاء مرضاة الله يعتزُّ بمكانته ، ويحمد الله عليها ، منقطعاً إليه بقلبه وقالبه ، متحملاً لذَّةَ وعزَّةَ ، متضلعاً من الدعوة ، متسامياً برسالته ، مؤمناً بها كلَّ الإيمان ، صاحب عاطفةٍ قويَّةٍ ، وحبٍّ دافقٍ يتمرد به على الشهوات والنزوات ، والشكوك والشبهات ، ويؤثر ولا يتأثر ، ويحرِّك ولا يتحرك ، ويعلو ولا يعلى عليه .

بل مع الأسف نجد كثيراً منهم لا يمتازون عن نظرائهم وأقرانهم شباب الجامعات المدنية في الأخلاق ، والأذواق ، والإيمان بصلاحية الإسلام ، وخلوده ، وحاجة البشرية إليه ، بل ربما كان من تأثر من شباب الجامعات المدنية بدعوة دينيةٍ ، أو شخصيةٍ إسلامية قويةٍ ، أو مطالعةٍ صالحة أحسن حالًا ، وأقوى إيماناً ، وأكثر حماساً للإسلام من شباب الجامعات الدينية الذين لم يسعدهم الحظُّ بذلك .

وقد تجلَّى هذا الاضطراب في الفكر والعمل ، والهدف بوضوحٍ في بيئةٍ جامعيةٍ كانت ملتقى عناصر مختلفة من أنحاء العالم ، وكان فيها مزيجٌ من الثقافات ، واللغات ، والبيئات ، ولم تجد الوقت الكافي والشخصيات القوية المؤثرة التي تربط بين هذه العناصر المختلفة والمزيج من الشباب ، وتضفي عليها صبغةً واحدةً ، ولم تستطع أن تصهرها في بوتقةٍ عقيدةٍ واحدةٍ ، وغايةٍ واحدة ، وازدادت القضية تعقداً ودقَّةً حين انضَّم إلى هذه العوامل المضعفة عامل الإغراء المادي ، فكان الدافع لكثير من الشباب المنحة الكريمة ذات القيمة التي ينالونها في هذه الجامعة ، وزاد الطين بلةً عدم وجود الحياة الاجتماعية ، حياة دور الإقامة والأروقة التي يعيشها الشباب في الجامعات الدينية القديمة ، وعدم وجود شخصية قوية مغناطيسية تشرف على هذه الأجنحة من دور الإقامة والأروقة ، وتهيمن عليها بجاذبيتها ، وإخلاصها ، وتوجهها ، ومعرفتها الدقيقة بنفسية الشباب وعقدها ، وتنمِّي الملكات وتربيها .

والعلاج عندي في هذه البيئة المضطربة المتناقضة يتلخَّص في النقاط الآتية :

١ ـ إثارة الإيمان ، والاحتساب في نفوس الشباب ، والاعتناء الزائد بفضائل العلم والعلماء ، ووجوب الإخلاص ، والتحذير من أغراض العلم الدنيوية ، أو طلب العلم لغير الله ، ولغير الدين ، وما ورد فيه من وعيدٍ شديد ، ومعلومٌ أنَّ الكثرة الكاثرة من شبابنا اليوم ليس مرضه تحديد غرض الفساد أو الإفساد ، والزيغ ، والإلحاد ، إنَّ مرضه هو عدم الجدية ، وعدم التفكير في غاية العلم ، ومقاصده ، والغفلة عنها ، فتجد العدد الأكبر من هؤلاء الطلبة لم يفكروا في يومٍ من الأيام لماذا يتعلمون ، ولم يحدِّدوا لهم غاية ، فبدؤوا عملهم من غير تفكير ، ومن غير تصميم ، ويجب الاستعانة في ذلك بالإشادة بالآيات والأحاديث التي وردت في فضائل العلم والعلماء ، والتنويه بها بمناسباتٍ مختلفة ، وعن طريق المحاضرات ، والخطب ، والرسائل ، والحديث ، والمذاكرة ، وقد أقرَّ علماء النفس والتربية أنَّه لا توجد قوة أكثر عمقاً وأشدُّ سلطاناً على النفوس من الإيمان بالمنافع ، والإيمان بالفضائل ، وذلك الذي حدا بالصَّحابة ومن تبعهم إلى الشهادة في سبيل الله ، وبذل النفس والنفيس في خدمة الإسلام ، وهانت عليهم بذلك حياتهم ، ولذَّاتهم ، وأوطانهم ، وولدانهم ، ومطالب النفس والجسد .

٢ ـ إنَّ مشكلات دور التعليم مشكلاتٌ طريفةٌ متجددةٌ ، لا يأتي عليها حصر ، ولا يضبطها قانونٌ ، وهي كالثوب البالي إذا رفي من جانب تناثر من جانبٍ آخر ، أو كقطيعٍ من الغنم إذا ضُبط من جانب أفلت من جانبٍ آخر ، والمفتاح الرئيسيُّ لهذه الأقفال التي ليس لها عددٌ ولا حصرٌ ، هو وجود الأساتذة الذين أكرمهم الله بقوَّة الشخصية ، ورسوخ الإيمان والعلم ، والعقل السليم ، والقلب الرقيق ، والعاطفة القوية ، فهي العصا السحرية التي لا تمسُّ شيئاً إلا غيَّرته ، وحجر الفلاسفة الذي لا يمسُّ التراب إلا ويحوله تبراً ، وهي الثروة الكبرى ، والطاقة الهائلة التي يمكن الاعتماد عليها في فضِّ المشكلات ، وحلِّ الأزمات .

٣ ـ وجود دعوةٍ إيجابيةٍ قويةٍ تشغل قلوب الشباب ، وتستولي على مشاعرهم ، وتحرِّك ملكاتهم العملية وما طبعوا عليه من حبٍّ للحركة ، والعمل والكفاح ، ولا تدع مكاناً لدعوةٍ أخرى يؤمنون بفضلها وشدَّة الحاجة إليها .

وهذه الدَّعوة موجودةٌ معلومةٌ ، وعلى أساسها قامت كلُّ جامعةٍ إسلاميَّةٍ ، وخاصَّةً هذه الجامعة التي تقوم في مهبط الوحي ، ومهجر الرسول ﷺ ، ومنطلق الدَّعوة الإسلامية في العالم ، وهي الدَّعوة إلى الله ، والدَّعوة إلى الدين الخالص ، والتوحيد النقي الصافي ، وإلى دار الإسلام ، والتحلِّي بفضائل الإسلام ، وإنقاذ البشرية من مستنقع الجاهلية ـ بأوسع معاني الكلمة ـ الذي تردَّت فيه ، والخروج بالإنسان من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ويمكن إثارة هذه الدَّعوة ، وتنميتها عن طريقة السيرة النبوية ، وحياة المصلحين والمجددين في الإسلام ، وتاريخ الدَّعوة الإسلامية في مختلف العصور ، ويحسن أن تنظم للتربية عليها جولاتٌ دعويةٌ ، ومخيَّماتٌ خارجيةٌ ، ومحاضراتٌ علميَّةٌ .

٤ ـ إيجاد نظامٍ اجتماعيٍّ رواقيٍّ ، يعيش فيه الشباب حياةً اجتماعيةً إسلاميةً تحت إشراف أساتذةٍ ومراقبين يكونون القدوة الحسنة ، والمثل الكامل في الخلق ، والسيرة ، وذوق العلم وذوق العبادة ، يتميَّزون لا عن الطلبة وحدهم ، بل عن عامة العلماء ، والأساتذة بمحاسبة النفس ، والاحتساب لله ، والتقشُّف في الحياة ، والبعد عن غوائل النفس ، ومكائد الشيطان ، يشعر الشباب بحرارة إيمانهم ، ورقة قلوبهم وشعورهم ، فيقتدون بهم بدافعٍ من الحبِّ والإجلال ، وحبٍّ للجمال ، والكمال ، لا بدافعٍ قانونيٍّ ، ويتخذونهم مثلاً في الحياة .

٥ ـ تنظيم محاضراتٍ عامَّةٍ يُدعى لها كبار العلماء ، وأقطاب الفكر الإسلامي ، تغرس في نفوس الشباب العقيدة القوية ، وتلهب الجمرة الإيمانية ، وتعيد الثقة بالإسلام ، وما اشتمل عليه من تشريعٍ ، وتعليمٍ ، ودعوةٍ ، ومناهج للحياة ، وتتناول القضايا التي تشغل العالم وتشغل الشباب

بصفةٍ خاصَّةٍ ، والتحدِّيات التي سيواجهونها لمجرد تخرجهم في الجامعة الإسلامية ، ورجوعهم إلى بلادهم ، وتعرض لها حلولاً في ضوء الكتاب والسنة وتعاليم الإسلام والعلم الصحيح ، وتحلُّ العقد النفسية للشباب حلاً رفيقاً رقيقاً ، بحيث لا يشعرون أنهم يمرُّون بمرحلة « عمليةٍ جراحية » وأنَّهم يداوون كالمرضى ، أو يخرجون كالغرقى .

ومعلوم أنَّ الجامعات مهما توسعت دائرتها ، وقوي نشاطها ، لا تستطيع أن تعطي الطالب الزاد الكافي من المعلومات عن التاريخ الماضي ، والعالم المعاصر ، والعلم الحديث ؛ لكثرة المواد الدراسية ، فلا بدَّ أن يعتمد في إنارة عقول الشباب ، وتوسع نطاق معلوماتهم على المحاضرات التي ينتقي لها خيرة العلماء ، وأصحاب الاختصاص .

هذه هي الأساليب والطرق التي أَعْتقد أنها تزيل الشيء الكثير مما تعانيه الجامعات الإسلامية ، والمعاهد العلمية من أمراضٍ ، وقلقٍ ، واضطرابٍ ، وعدم خضوعٍ للنظام ، وعدم استفادةٍ حقيقيةٍ مما هيأته لهم هذه الجامعات من أساتذة فضلاء ، ومكتبةٍ غنيةٍ واسعةٍ ، وأسباب الراحة والهدوء ، والعكوف على الدراسة ، وهي مما شرح الله لها صدور كثيرٍ من المربين ، وجربوها في مناطق عملهم ، وتجربتهم ، فنجحت .

ولا شكَّ أنَّ هذه البيئة الفاضلة بالإيمان والحنان ، العامرة بالرسالة والدعوة ، الملهمة للصبر والتقوى وعلوِّ الهمة ، وسموِّ النظر ، المليئة بالروحانية والسكينة ـ والجامعة تعيش في رحاب المسجد النبوي ، وفي ظلال الآثار والذكريات الأولى ـ تساعد على تحقيق هذه الغاية في أكمل شكل ، والله المستعان ، وعليه الاعتماد والتكلان ، وصلى الله على خير خلقه محمدٍ وآله وصحبه .

التربية لباس يفصل على قامة الشعب وملامحه :

إنَّ التربية ـ أيها السادة ! ـ في نظر هؤلاء القادة الذين يغارون على شخصية شعوبهم ، وذاتية بلادهم ـ لباسٌ يفصَّل على قامة هذه الشعوب ،

وملامحها القومية ، وتقاليدها الموروثة ، وآدابها المفضلة ، وأهدافها التي تعيش بها ، وتموت في سبيلها . إنَّه لباسٌ يجب أن ينسجم مع أجوائها ، وبيئاتها التي تعيش فيها ، والآداب والعادات التي تحتضنها ، والتاريخ الذي تغار عليه ، والنماذج والمثل العليا التي تعشقها ، وتتغنى بها ، ونحن المسلمين بالأولى يتحتَّم علينا أن نجعل عقائدنا التي جاءت بها النبوة الأخيرة ، والدين الذي لم تعبث به يد التحريف والمسخ ، ولم يخضع لقانون التطور والارتقاء ، كما خضعت له الديانات الأخرى ، وعدَّلتها ، وهذَّبتها التجارب ، كما دلَّ على ذلك تاريخ هذه الديانات ، وهي خاضعةٌ لهذا القانون ، ولهذه العوامل الإنسانية دائماً ، ولا تتمتَّع العقائد عندها ، ولا الحدود الفاصلة بين الكفر والإيمان ، والدين والزندقة ، والتمسُّك والتحلُّل بالأهمية والسلطان ، كما تتمتع عقائدنا الدينية . وليس لديهم بين الكفر والإيمان ما لدينا من خطوطٍ فاصلةٍ ، وحدودٍ حاسمةٍ ، وفوارق واضحةٍ ، لا تسامح فيه أكبر شخصيةٍ ، ولا تراعى فيها أكبر مصلحة ، فالديانات والعقائد في أمم أخرى رقيقةٌ مائعةٌ أحياناً ، مُبهمةٌ غامضةٌ أحياناً أخرى . أمَّا الشخصية الإسلامية ؛ فإنَّها شخصيةٌ واضحة الملامح ، معلومة الحدود .

مركز الجزيرة العربية الدقيق ، ومسؤوليتها الضخمة :

والجزيرة العربية لا تشارك الشعوب الإسلامية في العقائد الدينية ، والشخصية الإسلامية فحسب ، بل إنَّها تنوء بأكبر أثقالها ، وتنهض بأعظم مسؤوليتها من حيث هي الداعية الأولى لها ، والمحافظة الدائمة عليها ، فهي مصدر الدَّعوة الإسلامية ، ومعقلها ، ومأرزها . وقد جاء في حديث صحيح (إنَّ الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحيَّة إلى جحرها) فنحن أولى بالغيرة على عقائدنا الدينية ، وشخصيتنا الإسلامية ، ورسالتنا الإنسانية ، في كلِّ ما نأخذ وما ندع ، وفي كلِّ ما نبني ونهدم ، وفي كلِّ ما نقتبس ونتلقى من أيِّ شعبٍ وبلدٍ في العالم ، فنحن أولى بأن نفصِّل لباس التربية والتعليم والمناهج الدراسية والمواد العلمية على قامتنا ، وأن نخضعها أكثر من أيِّ أمَّةٍ وشعب

لمبادئنا ، وأهدافنا التي نعيش لها ، والرسالة التي أكرمنا الله بها ، وكلّفنا إبلاغها إلى الإنسانية كلِّها ، في كلِّ عصرٍ ، بقوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] . وقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

يجب أن نتناول العلوم والآداب الغربية ، كمواد خامة ، ونصوغها صياغةً جديدةً وفق حاجاتنا :

فيجب ألا نتناول العلوم والآداب والمناهج التعليمية ونظريات التربية التي ظهرت في الغرب والشرق على أنها آخر ما وصل إليه العلم البشري ، وأنّها شيء يتحتَّم على الأمم الشرقية أخذه وتطبيقه على علاته وطبائعه ، وعلى ما التصق به من عناصر محلية ، أو عوامل وقتية ، بل نأخذها على أنها تجارب بشر يخطىء ، ويصيب ، ويمشي ، ويتعثر ، ويبصر ، ويعمى ، ولا نأخذ العلوم والآداب واللغات على أنها أشياء قد بلغت نهايتها ، وختم عليها بختم لا يفض ، بل نأخذها على أنَّها مواد خامة ، ونصنع منها ما نشاء وفق حالتنا وحاجتنا ، ونفرغها في قالبنا ، ونجرِّدها مما اقترن بها ـ في غير لزومٍ ولا مبررٍ ـ من عوامل الإلحاد والإفساد ، والاستخفاف بالقيم الخلقية ، ونأخذها نقيَّةً ، صافيةً ، مهذبةً ، منقحةً ، بل نطعِّمها بالإيمان بالله ، والنظر العميق ـ المؤسس على الإيمان ـ إلى الكون ، وهكذا نجعل العلوم والدراسات كلَّها في غير تعسفٍ ولا إرهاق وسيلةً للعلم والحكمة ، وسبيلاً إلى الإيمان والمعرفة ، فتكون مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا ﴾ [آل عمران : ١٩١] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

إنها أعظم تجربة في العالم الإسلامي اليوم ، تقضي بها الظروف الحاضرة ، ويفرضها الصراع القائم بين العلم والدين ، وبين الطبقة المثقفة الحاكمة ، وبين الجمهور المؤمن السليم ، وأنَّ هذه الجزيرة ـ بما هيأ الله لها من الأسباب ، وأتاح لها من الفرص ، وقيض لهـا من حكومـة انبثقت من

دعوةٍ دينيةٍ تدعو إلى الدين الخالص ، وتحكيم الكتاب والسنّة ، وتفتخر بالانتساب إليهما ـ إنَّ هذه المملكة لهي خير حقلٍ ، ومجالٍ لهذه التجربة المباركة .

التربية والتعليم وسيلةٌ لا غاية :

ولم تعد التربية والتعليم غاية في الأمم التي بلغت سنَّ الرشد ، واستكملت الوعي ، وتحرَّرت من رقِّ العبودية والتقليد الأعمى ، بل أصبحت وسيلةً ، وقد كان العالم في دور طفولته العقلية ينظر إلى أشياء كثيرةً على أنها غايةٌ وهدفٌ ، ثم أصبح كلُّ ذلك ـ مع تقدُّم العقل البشري والتجارب الطويلة ـ وسيلةً لغايةٍ ، فلا غرابة إذا كان قد نظر إلى التربية والتعليم ، وإلى المدارس ، ومراكز الثقافة ، والمكتبات ، ودور النشر باعتبارها غايةً ، ولا تزال هذه العقلية الطفولية شائعةً مسيطرةً في الشرق ، فنحن إذا علّمنا عدداً كبيراً من أفراد الشعب فنَّ القراءة والكتابة ، وإذا أسسنا عدداً من المدارس والكليات في بلد ؛ شعرنا بأننا قد أدّينا الرسالة ، وحققنا الغاية .

التعليم قنطرةٌ تصل بين الحاضر والماضي ، وبين العلم والعقيدة :

ولكنَّ الغرب الذي هام بالتعليم أكبر هيام ، وحمل رايته خفّاقة في العصر الأخير ، واشتهرت أكثر دوله وأقطاره بالعلمانية وبالحياد تارةً ، وبالإلحاد تارةً أخرى ، لم يعد ينظر إلى النظام التعليمي ، وإلى المناهج التعليمية ، من حيث هي آلات صماء لتعليم القراءة والكتابة ، ونقل المعلومات مبعثرةً ، لا تربط بينهما وحدة ، ولا تجمعُ بينها غاية ، ولا يسيطر عليها إيمانٌ وعقيدةٌ ، ولا تصل الجيل الحاضر بالماضي ، والأبناء بالآباء ، بل بالعكس من ذلك أصبح ينظر إلى النظام التعليمي من حيث هو قنطرة تصل بين الحاضر والماضي ، والخلف بالسلف ، والمعلومات بالعقائد ، وتدعم العقيدة الموروثة بالعلم والمنطق ، والدليل والحجة ، ويعتبر هذا النظام التعليمي الذي ينفق عليه أكبر جزء من ثروته ، وأعظم قسط من مجهوده ، وأوفر نصيب من ذكائه ، عملية بناءٍ وتكوين ، لا عملية هدم وتوهين ، ووسيلة ثقة بين

الأفراد ، ورباطاً بين الجماعات ، لا وسيلة ثورةٍ في الأفكار ، واضطرابٍ في النفوس ، وتفكُّكٍ في العرا ، والقوى .

معنى التربية والتعليم وتعريفهما عند قادة التربية والتعليم في الغرب :

وهنا ثلاثة شواهد لثلاثة من قادة التربية والتعليم ، وأئمة الفكر في العالم الغربي المعاصر ؛ يقول (سيربرسي نَنْ) (Sirpercy Neinn) الذي يحتلُّ الصدارة بين خبراء التعليم في بريطانيا في مقالٍ له كتبه لدائرة المعارف البريطانية : « لقد سلك الناس مسالك مختلفةً في التعريف بالتربية ، ولكن الفكرة الأساسية التي تسيطر عليها جميعاً : أنَّ التربية هي الجهد الذي يقوم به آباء شعب ، ومربوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التي يؤمنون بها . إنَّ وظيفة المدرسة أن تمنح للقوى الروحية فرصة التأثير في التلميذ ، تلك القوى الروحية التي تتصل بنظرية الحياة ، وتربي التلميذ تربيةً تمكّن من الاحتفاظ بحياة الشعب ، وتمدُّ يدها إلى الأمام » .

وإن (جون ديوي) (John Dewey) الذي كان تأثيره في نظام التعليم الأمريكي أكبر من تأثير أيِّ رجلٍ في هذا العصر ، يقول في كتابه (الديمقراطية والتربية) (Democracy and Education) : (إنَّ الأمة إنما تعيش بالتجديد ، وإن عمل التجديد يقوم على تعليم الصغار ، إنَّ هذه الأمة بطرقٍ متنوعةٍ تكوِّن من الأفراد الأميين ورثةً صالحين لوسائلها ، ونظرية حياتها ، وتصوغهم في قوالب عقائدها ، ومناهج حياتها) ويقول البروفيسور كلارك Prof.Clark : « مهما قيل في تفسير التربية فمما لا محيص عنه أنَّها سعيٌ للاحتفاظ بنظريةٍ سبق الإيمان بها ، وعليها تقوم حياة الأمة ، وجهادٌ في سبيل تخليدها ونقلها إلى الأجيال القادمة » .

عناية إسرائيل الخاصّة بالتربية الدينية ، والتقاليد اليهودية :

وعلى هذه النقطة تضغط إسرائيل ضغطاً شديداً ، فهي من أشدِّ الدول تمسُّكاً بمبدأ تقديم الفكرة الدينية ، واللغة التي تعبِّر عنها ، وتضم ثروتها ، رغم جميع الاتجاهات التقدمية ، ومسايرة الدول الأوربية الراقية ، وتوفُّر

عددٍ كبير من البارعين في العلوم العصرية ، واللغات الأجنبية .

جاء في كتاب « التربية في الشرق العربي » وضع الدكتور رودرك ماثيوز والدكتور متى عقراوي : « إنَّ أهم ما يسترعي الأنظار في المدارس الإسرائيلية في فلسطين أنَّ لغة الدراسة في كافة المواد هي العبرية فيما عدا اللغات الإنجليزية ، والفرنسية ، والعربية ، والعناية شديدة في جميع مراحل التعليم بالدراسة الدينية ، وجعل التعليم الديني أساس الصهيونية وتقدمها » .

ويفهم مما يلي هذه العبارة أنَّ جميع أنواع المدارس الإسرائيلية أو اتجاهاتها تبعاً للأحزاب التي ينتمي إليها آباء التلاميذ رغم اختلاف هذه الأحزاب في مثلها العليا التعليمية ، والدينية ، والسياسية تلتقي على هذه الفكرة الأساسية ، وتعنى عنايةً خاصة بالتربية الدينية ، ويرى بعضها أنَّ التقاليد الدينية اليهودية هي النبراس الذي ينبغي أن تستهدي به نظم التعليم ، ويحتم بعضها على المعلمين أن يكونوا تقليديين ، أي أن يحرصوا على التقاليد اليهودية الأصولية(١) .

وجاء في مقال (التعليم العالي في إسرائيل) في مجلة فلسطين مقتبساً من الدراسة التي قدَّمتها دائرة البحوث والدراسات في الهيئة العربية العليا لفلسطين ما يلي : (إن سياسة التعليم العالي تهدف إلى تنمية العقيدة اليهودية ، والولاء لها ، بالإضافة إلى الدعاية لإسرائيل ، وكسب الأصدقاء) وفي المقال تفاصيل هائلة عن العناية باللغة العبرية ، وجامعاتها ، وميزانيتها ، وتمويلها ، وما يبذل لها اليهود من عنايةٍ فائقةٍ ، وأموالٍ طائلةٍ ، وتنظيماتٍ دقيقةٍ .

تقرير المحاكم العليا ، والأمم المتحدة ، بأنَّ للأبوين الحق الأول في اختيار نوع التعليم وأسلوبه لطفلهما :

وكان أساس هذا التفكير كله ـ الذي يجعل التربية وسيلةً لتدعيم العقيدة ، والقيم ، والمفاهيم ، التي يؤمن بها الشعب ، وتنميتها وإذكائها ـ أنَّ الأصل

---

(١) راجع الفصل السابع عشر ، (المدارس الإسرائيلية ومناهجها) ٣٥٤ ـ ٣٥٥ .

هو عقيدة الأبوين ، وإرادتهما ، وأنَّ لهما الحق الأول في اختيار الوضع التعليمي لابنهما ، الذي هو قطعة من نفسهما ، ووارث أعمالهما ، وأحلامهما .

وقد جاء في حكم محكمة الاستئناف في ولاية بومبائي (الهند) في شأن المرافعة التي رفعتها هيئة التعليم (المسيحية) في بومبائي ضدَّ حكومة الولاية ، وطلبها من المحكمة أن تمنع الحكومة من تعليم أبناء المسيحيين ، ما لا يرضاه آباؤهم ، فأصدر رئيس القضاة ، وقاضٍ آخر الحكم الذي جاء فيه :

« الشيء الذي يتمتَّع به المواطن في ديمقراطية ، والذي له قيمة كبيرةٌ هو حرية الفكر ، والذي لا يقبل جدلًا ، ولا نقاشاً : أنَّ النظام السهل الساذج لضبط الفكرة هو الإشراف على نظام تعليم الشباب . إن الحكومة ليس لها حق في أن تقهر الأبوين ليعلما ابنهما التعليم الذي ترى وحدها : أنه « التعليم الصالح » وفي إعلان الحقوق الإنسانية الذي تشترك الهند في عضويته ، يوجد كما يلي : « المادة ٦ » (رقم ٣) الأبوان لهما الحق الأول في أن يختارا نوع التعليم الذي ينبغي أن يتلقاه طفلهما » .

لذلك لما كان من حقِّ الحكومة أن تجعل التعليم إجبارياً ، وتهيىء الأسباب والمرافق لتلقِّي التعليم ، وتطبِّق منهاجاً خاصّاً للتعليم في مدارسها ، لا يزال للأبوين الحقُّ في أن يقرِّرا هل يذهب طفلهما إلى هذه المدرسة ، أو تلك المدرسة ، وأن يتلقى تعليمه في هذا الأسلوب ، أو أسلوبٍ آخر[١] .

البلد الإسلاميُّ العربيُّ أحقُّ بأن يستخدم العلم لترسيخ العقيدة ، وتثبيت دعائم الحياة :

فإذا كانت الأمم الغربية التي ضعفت صلتها بالعقيدة المسيحية ، وانحلَّت رابطتها بالقيم الخلقية ، التي دعت إليها تعاليم المسيح عليه وعلى نبينا الصَّلاة والسلام ، وساد فيها الشكُّ والاضطراب ، وعدم الثقة بما يسمى حقائق

(١) All India Reporter 1954 S. C. 561.

ومقررات ، تنظر إلى نظامها التعليمي هذه النظرة الخاصَّة ، وتستخدمه لترسيخ العقيدة ، وتثبيت دعائم الحياة ، وإنشاء الانسجام بين الفرد والجماعة ، وبين العقل والعاطفة ، وبين الماضي والحاضر ، فكيف بالأمة الإسلاميَّة ، والبلد الإسلاميِّ العربيِّ الذي لم يحدث في تاريخه ما يسمَّى الصراع بين الكنيسة والعلم ، والدين والدولة . ولا وجود عنده لنظرية فصل الدين عن السياسة ، وليس الدين عنده قضيةً شخصيةً ، والذي لم يكن في فترةٍ من فترات التاريخ فريسة الإلحاد المتطرف ، ولا الردَّة الدينية الشاملة .

الحربان العالميتان ، والجذام الخلقي في الشباب الجامعي أثبت إخفاق التعليم العالي :

ثم إنَّ الحربين العالميتين الطاحنتين ؛ اللتين قادهما الرجال الذين بلغوا ذروة العلم والثقافة أثبتتا في الماضي القريب إخفاق التعليم العالي في تكوين الأخلاق الصَّالحة ، واحترام الإنسانية والعدل مع الأمم والشعوب الضعيفة . وإنَّ الجذام الخلقي الذي تجلَّى في الشباب الجامعي في أميركا ، وأوربة ، وفي الهند ، وكثير من البلاد الشرقية ، وعبث المتعلمين بالقانون والنظام ، وانسياقهم مع رغباتهم الصبيانية ، وأغراضهم الخسيسة ، كلُّ ذلك دلَّ دلالةً واضحةً على أنَّ التعليم ليس غايةً في نفسه ، بل هو وسيلة ، قد تنجح ، وقد تخفق ، وقد تنفع ، وقد تضر ، وقد تكون أداة بناء وتكوين ، وقد تكون آلة هدم وتقويض ، وإنَّها إذا تجرَّدت عن عناصر الحصانة الخلقية ، والتوجيه الصَّالح ، وعن العقيدة السليمة ، وعن الوازع الخلقي والديني ؛ فإنَّ ضررها أكبر من نفعها . لذلك أصبحت التربية والتعليم في العالم الغربي ، وفنُّ القراءة والكتابة لا قيمة لها في ذاتها عند كثيرٍ من قادة الفكر ، وأئمة التربية والتعليم في العالم الغربي ، وأصبحت وسيلةً تقوَّم بقيمة نتائجها ، وأخلاق حملتها ، ودورهم في تكوين المجتمع وصيانته .

خضوع الجماهير للدِّعاية الساحرة للعلم المجرّد ، وتقديسهم الزائد للثقافة المطلقة :

إنَّ الدعاية الجبارة التي قامت في بلادنا الشرقية ، ونشطت لتمجيد التعليم ولفنِّ القراءة والكتابة بتعبيرٍ أصح ، وما ظهر من المبالغة والإسراف ، والخيال الشعري في قيمة الثقافة والتعليم العالي ، والتصوير البشع الذي صُورت به الأمية في كلِّ حالٍ ، والازدراء والسخرية بالأفراد الذين لم تمكنهم الفرص من تلقي التعليم الجامعي ، كلُّ ذلك أضفى على التربية والتعليم وعلى الثقافة نوعاً من القدسية والروحانية ، وجعل الناس يغضُّون النظر عن حقائق كثيرةٍ ، وعن عيوبٍ ومواضع ضعف في الطبقة المثقفة في بلادنا ، وأصبح كثيرٌ من المغرورين يفضِّلون المتعلم المجرم اللئيم على الأمي المستقيم الكريم ، ويفضِّلون العصر الذي انتشر فيه فنُّ القراءة والكتابة ، وانتشر التفسُّخ الخلقي ، والبلبلة الفكرية ، والتشكك في المقررات ، والمسلمات ، والحقائق ، والبديهيات ، وتشاغل الناس فيه بأنفسهم وأولادهم ، وفقدت الغيرة الدينية والخلقية ، وأصبحت المادة إله الجميع ، أصبح كثيرٌ من الناس يفضِّلون هذا العصر على جميع علاَّته على عصرٍ توفرت فيه جميع الفضائل الدينية والخلقية على قلَّة نسبة المتعلمين ، وندرة المثقفين ، وانحصار فنِّ القراءة والكتابة في نطاقٍ محدود ، وما ذلك إلا لخضوع هؤلاء لهذه الدعاية السطحية التي استخدمت لتهويل شأن التعليم والشهادات العلمية .

إنَّه تفكيرٌ سطحيٌّ يجب أن يترفع عنه أحرار الفكر ، وأصحاب الرسالة ، والمؤمنون بقيمة الأخلاق والأعمال الصَّالحة ، والمميزون بين الوسائل والغايات .

مصير الشعب الذي يتضخَّم فيه العلم على حساب العقيدة والخلق :

لقد أثبت التاريخ مرَّةً بعد مرَّةٍ : أنَّ الشعوب التي تتخذ الوسائل غاياتٍ ، والعلوم والفنون آلهةً تعبد ، ويقوى فيها النظر والجدل على حساب الخلق والعمل ، ويكثر فيها الافتتان بالفنون الجميلة ، وتضعف فيها الإرادة ، وقوَّة المقاومة للمغريات ، ووسائل الترفيه ، والتسلية ، وتضعف فيها الغيرة

والحمية ، وتعشق الحياة والملذات ، وتنتشر فيها البلبلة الفكرية ، وينتشر فيها التشكيك الشامل للعقائد ، والآداب ، والاستخفاف بجميع التقاليد والعادات ؛ التي كان فيها الشيء الكثير من القوّة والصَّلاح .

ويتطاول فيها الريب إلى مصادر الدين ومراجع التاريخ وإلى الشخصيات القديمة ، والحوادث التاريخية وإلى الأعراف والعادات ، يقود هذه الحملة فيها كبار الأساتذة ، وحذّاق الأدباء ، ونوابغ الباحثين ، وحملة الأقلام ، ومنشئو الصحف ، وينتشر هذا السمُّ في كلِّ طبقةٍ من طبقات الأمَّة ، ويتسرَّب إلى عقول الشباب ونفوسهم ، ويتغلغل في أحشائهم ، فإنَّ هذه الأمة لا تثبت أمام أيِّ عدوٍّ زاحفٍ ، أو قوَّةٍ مهاجمةٍ ، ولا تثبت في معركة يوماً واحداً ، وهذه قصَّة اليونان ، وقصة الرُّومان ، وما يوم النكبة في الشرق العربيِّ منا ببعيد .

لنكن واقعيين عمليين ، ولنقدر الحقائق :

فلنكن واقعيين ، ولنحكم على التعليم العالي ، وعلى الثقافة الغربية الحكم الصحيح الدقيق ، المؤسس على التجارب والحقائق ، ولا ننظر إليها كالدواء الوحيد ، ولا ندن لها بالعظمة والتقديس ، ولنضبطها بعناصر مقوِّمات تنفي عنها عوامل الضرر والإفساد ، ودواعي الزيغ والإلحاد ، والاتجاه الزائد إلى الميوعة والتحلل ، والاضطراب والتشكك في كلِّ شيءٍ ، ولنكيفها مع عناصر ثقافتنا وشخصيتنا الإسلامية ، وطبيعتنا العربية الشرقية ، ولنخضعها لرسالتنا العالمية الخالدة ، ومبادئنا ، ونجعلها جنداً من جنودها .

أساس كلِّ تفكيرٍ وتصميم : أنَّ الجزيرة العربية هي غرس محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام ، وثمرة دعوته وجهاده :

وأخيراً لا آخراً يجب أن لا نخطو خطوةً في سبيل التربية والتعليم ، وفي تصميم المدنية ، وفي سبيل أيِّ مخططاتٍ نضعها لهذه الجزيرة حتى نعرف ونذكر : أن هذه الجزيرة العربية التي نعيش فيها الآن ، ونتحدث عنها هي غرس محمَّدٍ ﷺ ، وثمرة دعوته وجهاده ، وله ولأصحابه وللمؤمنين بدعوته

وحدهم الحقُّ عليها ، فيجب أن يكون كلُّ شيءٍ يقوم في هذه الجزيرة ـ من تنظيماتٍ ، وتصميماتٍ ، ومخططاتٍ ، ومؤسساتٍ ـ معترفاً بهذا الحق ، خاضعاً لهذا الأصل ، عائشاً في هذا الظل ، وقد كان رسول الله ﷺ حريصاً كلَّ الحرص ، دقيقاً كل الدِّقة في أن تبقى هذه الجزيرة حصناً حصيناً للإسلام متماسكةً ، قويةً ، بعيدةً عن كل اصطراع ديني وفوضى فكرية ، فعن جابر بن عبد الله قال : أخبرني عمر بن الخطاب : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول[(١)] : « لأخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلَّا مسلماً » . وقال[(٢)] : « لا يجتمع دينان في جزيرة العرب » . وقد شملت هذه الوصية الحكيمة والتعليم العميق الدقيق إقصاء كلِّ عنصر يحدث في قلعة الإسلام وعاصمة محمد عليه الصلاة والسلام : الثورة ، والردَّة ، وعدم الثقة بفضل الإسلام ، وخلود رسالته ، وعمومها للإنسانية ، وانحصار السعادة في العمل بها ، والنجاة في قبولها ، والإيمان بها .

الجزيرة العربية عاصمة الإسلام ، وحصن الدعوة ، فلا مجال للأديان المختلفة ، والفلسفات الهدامة فيها :

و ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] وتاريخ الإسلام لا يعرف محاكم التفتيش ، ووسائل التعذيب التي امتازت بها القرون المظلمة في أوروبة ، ولكلِّ واحدٍ أن يختار لنفسه ما يحبُّ من الآراء والنظريات ، ولكن لا يسمح بنشر الفوضى وبذر بذور الشك والضعف ، وفقد الثقة بالمبادىء والأسس الإسلامية في هذه الجزيرة ؛ التي هي قلب الإسلام ، ولا يؤذن بنشر الدعاية للقوى المعادية ، والمنافسة ، وللمعسكرات الأجنبية في عاصمة الإسلام ، وفي حصن الدعوة ، وفي ثكنة الجيش الإسلامي ، فمن لم تطب نفسه ، ولم ينشرح صدره للعقيدة الإسلامية ، ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وإمامته الخالدة العالمية وفضل تعاليمه ، ومن آمن بالفلسفات الأجنبية ، واقتنع بها ،

---

(١) رواه مسلم .
(٢) عن ابن شهاب مرسلاً .

وتحمس لها ، فليس له محل في الحقيقة في هذه الجزيرة ، ولا يجوز أن تتاح له الفرص ، وتهيَّأ له الوسائل في توجيه العقول ، وتربية النفوس ، ولا يصحُّ مطلقاً أن تقدم له أفلاذ أكباد هذه الجزيرة وخيرة شبابها ليصنع من هذه الفطر السليمة ، التي هي من أكرم ذخائر العالم الإسلامي ، وأنفس ثرواته ، وأكثرها استعداداً للنبوغ ، مصنوعاتٍ لا تنسجم مع العقيدة والدعوة التي قامت عليها ، وعاشت لها هذه الجزيرة منذ أكثر من ألف سنة ، والتي لا يزال العالم الإسلامي متطلعاً إليها ، متشوقاً لها ، بل لا يزال العالم الإنسانيُّ كلُّه مفتقراً إليها ، مقدِّراً لها كلَّ التقدير .

هذه خواطر ومشاعر أملاها الإخلاص لهذه الجزيرة والحبُّ لإخواننا العرب الذي أصبح جزءاً من أجزاء الإيمان ، نابعاً من قرارة الضمير والوجدان ، وإني أطلب العفو والصفح الجميل ، إذا كان في هذه الكلمة صراحةٌ بلغت حدَّ المرارة ، وأساءت بعض الإساءة إلى شعور السَّادة الأجلاء الذين بذلوا جهودهم ولا يزالون في سبيل توجيه التربية ، التوجيه الإسلامي وإنهاض هذه الجزيرة علمياً وثقافياً ، ولا يدَّخرون في ذلك جهداً ، فالنقد سهلٌ والعمل صعبٌ ، والتوجيه ميسورٌ ، والتطبيق عسير ، ولهم من صاحب الحديث كلَّ احترامٍ ، وتقديرٍ ، واعترافٍ بالفضل الكبير .

نسأل الله جاهدين مخلصين أن يبارك هذه المساعي ويسدِّد الخطى ، ويحقِّق المقاصد والآمال ، وتعيش هذه البلاد دائماً في ظلِّ الإيمان والإسلام ، والأمن والسلام .

* * *

خطوط عريضة
لجامعةٍ للدعوة والإرشاد[١]

فكرة الجامعة الإسلامية ومشروعها :

لقد كانت فكرة الجامعة الإسلامية فكرةً جليلةً جاءت في أوانها، وهي تملأ فراغاً عظيماً ، كان عقلاء العالم الإسلامي ، ورجال التعليم والتربية الإسلامية يشعرون به من مدَّةٍ طويلةٍ ، وقد حدَّث بها المحدثون في أوقات مختلفة ، وقد قيَّض الله لها الحكومة السعودية ، فكانت مأثرةً من مآثرها الجليلة الكثيرة ؛ التي يسجِّلها التاريخ ، ويذكرها المؤرخون في المستقبل بإجلالٍ وتقدير .

ولقد كان لقيامها في المدينة المنورة صدىً في أنحاء العالم الإسلامي ما سمع لمشروعٍ آخر منذ زمنٍ طويل ، وتلقَّى المسلمون هذا النبأ بتفاؤلٍ عظيمٍ ، واستبشروا به ، وعلَّقوا به آمالاً جساماً ، ولذلك عظم خطر هذه المؤسسة ، وعظمت مسؤولية القائمين بها ؛ إذ أصبح العالم الإسلاميُّ لا يطيق ، ولا يسيغ إخفاقاً جديداً لمشروعٍ جديدٍ ؛ لكثرة ما تحمل من النكبات ، وبكثرة ما مني به من إخفاق المشروعات ، وخصوصاً إذا توفرت الوسائل لتحقيق هذا المشروع ، وقامت به حكومة من أغنى الحكومات الإسلامية ـ والحمد لله ـ فلنتق الله في هذا العالم المرهق والمثخن بالجراحات ، ولا نمتحنه برزيئةٍ جديدةٍ وخيبة أملٍ جديد .

---

(١) مذكرة قدمها العلامة الندوي في اجتماع المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة المنعقد في المدينة المنورة في ٢٢ ذي الحجة ١٣٨١هـ ، ثم نُشرت في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثاني ، المجلد السابع ، عام ١٩٦٢م .

تحديد الهدف :

لا بدَّ من تحديد هدف لهذه الجامعة ، فالجامعات في العالم الإسلامي كثيرةٌ ، وقديمةٌ ، وكبيرةٌ ، فلا بدَّ لهذه الجامعة الوليدة من ميزةٍ تمتاز بها ، وشعارٍ يميزها بين شقيقاتها .

وهدف الجامعة الإسلامية يتلخَّص عندي في جملةٍ واحدةٍ ، وهي تخريج الدُّعاة إلى الله ، القائمين بالدَّعوة في فقهٍ ، وبصيرةٍ ، وتعمقٍ ، وهي تستدعي الرسوخ في العلم والدين ، والاطلاع على ما تجدَّد ويتجدَّد في هذا العصر الجديد ، والإيمان الجديد بخلود رسالة الإسلام وصلاحيتها لكلِّ زمانٍ ومكانٍ ، واقتناعه بأنَّ محمداً ﷺ هو خاتم الرسل ، ومنير السبل ، وإمام الكل ، وإذا ملأت هذه الجامعة هذا الفراغ بإذن الله ؛ قامت بعملٍ تجديديٍّ عظيمٍ تشتدُّ حاجة المسلمين إليه .

ويجب أن يكون هذا الهدف نقطةً يدور حولها نظامها ، ومناهج دراستها ، ويقوم عليها جهازها العظيم ، ويخضع كلُّ شيءٍ في هذه المؤسسة من كتبٍ ونظمٍ وأساتذةٍ لهذا الهدف .

والآن أحبُّ أن أتكلَّم عن وسائل تحقيق هذه الفكرة في شيءٍ من التفصيل ، وأحرص بقدر الإمكان على طرقٍ إيجابيةٍ عمليةٍ .

المواد الدراسية الأساسية :

يجب أن يكون من الموادِّ الدراسية الأساسية الكتابُ والسنَّة والسيرةُ النبويَّة .

أما القرآن فيجب أن يدرَّس كالكتاب المعجز الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، بطريقةٍ يؤمن بها الطالب بخلود هذا الكتاب العظيم ، وإعجازه ، وبكونه المفتاح الرئيسي لأقفال الحياة ، وتكون عقيدته وهتافه ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٦] ولا يؤمن به مجرَّد إيمانٍ ، بل يتذوَّقه ، ويمتلىء بحبه حتى يملك عليه ذلك

مشاعره وتفكيره ، فهو الكتاب الوحيد الذي يرافقه في رحلته الطويلة المعقدة ، وهو الذي يفتح به كلَّ قفل ، ويحلُّ به كلَّ مشكلة ، وينتصر به على كلِّ معارضةٍ ، وبمقدار تذوُّقه والتضلُّع منه ، والنزول في أعماقه ، ومقدار إيمانه به ، وثقته ، واستحضاره له يستطيع أن يؤدي مهمته ، ويتغلَّب على الصعوبات .

وينوَّه في تدريس القرآن بصفةٍ خاصَّةٍ بعقيدة التوحيد النقية الخالصة ، ويجب أن يكون أساس علم التوحيد ، وشرح العقيدة الإسلامية ، والبحث في الذات والصفات ، كما شرحه الرسول ﷺ ، وفهمه الصحابة والتابعون لهم بإحسان . وليس هناك طريقةٌ أفضل وأقرب إلى الفطرة السليمة ، وأسهل فهماً وأشدَّ تأثيراً في العقول ـ عقول كلِّ عصر ـ من طريق القرآن ، بحيث يرجع الطالب إلى بلاده وبيئته ـ وهي بيئةٌ موبوءةٌ في أكثر الأحوال بالعقائد ذات الصلة بالشرك وعادات جاهلية ـ داعيةً إلى التوحيد النقي صارخاً ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر : ٣] وليس ما يسمِّيه الناس بعلم التوحيد والكلام ، ووضعوا فيه كتباً طوالاً تكونت بها هذه المكتبة العظيمة في علم الكلام ، أوفى بالمقصود ، وأوقع في النفوس ، وأنفى للشكِّ ، وأدعى إلى اليقين والإيمان ، وأشرح للصدور من علم العقيدة الذي يتضمنه القرآن ، ويقرِّره في أسلوبه السائغ الواضح ؛ الذي تقبله الفطر السليمة ، والعقول المستقيمة في كلِّ عصرٍ وجيل ، فيجب على الأستاذ أن يجعل القرآن أساساً وقاعدةً لشرح العقيدة الإسلامية ، فمنه يستقي ، وإليه يرجع ، وأسلوبه يقلد ، ولا يستطيع أن يقوم لهذا العمل إلا أستاذ قد تذوَّق القرآن ، وأصبح له شعاراً ودثاراً ، وكان له بهذا الكتاب صلةٌ قويةٌ عميقةٌ ، صلةٌ شخصيةٌ لا تعتمد على الكتاب والدراسات وحدها ، وليست صلة دارس للكتاب ، بل صلة رجل يعيش بهذا الكتاب ، وفي هذا الكتاب .

ثم السنَّة يجب أن تدرَّس بطريقةٍ يؤمن بها الطالب بقيمتها العملية ، وتوجيهها للحياة ، وتنظيم المجتمع الإنساني على أسسٍ إيمانية جديدةٍ ، وتكون العناية بنواحيها الخلقية والاجتماعية ، وتكون السيرة وتربية النفوس

ووصلها بالله أبرز من ناحيتها الفقهية ، وهي ناحية مهمَّةٌ لاشكَّ ، ولكن لا ينبغي أن يكون البحث في المسائل الخلافية على حساب موضوعها ، ورسالتها ، وهي تزكية النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، والإقبال من الآخرة ، والزهد في حطام الدنيا ، والرغبة في العبادة ، وأن ينشأ الطالب على حبِّ الاقتداء برسول الله ﷺ ، ويتبع سنّته في الحياة كلِّها ، لا في قضايا معدودةٍ اختلف فيها الأئمة والمجتهدون ، واختلفت فيها الأحاديث والروايات .

ويجب أن تراعى الشبهات التي وجِّهت إلى مكانة السنّة في الشريعة الإسلامية ، وحجِّية الحديث ، وتاريخ تدوينه ، وما أثاره ويثيره المستشرقون بين حينٍ وآخر من أسئلةٍ ومناقشاتٍ سوف يواجهها المتخرجون في هذه الجامعة ، والدعاة إلى الله ، والعاملون في الحقل الإسلامي ، ويجب أن يكون على بينةٍ من أمره ، وثقة بهذه المؤسسة العظيمة التي تنبثق من كتب السنة ، ومكتبة الحديث .

ويجب أن يتخرَّج الطالب من هذه الجامعة واسع الصدر ، رحب الذراع ، ميالًا إلى جمع كلمة المسلمين ، ولمِّ شتاتهم ، ويقصر الفجوة بين المذاهب وأهلها ، حسن الظن بالأئمة المجتهدين والسلف المتقدمين ، كارهاً بعيداً عن توسيع الفجوة بين طوائف هذه الأمة وطبقاتها ، وبين الماضي والحاضر ، غير مثير للضغائن والأحقاد القديمة ، والأمة لا تطيق اختلافاً جديداً ، وإثارةً للدفائن ، وما عفاه الدهر .

أما السيرة النبوية فيجب أن تكون من المواد الدراسية الرئيسية ؛ إذ هي من أقوى العوامل لتكوين السيرة ، وتكوين الإيمان بعظمة الرسول ﷺ ، والباعث على حبه ، فيجب الإكثار من هذه المادة ، ويجب أن يعيش الطالب مع أستاذه أو أساتذته في هذه البيئة وفي هذا الجو ، ووجود هذه الجامعة في مدينة الرسول ﷺ وفي جواره الكريم يوجب التضلُّع ، والتأثُّر العميق بهذه المادة ، ويجب أن يكون تدريس السيرة أو دراستها بطريقةٍ مؤثِّرةٍ موفقةٍ حيَّةٍ ، لا تنقل هذه السيرة إلى الطالب ، بل ينقل الطالب إليها ، وإلى أجوائها ، حتى يشعر أنَّه يعيش مع الرسول ﷺ وأصحابه في عصره ، ويمتلىء حباً بهذه الشخصية

الفريدة ، وإجلالاً لها ، ويؤثرها على نفسه ، وعلى كل شخصية عرفها ، وأحبها من الشخصيات القديمة أو المعاصرة ، ويحسن أن تكون سيرة ابن هشام من المواد الدراسية ، ويحث على مطالعتها ، والاشتغال بها ، والتضلُّع منها .

وفي هذه الناحية يشار إلى شكوكٍ وأسئلةٍ أثارها المستشرقون ، وإلى دسائسهم ، وتوضيح سوء نيتهم ، وضعف مأخذهم ، وقلَّة علمهم ، وتعمُّدهم للتشكيك والاختلاق ، وإخفاء الحقِّ والتلبيس ، ويناقشون مناقشةً علميةً قويةً مؤسسةً على الدليل والبرهان ، قائمةً على أساس التاريخ ، والعلم الحديث ، ويبرز في السيرة النبوية مواقع العظمة الإنسانية ، وجوانب الإعجاز والعبقرية ، وصلاحية هذه الشخصية الكريمة لتكون قدوةً لجميع الأجيال ، وأسوةً حسنةً لجميع طبقاتها ، وأفرادها ، والشخصية التي لا تسعد البشرية ، ولا تتزن الحياة ، ولا يقوم المجتمع الصالح إلا بالاقتداء بها ، واتخاذها إماماً ورائداً .

ويلي هذه المواد الدراسية الأساسية فلسفة التشريع الإسلامي ، وحكم الشريعة ، وأسرارها ، ومقاصدها على أساسٍ يخلو من التقليد والتطرُّف على منهاج حجَّة الله البالغة للإمام أحمد بن عبد الرحيم الدَّهلوي ، مع مراعاة تطور العصر الحديث ، وما جدَّ فيه من نظرياتٍ ، وفلسفاتٍ ، وإتساع دائرة البحث والتفكير فيه ، حتى شملت الحياة كلَّها ، وتناولت العلوم كلَّها .

ويليه كذلك علم الفقه وأصول الفقه ، فالذي أراه : أنَّه لا غنى عن تدريس المذاهب الأربعة ، واختيار الكتب أو كتاب يعتمد عليه في ذلك المذهب ، فإذا تخرَّج الطالب في هذه الجامعة جاهلاً بمذهبه ، ومذهب المجتمع الذي سيعيش فيه ، ويقوم بدعوته في تلك البيئة ؛ لم يحسن القيام بأعباء الدَّعوة ، ولم يكن بينه وبين بيئته اتصالٌ يمكنه من النفوذ فيه ، وإحراز ثقته ، ولكن لا بدَّ أن يكون تدريس هذه المذاهب بروح التسامح ، والميل للتوفيق ، واتساع أفق الفكر ، وحسن التعليل للمذاهب الأخرى .

المواد الأخرى

الأدب العربي :

ولا تجوز الاستهانة في هذه الجامعة التي ستخرج الدُّعاة بقيمة الأدب العربي ، ولا يجوز الاقتصار فيه على مستوى ضعيف ، ومجرد مشاركةٍ أو إلمام ، فما زال الأدب ، ولا يزال أقوى عامل للهدم والبناء ، وغرس الفكرة واقتلاعها من النفوس ، وقد كان الدعاة إلى الله من عهد سيدنا عليٍّ بن أبي طالب إلى الحسن البصري ، إلى الغزالي وابن الجوزي ، إلى من نبغ منهم في الماضي القريب من الطبقة الأولى في البلاغة ، والتعبير ، وحسن الأداء ، وقوة التأثير ، بل كان كثيرٌ منهم أصحاب أساليب ومدارس أدبيةٍ ، ومن أئمة البيان ، وقد كانت ـ ولا شكَّ ـ مكانتهم الأدبية ، وسليقتهم العربية من أقوى جنود الدَّعوة ، وأسباب الانتصار والانتشار لفكرتهم ، وقد استغلَّ الأدبَ في هذا العصر قومٌ لإهدار القيم الخلقية ، وغرس الشكِّ والنفاق في النفوس والمجتمع ، وتزيين الفحشاء والمنكر ، ونشر الأفكار الزائفة ، والفلسفات الهدَّامة ، ولا يقاوم ذلك ، ولا يقوم في وجهه إلا أدبٌ قويٌّ دافقٌ بالحياة ، وكتابةٌ أصيلةٌ مشرقة الديباجة ، وأسلوبٌ من أحدث الأساليب وأقواها ، ولا يتأتَّى ذلك إلا بالتضلُّع من الأدب القديم ومصادره ، ونقد الأساليب الجديدة ، والاطلاع الواسع عليها ، والممارسة للكتابة والإنشاء ، ولا بدَّ لذلك من توجيه أساتذة لهم مكانتهم في الأدب القديم والحديث ، ويعدُّون في طليعة الأدباء والمنشئين الناقدين ، وهي حاجةٌ من أهم حاجات جامعةٍ إسلاميةٍ تقوم على أساس الدعوة والتوجيه ، وقد أصبح الأدب أشدَّ تأثيراً في العقول والاتجاهات من الفلسفة وعلوم الطبيعة ، وقد تمالأ مع الإلحاد ، وأصبح من أكبر أنصاره ورائديه ، فلا بدَّ من أن تواجه النار بالنار ، وتقابل الريح بالإعصار ، ويضرب الأدب الملحد المتحلل بالأدب الإسلامي القويِّ المؤثر ، وقد جنى على الدعوة والدعاة ضعف التعبير والكتابة البعيدة عن التأثير ، وأفقدها كثيراً من الواقع في النفوس ، والسيطرة على العقول .

العلوم العصرية الجديدة :

ولا بدَّ لأبناء هذه الجامعة ومتخرجيها من الاطلاع على العلوم العصرية ، كعلم الاقتصاد ، والسياسة ، ولبعض العلوم الطبيعية ، والجغرافية ، والتاريخ إذا لم يصل إلى درجة اطلاع الإمام الغزالي ، وشيخ الإسلام ابن تيمية على العلوم العقلية التي شاعت في عصرهم ، فلا بدَّ أن يكون في درجة اطلاع القساوسة والمبشرين والمتخرجين في كلية القسس في (الفاتيكان) والذي يجهل هذه العلوم ، أو لا يرتقي فيها على درجة العوام والسوقة لا يقوم بمهمته ، ولا يتمتَّع بالثقة والاحترام في المجتمع .

الحاجة إلى مجمع علمي إسلاميّ :

وكان الأمثل أن يكوَّن مجمعٌ علمي إسلاميٌّ يؤلف في هذه العلوم كتباً تجمع بين جدَّة الاطلاع ، وغزارة المادة ، ومتانة البحث ، وبين إثبات العقيدة الإسلامية ، والتوفيق بين العلم والدين ، ولكن فاتنا وفات الحكومات الإسلامية هذا الإنتاج العلمي ؛ الذي كان المجتمع الإسلامي وجيلنا الجديد في أشدِّ الحاجة إليه ، وكان ذلك وحده يجنبنا الصراع بين العلم والدين الذي أصبح العالم المسيحي فريسةً له ، وكان من أعظم أسباب انتشار الإلحاد ، واتجاه العالم المعاصر إلى الثورة على الدين ، وعدم الثقة به ، وبوسع الحكومة السعودية إذا صحَّ عزمها ، وتيسَّر لها الرجال الأكفاء أن تملأ هذا الفراغ الذي يشعر به رجال الفكر والدعوة في العالم الإسلامي ؛ القائمون على المؤسسات العلمية والتعليمية في مختلف أنحائه .

أساتذة مؤمنون :

ولكننا إذا فاتنا هذا العمل الجليل في الماضي ، ولا نستطيع أن نوقف عملية التربية ، ونعطل جهاز التعليم ، فيمكن أن يتدارك ذلك إلى حدٍّ ما باختيار أساتذة يجمعون بين متانة العقيدة والاقتناع بالإسلام ، كدينٍ خالدٍ أبديٍّ ، وبين الاطلاع الواسع العميق على العلم الحديث ، هؤلاء الذين

يميِّزون بين القشر واللباب ، والزائف الفجِّ غير الناضج والنظريات وبين المختمر الناضج الحصيف من الآراء والتجارب ؛ الذين لا تغرُّهم الدعاوي العريضة ، والطبول الفارغة ، بل يعتمدون دائماً على حصيلة الاختبارات ، وعصيرة التفكير ؛ الذين ما زادهم التوسُّع في الدراسات ، والتفنن في العلوم ، والاحتكاك بالحضارة الغربية إلا إيماناً بالحقائق الغيبية ، والتعاليم الإسلامية ، إنَّهم القليلون في العالم الإسلامي ، ولكنهم غير مفقودين ، أولئك الذين إذا درسوا هذه العلوم العصرية الحديثة والنظم السائدة ؛ كوَّنوا في نفوس الشباب ثقةً جديدةً ، وإيماناً جديداً بصدق نبوة محمدٍ ﷺ ، وخلود الرسالة الإسلامية ، وعبقرية الشريعة السماوية ، وما أحوجنا ، وما أحوج هذه الجامعة إلى هذا الضرب من العلماء ، وما أحسن أثرهم على شباب الجامعة ، وما أعظم دورهم الذي يمثلونه في تكوين العقلية الجديدة ، وتكوين الجيل الإسلاميِّ الجديد .

تاريخ الجاهلية والإسلام :

ومن أهمِّ مواد هذه الجامعة الدراسية دراسة التاريخ ، ولا أعني به هذه القائمة العقيمة للأحداث ، ووفيات الرجال ، وتقلبات الحكومات ، إنما أعني به تاريخ الديانات ، وتاريخ المجتمع البشري ، وتاريخ التطور الفكري والخلقي ، وتاريخ الجاهلية بأوسع معانيها وأوسع مساحتها ، وتاريخ البعثة المحمدية ، وما أحدثت من انقلابٍ وثورةٍ في المجتمع ، وثورةٍ في المفاهيم والقيم والاتجاهات ، وما أضافت إلى الثروة الإنسانية ، وما فعلت من المحو والإثبات ، وتاريخ المدِّ والجزر في تأثير الإسلام وسيطرته ، وما سبب من سعادةٍ وشقاءٍ ونهضةٍ كبيرةٍ ، وما عاد على الإنسانية والمجتمع البشري بسبب قيادة الإسلام من الخير الكثير ، وما آل إليه العالم بزوال قيادته من الشقاء الطويل والويل الكبير ، هذا التاريخ الذي يجعل شبابنا الواعي يفكِّر في الجهاد لإنهاض المسلمين ، وإعادة الإسلام إلى مركزه في قيادة العالم .

تاريخ الدعوة والإصلاح :

وكذلك يحتاج أبناء هذه الجامعة ـ وهم أفلاذ أكباد الشعوب الإسلامية ـ إلى معرفة تاريخ الدعوة والتجديد في العالم الإسلامي ، حتى يكونوا على ثقةٍ بأنَّ الإسلام هو الدين المختار ، وآخر الرسالات التي لم تضع ، ولم تبتلعها الجاهلية في مختلف عصورها ، وإنه لم يزل يقاوم التيارات المعاكسة ، ويتغلَّب عليها ، ويثبت حياته وقوته ، ويحملهم هذا الرصيد التاريخي على الاختبار والمغامرة ، واستعمال مواهبهم وإثارتها ، وليسيروا في ضوء هذه التجارب إلى الغاية المنشودة التي قامت هذه الجامعة لأجلها ، وهي تخريج الدعاة إلى الله الربانيين ؛ الذين ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

هذه خطوطٌ عريضة أيها السادة ! لجامعةٍ تقوم على أساسٍ جديدٍ ، وإن كان أساساً قديماً ، وهو أساس الربانية والدعوة إلى الله .

حقل الدعوة العملية :

ولا يقتصر مع أبناء هذه الجامعة على الدراسات والعكوف على المطالعة والحياة بين الكتب وحدها ، بل يخرج بهم أساتذتهم إلى حقل الدعوة العملية ، وإلى أوساط المجتمع ، أو تتاح لهم فرص التجوُّل مع الدعاة المخلصين ، والعلماء الربانيين في بلدهم ، وفي الخارج ، حتى يجربوا الدعوة الإسلامية ومشكلاتها ، ويعرفوا ما وصل إليه المجتمع الإسلاميُّ والشعوب المسلمة من الجهل والغفلة من الدين ، والانغماس في الحياة وتكاليفها ، ويسهل لهم التقشف في الحياة والبساطة في المعيشة ، وينشؤوا على حبِّ العبادة ، واتِّباع السنة في حياتهم العملية ، ولا يعيشوا في عزلةٍ عن الحياة الواقعية ، وعن صميم الحياة ، ولا يعيشوا في البرج العاجيِّ ، وفي عالم الأحلام والأوهام والنظريات العلمية فحسب .

ومفتاح المفاتيح في هذه الجامعة وجود أساتذةٍ يجمعون بين الإيمان القويِّ الراسخ والعلم العميق الواسع ، ويجمعون بين القدوة الصالحة وبين

دراساتٍ واسعةٍ ، يتضلَّعون من القديم ، ويفهمون روح العصر الحديث ، ومشكلات الشباب ، ونفسيتهم ، وطريق حلِّها ، متصلبون في الأصول ، متوسطون في الفروع ، يتورَّعون في دينهم عن المداهنة ، وفي العلوم عن الجمود ، وضيق التفكير ، أخذوا من القديم الرسوخ والتبحر في العلم ، ومن الجديد الاستطلاع وحب الواقعية ، أولئك يندر وجودهم ، ولكن لا يخلو منهم العالم الإسلاميُّ ، فإن وجدت الشخصيات الجامعة ؛ فأنعم بها ، وأكرم ، وإلا يوجد أفراد يسند بعضهم بعضاً ، ويكونون المجموعة المطلوبة ، ويكوّنون بجوانبهم المشرقة هذا المجمع العلمي الذي يسير بهذه الجامعة إلى الأمام ، ويخرج منها شباباً يقومون بأعباء الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم .

* * *

أهمية نظام التربية والتعليم في الأقطار الإسلامية وأثره البعيد في اتجاهاتها وقياداتها[1]

إنَّ الحقيقة النفسية التاريخية التي لا يمكن إنكارها ، أو تجاهلها ، هو إمكان وجود أفرادٍ في المجتمع الإسلاميِّ لم تنشرح صدورهم للعقيدة التي يقوم عليها هذا المجتمع ، ولم يؤمنوا بالحقائق والمبادىء التي يؤمن بها ، والأهداف والمثل التي يعيش لها .

وتلك طبيعة كلِّ مجتمعٍ يقوم على أساس عقيدةٍ معينةٍ ،وحدودٍ مرسومةٍ واضحةٍ ، إذا تخطَّاها فردٌ من أفراد هذا المجتمع أو الجماعة ؛ اعتبر خارجاً من دائرته ، أو ثائراً عليها ، وفقد جميع الحقوق والامتيازات التي كان يتمتع بها ، خلافاً للجنسيات والقوميات التي تفتح صدرها لكلِّ عقيدةٍ ، وخلقٍ ، وتصرُّفٍ بشرط ألا يغير صاحبه جنسيته ، أو قوميته ، ولا تصدر منه خيانةٌ لأمته ، وحكومته .

وتتضخَّم هذه المشكلة ، وتتضاعف أخطارها ، وأضرارها ، وتتضخم مسؤولية القائمين على هذا المجتمع ، الحريصين على وحدته وسلامته ، وحياته وقوته ، إذا ألحَّ هذا العنصر ـ الذي لم يخلص لهذه العقيدة التي قام عليها هذا المجتمع ، أو لم يسغها . . . أو لفظها بعد ما أساغها لأيِّ سببٍ من الأسباب ـ ألحَّ هذا العنصر على البقاء في إطار هذا المجتمع المؤمن ، كجزءٍ من أجزائه ، وربط مصيره بمصيره لمصلحةٍ من المصالح ، أو لاضطراره إلى

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها السادس والسابع ، المجلد العشرون ، عام ١٩٧٥م .

ذلك ، من غير أن يذيب نفسه في حرارته ، ويصهرها في بوتقته ، ومن غير أن يقتنع بما يقوم عليه هذا المجتمع من عقائد ومبادىء ، وخصائص ومقومات ، ويؤمن بها بإخلاصٍ وفي حماسٍ ، ونجح في ذلك بذكائه ، أو بغفلةٍ من القائمين على هذا المجتمع ، ولم يفطن له .

وهو أشدُّ خطراً ، وأعمق أثراً من « الردَّة » التي يفارق بها صاحبها مجتمعه الذي ولد ونشأ فيه ، أو الدِّين والعقيدة التي آمن بها ، أو خُيِّل أنه آمن بها بحكم الوراثة ، أو النشأة ، أو البيئة .

وتتعقد هذه المشكلة حين ينجح هذا العنصر بلباقته ، أو مقدرته في إحراز الثقة من هذا المجتمع ، والسيطرة عليه ، وتملُّك زمامه ، فيتبوَّأ منصب الحكم ، أو منصب القيادة والتوجيه ، هنالك يرغم هذا المجتمع على أن ينحو نحواً لا يحبه ، أو لا يتحمَّس له ، بل يعتبره في بعض الأحيان مروقاً من الدين ، أو الثورة على المبادىء والمثل العليا التي يؤمن بها ، وقد يساق إلى الغايات التي يعتبرها منافيةً لدينه وعقيدته ، كما تساق القطعان من الغنم أو البقر ، ويعيش في صراعٍ نفسيٍّ عميقٍ من أعنف أنواع الصراع الذي عرفه تاريخ البشرية ، وتاريخ الأخلاق وعلوم النفس ، وتاريخ الديانات والمذاهب ، فلا هو حيٌّ يتمتَّع بالحياة وحريتها ونعيمها ولا هو ميت قد استراح وهدأ .

وبتأثير هذه القيادة التي لا تتفق مع عقيدة هذا المجتمع وطبيعته ، بل تحاربها وتنسفها نسفاً ، تنتشر الردَّة العقائدية بمعناها الواسع ، فيمرق عددٌ كبيرٌ ممن ليست عندهم حصانةٌ خلقيةٌ نفسيةٌ ، أو شحنةٌ إيمانيةٌ روحيَّةٌ ، أو قوةٌ علميَّةٌ فكريَّةٌ ، وعددٌ كبيرٌ من عباد الأموال والمناصب ، والعز والفخار ، ومن « الانتهازيين » .

أو ينتشر النفاق انتشاراً فظيعاً ، فيضعف قوة هذا المجتمع ، وينخر هيكله ، وينتشر المكر ، وتكثر المؤامرات ، ويفشو الغدر والخيانة ، ويهون بيع الضمائر ، وبيع المقدسات والأمجاد ، وأراضي البلاد بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودة ، ويكثر الخونة ، وصنائع العدو ووكلاؤه ، وخدمة مصالحه كثرةً فاحشةً ، لا يوجد لها نظير في المجتمعات البشرية ؛ التي لا تمتحن بمثل هذه

المحنة . وليست بين هذه المجتمعات وبين قياداتها هوةٌ عميقةٌ واسعةٌ ، عقائديةٌ أو مبدئيةٌ .

ويعجز هذا المجتمع عن مقاومة أيِّ عدوٍّ مهاجم ، أو خطرٍ داهم ، للبلبلة الفكرية التي يعانيها ، والصراع النفسي الذي يقاسيه ، ولكره عددٍ كبيرٍ لهذه القيادات ، وعدم تحمسه ـ بطبيعة الحال ـ للشعارات التي تهتف بها هذه القيادات ، والغايات التي تقاتل في سبيلها هذه الزعامات أو الحكومات ، وذلك كلُّه من طبيعة الأشياء ، ومنطق الواقع ، وخصائص النفس الإنسانية يشهد له التاريخ القديم ، ويشهد له التاريخ المعاصر في المناطق التي لم تذق لذة الحبِّ للقادة والزعماء ، أو الحكام والأمراء ، ولم يكن هناك انسجامٌ عاطفيٌّ ، أو تجاوب فكريٌّ بين الشعب والقيادة .

وقد واجه المجتمع الإسلاميُّ الذي قام على أساس الدَّعوة الإسلامية ، وفي أحضان الرسالة المحمدية ، هذا الواقع الطبيعي التاريخي الذي لا مفرَّ منه لأيِّ جماعةٍ تقوم على أساس الإيمان والعقيدة ، والديانة ، والتقوى ، والدَّعوة ، والجهاد ، وإنما تظهر بادرة « النفاق » في بيئةٍ تجمع بين دعوتين متنافستين ، وقيادتين متقابلتين ، مهما كانت النسبة بينهما بعيدةً في الضعف والقوة ، والقلَّة والكثرة ، هنالك يوجد عنصرٌ مضطربٌ يتأرجح أولًا بين هاتين الدَّعوتين ، ويتردَّد في إيثار إحداهما على الأخرى ، ثم ينحاز إلى دعوةٍ فيكون في معسكرها ، ويعطيها ولاءه وحبَّه العاطفي ، إلا أنَّ مصالحه المادية ، وانتشار هذه الدعوة المقابلة ، وانتصارها لا يسمح له بإعلان موقفه والانضواء إلى الدَّعوة الأولى ، وقطعه للحبال التي تربطه بالدعوة المقابلة ، وذلك ما عبَّر الله عنه بقوله : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النساء : ١٤٣] وبقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ [الحج : ١١] .

لذلك لم يكن ـ كما يرجح أكثر المفسرين ـ نفاقٌ في مكة ؛ لأنَّ الإسلام كان هنالك مغلوباً على أمره ؛ لا يملك حولًا ، ولا طولًا ، ولا يملك لأحدٍ نفعاً ولا ضراً ، ولم تكن هنالك قوتان متماثلتان ، إنَّما كان المشركون الأقوياء

القاهرون ، والمؤمنون المضطهدون المستضعفون ، يخافون أن يتخطَّفهم الناس ، فلما انتقل الإسلام إلى المدينة ، وقام المجتمع الإسلامي بجميع لوازمه ؛ نجم النفاق ، ورفع رأسه ، وكانت ظاهرة طبعية نفسية لا بدَّ منها .

ولكن وجود الرسول ﷺ ، واستمرار الوحي قد أمَّن هذا المجتمع الوليد من غائلة هؤلاء المنافقين ، ففضحهم القرآن في عدَّة مواضع منه ، وأزاح الستار عنهم ، وعرفهم المسلمون في الغالب ، وكرهوهم كرهاً شديداً ، ولفظهم المجتمع ، فلم يستطيعوا أن يتسرَّبوا فيه ، ويندمجوا ، فضلاً عن أن يحرزوا ثقةً واحتراماً ، أو يتبؤوا قيادةً ورئاسةً ، وبقي المجتمع الإسلامي الأول صحيحاً وسليماً لم يضعفه النفاق ، ولم يعبث به المنافقون ، وضعف شأنهم ، حتى اعتقد كثيرٌ من الصحابة : أنهم انقرضوا ، وأن لا نفاق بعد النبي ﷺ ، وكان منهم بعض كبار الصحابة .

ولكنَّ النفاق كان ، ولا يزال خصيصةً من خصائص الإنسانية ، ونقطة ضعفٍ في كثيرٍ من النفوس البشرية ، فهو يساير الركب البشريَّ في جميع مراحله ومنازله ، ويرفع عقيرته إذا وجد مجالًا ومتسعاً ، وقد هيأت بعض الظروف التي لا مجال لتفصيلها في هذا الحديث لنشاطه ، ونفوذه ، ولظهوره على مسرح الحكم والإدارة ، والقوة الحربية ، والجهاز الحكوميِّ ، وفي السوق والمنتديات ، والعلم والشعر والأدب في العهد الذي كان الإسلام فيه زاحفاً مقتحماً ، فاتحاً غانماً ، حاكماً مالكاً ، واقترنت بالدخول فيه والظهور بمظهره فوائد سياسيةٌ ، واجتماعيةٌ ، واقتصاديةٌ ، هنالك برز النفاق في الميدان . وتبوَّأ كثيرٌ من أصحابه مراكز رئيسيةً حساسةً في حدود الدولة الإسلامية الواسعة ، وكان منهم من استطاع أن يفرض نفسه على هذه الدولة الناشئة بمهارته في بعض الفنون والصناعات ، أو بفضلٍ من ذكاءٍ وتفوُّقٍ في العلم ، فكان منهم كبار الإداريين ، وقادة الجيوش ، وكبار الكتَّاب والأعوان .

وفي مثل هذه الظروف سئل سيد التابعين الإمام الحسن البصري عن وجود النفاق والمنافقين، والدولة للإسلام والمسلمين، فأجاب بالإيجاب، ولم يثبت

وجودهم فحسب ، بل أعلن أنَّهم في قوةٍ وشوكة ، وفي موقف نفوذٍ وتأثير ، قال له رجل : يا أبا سعيد ! اليوم نفاق ؟ قال : لو خرجوا من أزقة البصرة لاستوحشتم فيها ، وقال مرة : لو خرجوا لما انتصفتم من عدوكم ، وقال في مناسبةٍ أخرى : يا سبحان الله ! ما لقيت هذه الأمة من منافق قهرها واستأثر عليها(١) .

وبقي هذا النفاق يعمل عمله ويثبت وجوده في المجتمع الإسلامي حتى في أوج عظمته السياسية والحضارية ، بل كان أقوى وأنشط في عهود المجد السياسي والمدني ؛ لضعف التربية الإسلامية ، وندرة المربين الربانيين المزكين للنفوس ، المهذبين للأخلاق ، وفساد نظام التربية في بعض العهود ، وكونه قنطرة للوصول إلى كراسي الحكم ومراكز القيادة ، ولاحتياج الملوك والأمراء إلى الحذاق البارعين في بعض العلوم ، والآداب ، والكتابة ، والإدارة ، بصرف النظر عن عقيدتهم ، وسيرتهم ، وأخلاقهم ، واستمرَّ ذلك إلى آخر عهدٍ من عهود الحكومات الإسلامية في الشرق والغرب .

وجاء عهد الاحتلال الأجنبي ، وغزو الغرب الفكري والثقافي ، ووقع الشرق الإسلاميُّ ـ بإرادةٍ أو بغير إرادةٍ ـ في حضانة التربية الغربية ، ونظمها التعليمية ، ومناهجها الفكرية ، وقيمها ومثلها العليا ، وتصورها للحياة والإنسان ، ونظرتها إلى العلوم والآداب ، كما يترامى الطفل الصغير في أحضان مربٍّ كبيرٍ ، ويقبل نظامه التعليمي ، وبالأصح فكرته التعليمية بحذافيرها ، وعلى علاَّتها ؛ التي ولدت ، ونشأت ، واختمرت في بيئةٍ تؤمن بعقائد وأسس ، ومبادىء وقيم ، ومفاهيم ومثل ، تختلف كلَّ الاختلاف عن العقائد والأسس ، والمبادىء والقيم ، والمفاهيم والمثل ؛ التي يؤمن بها المجتمع الإسلاميُّ ، أو يجب أن يؤمن بها ، ويعيش لها ، ويجاهد في سبيلها ، بل تقوم على نفيها وهدمها أحياناً ، والتهكم بها والاستهانة بقيمتها أحياناً أخرى ، فكان مثله كمثل رجلٍ يتناول السمَّ الزعاف ؛ ليعيش ، ويشرب

---

(١) مقتبس من « صفة النفاق وذم المنافقين » للمحدث أبي بكر ص٦٨ .

الماء الملح الأجاج ؛ ليروي غلَّته ، وحكَّموا في تخطيط برامجهم التعليمية ، ومؤسساتهم العلمية الأخصائيين ، أوالمستشارين من البلاد الأجنبية ، ولم يستوردوا منها المقررات الدراسية فحسب ، بل النظريات التعليمية ، والتصورات التربوية ، وأرسلوا البعثات إلى الخارج ؛ لتنشأ في أحضان المربين الغربيين ، والأساتذة الأجانب ، ثم أطلقوا أيديهم ، ومنحوهم كلَّ حريةٍ في تخطيط البرامج التعليمية ، وسياسة التعليم في هذه الأقطار الإسلامية .

فكانت النتيجة وجود طبقةٍ مضطربةٍ في العقائد ، والأفكار ، والسيرة ، والأخلاق ، أحسن أحوالها أن تكون مذبذبةً بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية ، وإلا فهي في أكثر الأحيان تنسلخ من كلِّ ما يدين به مجتمعها ، وأمتها ، وبلادها .

وذلك شيء طبعيٌّ لا يستغرب وجوده ، إنما يستغرب عكسه ، وقد يكون هؤلاء الأخصائيون ، أو المستشارون وتلاميذهم مخلصين في عملهم يريدون الخير للأقطار الإسلامية والأجيال الإسلامية في هذا التخطيط التربوي ، وفي هذه السياسة التعليمية ، ولكن ذلك لا يمنع من تعرُّض هذه الأقطار والأجيال لهذا الاضطراب الفكري ، أو التناقض المبدئي ، ولكثيرٍ منهم العذر في ذلك ؛ لقلَّة معرفتهم بهذا الدين وأسسه ومبادئه ، وطبيعة هذه الشعوب الإسلامية ، وما يتفق مع شخصيتها ورسالتها ، وما يتنافى معها ، وقد تكون محاولتهم لإنقاذها ـ بإخلاصٍ وحسن نيَّةٍ ـ ذريعةً إلى هلاكها ، وقد أعجبني ما قالها الأستاذ Don Adams عن هؤلاء الموجهين ، أو المستشارين الأجانب في كتابه[١] « المخطط التربوي للمجتمعات المعاصرة » يقول :

« إنَّ أبلغ مثلٍ يضرب للأضرار التي تلحق بالشعوب بخطأ يصدر من المستشارين التعليميين الأجانب ما جاء في حكاية شرقية ، يصور موقف هؤلاء

(١) N.Thut and Don Adams: «Educational Patterns In Coutemporary Societies» Mc Graw Hill Book Co. New York (1964) p.352.

الماهرين تصويراً دقيقاً ، زعموا : أنَّ ناحية من النواحي أصيبت بفيضانٍ عظيمٍ ، تورَّط فيه قـردٌ وسمكةٌ ، كان القرد شاطراً ومحنكاً ، قد جرب مثل هذه الفيضانات ، فتسلَّق فرع شجرةٍ ، وأمن خطر هذا الفيضان ، ووقع بصره على السمكة تكافح تيار الفيضان ، وتطفو على سطح البحر ، واحتمل القرد العطف على هذه السمكة المسكينة ورقَّ لها قلبه ، فنزل من الشجرة ، وأنقذ السمكة بكل إخلاصٍ من هذا الخطر ، وجاء بها إلى الساحل ، وألقاها على الرَّمل ، حيث لا تصل إليها الأمواج ، وكانت النتيجة ظاهرةً لا تحتاج إلى تفسير » .

وقد اتفق أعظم علماء التربية في العهد الحاضر على أنَّ عملية التربية في أمة وبلاد ليست بضاعةً تصدَّر إلى الخارج ، أو تستورد إلى الداخل ، كالمصنوعات ، أو الموادِّ الخام ، أو الحاجيات والمخترعات التي لا تختصُّ ببلدٍ دون بلدٍ ، إنَّما هو لباس يفصل على قامة هذه الشعوب وملامحها القومية ، وتقاليدها الموروثة ، وآدابها المفضلة ، وأهدافها التي تعيش لها ، وتموت في سبيلها[١] ، وأنَّ التربية ليست إلا وسيلةً راقيةً مهذبةً لدعم العقيدة التي يؤمن بها شعبٌ أو بلدٌ ، وتغذيتها بالاقتناع الفكري القائم على الثقة والاعتزاز ، وتسليحها بالدلائل العلمية ، إذا احتيج إليها ، ووسيلةً كريمةً لتخليد هذه العقيدة ، ونقلها سليمةً إلى الأجيال القادمة ، وإنَّ أفضل تفسير لنظام التربية هي أنَّها السعي الحثيث المتواصل يقوم به الآباء والمربون لإنشاء أبنائهم على الإيمان بالعقيدة التي يؤمنون بها ، والنظرة التي ينظرون بها إلى الحياة والكون ، وتربيتهم تربيةً تمكنهم من أن يكونوا ورثةً صالحين للتراث الذي ورثه هؤلاء الآباء عن أجدادهم ، مع الصلاحية الكافية للتقدُّم ، والتوسُّع في هذه الثروة[٢] .

(١) مقتبس من محاضرة كاتب السطور « مهمة التربية والتعليم » المدرجة في كتابه « نحو التربية الإسلامية الحرَّة » .

(٢) يرجع إلى دائرة المعارف البريطانية مقالة « التربية » وكتابات أحد أئمة فن التربية في العهد الحاضر جون ديوي John Dewey .

قد جاء في تقريرٍ تربويٍّ قدَّمه بعض كبار خبراء التربية في بريطانية ما خلاصته :

« إنَّ مصلحة الحكومة في أن تطمئنَّ إلى أن المدارس القائمة في حدودها كفيلةٌ بنقل جميع أجزاء الحياة القومية إلى الأجيال القادمة ، جيلاً بعد جيل ، إنَّ الفكرة التي يجب أن تسيطر على سياسة الحكومة التربوية المرسومة ، وتسندها هي أن ينشأ الأطفال ورثةً للخصائص القومية ، وخلفاء آبائهم بالجدارة »[١] .

ويقول F.W.Garford في كتابه « التربية والغاية الاجتماعية » :

« إنَّ أفضل محكٍّ لنجاح التربية وإخفاقها هو تقاليد المجتمع ، والقيم السائدة ، فهي الأسس التي تقوم عليها خصائصها وبقاؤها ، ومما لا بدَّ منه ألا تكون بينها وبين التربية فجوةٌ فكريةٌ ، أو عدم انسجامٍ . فعلينا أن نلاحظ دائماً أنَّ كلَّ محاولةٍ للتقدُّم تقوم على القيم المقررة التي يؤمن بها هذا الشعب ، فيجب أن تقوم عليها جميع التجارب التي يقوم بها رجال التربية »[٢] .

ونكتفي بشهادةٍ أخرى أكثر تركيزاً وأشدَّ صراحةً لأحد علماء التربية Vernon Mallinson يقول :

« إنَّ التعليم القومي عبارةٌ عن ميثاقٍ فكريٍّ تتجلَّى فيه غاية المجتمع المشتركة ومساعيه المشتركة ، ويمثل هذا الميثاق العاطفة القومية ، ويكون مزيجاً من خصائص لا بدَّ منها لتحقيق مطامع هذا المجتمع وأهدافه »[٣] .

وقد أخذ الغرب ـ على اختلاف نظمه السياسية ومدارسه الفكرية ، ومعسكراته الشرقية والغربية وعلى جميع علاَّته وعيوبه التي ننتقدها ـ بهذا

(١) Secondary Education With Special Reference to Grammar and Technical Schools. H. M. S. O. 1931pp. 147-148.

(٢) F. W. في كتابه Educational and Social Purpose ondon (1962) pp.46-47 . Gardford

(٣) «An Introduction to The Study of Comparative Education» (London 1957 page 4).

المبدأ التعليمي ، وطبقه تطبيقاً دقيقاً شاملاً في جميع مجالات التربية ، وأصبحت المناهج التعليمية وسياسة التربية خاضعةً لهذا المبدأ المقرر .

ولم تكن روسيا الشيوعية المعروفة بالتطرُّف والثورة أقلَّ تطبيقاً لهذا المبدأ من البلاد الرأسمالية والديمقراطية ، بل لعلَّها كانت ـ للاحتفاظ بعقيدتها الشيوعية وروحها الثائرة ـ أدقَّ تطبيقاً له ، وأشدَّ غيرةً على مبادئها ، جاء في بيان رسمي صدر في ١٢نوفمبر ١٩٥٨م :

« إنَّ العلوم العمرانية والاجتماعية تمثِّل دوراً حاسماً في تحقيق خصائص المجتمع الشيوعي . إنَّه من ألزم اللوازم أن يكون أصحاب الاختصاص في كلِّ فنٍّ على اطلاعٍ كافٍ بالمبادىء الماركسية واللينينية ، إنَّه يجب أن يتلقى شبابنا تربيةً تسري بها فيهم روح المقت الشديد ، والتعصُّب ضدَّ الرأسمالية والرجعية »[١] .

وبذلك سلم الغرب من هذا التناقض الذي يعيشه الشرق ، سواءً الأقطار الإسلامية منه ، وغير الإسلامية ، فلا وجود في الغرب لهوةٍ عميقةٍ سحيقةٍ فكريةٍ وعقائديةٍ بين الشعب والقيادات ، أو الجماهير والحكومات ، إنَّما هناك طرازٌ واحدٌ ونمطٌ واحدٌ للمبادىء والقيم والمثل والغايات ، وليس هناك صراعٌ فكريٌّ ونفسيٌّ عنيفٌ قاسٍ بين مختلف الطبقات وأفراد المجتمع ، ولذلك أمن الثورات الداخلية ، والمؤامرات ضدَّ سلامة الشعب ، ومصالح البلاد .

وتتلو الغرب أقطارٌ شرقيةٌ ذابت فيها العقيدة من عهدٍ بعيدٍ ، وهي لا تؤمن بحقائق تقوم على الإيمان بالغيب واتباع الرسل ، وليست عندها تعاليم سماويةٌ معينةٌ ، أو صحفٌ سماويةٌ محفوظةٌ . وإنها تتمسك بالتقاليد والأعراف ، والمصالح القومية والفردية التي لا تتحدَّاها هذه النظم التربوية ، وليست منها بسبيل ، فهي سليمةٌ كذلك من هذا التناقض الذي يولده نظام التربية الغربي ، بل هي في اصطلاحٍ وتفاهمٍ مع هذه النظم ، أو تكيِّفُ نفسها وأفكارها وفق هذه المناهج وموادِّها ، فالثورات والمؤامرات فيها قليلةٌ بالنسبة إلى الأقطار

(١) George S.Count' «The Challenge of Soviet Education» New York: Mc Graw Hill Book Co. 1957 pp> 50-51: 32).

الإسلامية ، والتناقض قليلٌ وضعيفٌ لا أثر له في الحياة القومية ، والغدر القومي والخيانة الوطنية نادرةٌ جداً ، وليست بين الطبقة المثقفة والموجهة للبلاد ، وبين الجماهير ذلك الخليج الواسع الذي نشاهده في الأقطار الإسلامية ، وإنَّ أدواء هذه الأقطار وعيوبها من جنسٍ آخر ، ولها أسباب ترجع إلى تاريخها ، وطبيعتها ، وعقائدها ، وفقدان الوازع الديني ، وقلة الوعي ، وفساد نظام التربية .

أما الأقطار الإسلامية ؛ فهي مسرحٌ للتناقض العجيب بين الطبقات الحاكمة ، أو الزعيمة ، وبين الجماهير في جانبٍ ، وبين الطبقات المثقفة ثقافةً عاليةً ، والطبقات التي تغلب عليها الأمية ، وبين الطبقات المتدينة المحافظة ، وبين الطبقات المتحررة التقدمية في جانب آخر ، وذلك كلُّه نتيجة نظام التربية الغربي المستورد من الخارج ، أو المصوغ في الداخل على فكرة النظام الغربي وخطوطه ، فهو ينشىء جيلاً لا يسيغ العقائد والحقائق التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي ، أو الأمة الإسلامية ؛ لأن ما يعطيه هذا النظام ، ويغرس في النفوس والعقول يتناقض تناقضاً واضحاً مع العقائد والحقائق التي يؤمن ، أو يجب أن يؤمن بها هذا المجتمع ، أو الأمة ، وإذا أساغها فإنما يسيغها بمعجزةٍ ، أو بتأثير خارجيٍّ يضعف سلطان هذا النظام ، وذلك شاذ ، لا يقاس عليه .

وإذا وجدت هذه الطبقة أو الجيل الذي نشأ في أحضان هذا النظام ، ورضع بلبانه ، بقي في صراعٍ دائمٍ مع عقيدة الشعب ، وعقليته ، وعواطفه ، واتجاهاته ، فإذا كان قويَّ النفس ، قويَّ الإرادة حاول أن يزيل أنقاض العهد القديم ، أو الرجعية (كما يقول بعض أفراد هذه الطبقة) ويخلص الأمة والبلاد من ركام الماضي ، وهنالك تقوم معركةٌ تستهلك طاقات وكفايات كانت الأمة أحوج إليها ، وتقوم حربٌ داخليةٌ قد تكون أطول وأعنف من الحروب الخارجية ، وهذه قصَّة بلادٍ ابتليت بزعاماتٍ دانت بمبادىء وفلسفاتٍ ثوريةٍ ، أو قوميةٍ ، أو علمانية .

وإذا كان هؤلاء الأفراد ضعيفي النفس ، والشخصية ، والإرادة ؛ أصيبوا

بمركب النقص ، وبكرهٍ شديدٍ للعقائد والأهداف التي يؤمن بها الشعب ، فيحيكون المؤامرات ، ويمالئون الأجانب ، وينتهزون كلَّ فرصةٍ للتخلُّص من ضغط الشعب الديني ، ونفوذ الدعاة الذين ينادون بالإسلام ، فتكثر حوادث الخيانة القومية ، وتعيش البلاد في جوٍّ من الاضطراب والإرهاب ، وعدم الثقة ، والشك ، والبلبلة الفكرية .

ولا سبيل إلى التخلُّص من هذا الوضع غير الطبيعي وغير الضروري إلا قلب هذه الأوضاع التعليمية رأساً على عقب ، وصياغتها صياغةً جذريةً جديدة ، وهي قضية العالم الإسلامي الكبرى ، وضرورته القصوى ، ونداء الوقت ، وفريضة الساعة .

وهنا أختم حديثي باستعارة قطعة من إحدى كتاباتي السابقة ، ومعذرةً للقراء الكرام الذين مرَّت بهم هذه القطعة قديماً :

« وحلُّ هذه المشكلة ـ مهما تعقد وطال واحتاج إلى الصبر والمثابرة ـ ليس إلا أن يصاغ هذا النظام التعليمي صوغاً جديداً ، ويلائم عقائد الأمة المسلمة ، ومقومات حياتها ، وأهدافها ، وحاجاتها ، ويخرج من جميع مواده روح المادية والتمرُّد على الله ، والثورة على القيم الخلقية والروحية ، وعبادة الجسم والمادة ، وينفخ فيه روح التقوى والإنابة إلى الله ، وتقدير الآخرة ، والعطف على الإنسانية كلها ، فمن اللغة والآداب إلى الفلسفة وعلم النفس ، ومن العلوم العمرانية إلى علوم الاقتصاد والسياسة ، لا تسيطر على كل ذلك إلا روح واحدةٌ ، ويقصى استيلاء الغرب العقلي ، ويكفر بإمامته ، وسيادته ، وتجعل علومه ونظرياته موضوع الفحص والدراسة الجريئة ، ويوضح ماذا جنى نفوذ الغرب وسيطرته على الإنسانية والمدنية ، وتدرس علومه بشجاعةٍ وحريَّةٍ ، وتعتبر كمواد خامة (Raw Material) نصنع منه ما يوافق حاجاتنا ورغباتنا ، وعقيدتنا وثقافتنا .

إنَّ هذا العمل ولو كانت في طريقه عقبات وعراقيل ولو تأخرت نتائجه ، ولكنَّه حلٌّ وحيدٌ للموجة الطاغية التي قد اكتسحت العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، موجة التجدد والتغرب التي تتحدَّى الكيان الفكري للإسلام

وجهازه الاجتماعي ، وظلت تهدِّد حياته وبقاءه ، ونتيجة لذلك أصبحت عاطفة الشعوب المسلمة ، وتضحياتها ، وجهودها ، وإخلاصها ، ووفاؤها (التي هي السبب المباشر الأساسي في إنشاء الحكومات الإسلامية ، وتحرير البلاد المستعمرة) وقوداً حقيراً في نار التجدُّد والتغرُّب ، وأصبحت الجماهير المسلمة السليمة المخلصة ، المتحمسة الصامتة ، قطعاناً من الغنم يتحكم في رقابها هؤلاء القادة والولاة ، وتساق إلى أيِّ هدف في صمتٍ وهدوء[١] » .

فهل من بلدٍ إسلامي ، أو حكومةٍ إسلاميةٍ ، أو جامعةٍ من الجامعات المرموقة في عواصم العالم الإسلامي تلبي هذا النداء ، وتركز جهودها ، وعنايتها ، ووسائلها على تحقيق هذا العمل البنائي الثوري ؛ الذي ينقذ العالم الإسلامي من أكبر خطرٍ يتهدَّده ، بل من عملية الهدم والإبادة الشاملة التي لم تعرف إبادة أكبر نجاحاً ، وأعمق منها أثراً في تاريخ الأمم ، والملل ، والديانات ، والحضارات ، فهل من مجيب ؟ وقد قال الله تعالى :

﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] وقال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ [الإسراء : ٣١] .

إنَّ القتل المعنوي ليس أهون من القتل الجسماني ، ولا فرق بين السمِّ الناقع الذي يسرع بالإنسان إلى الموت ، وبين السمِّ الذي يتدرج به الإنسان إلى الموت ، وقد نهى الله عن كلِّ ذلك فقال :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٢٩] .

* * *

---

(١) « نحو التربية الإسلامية الحرة » ص٤٣ ـ ٤٥ .

دور الجامعات في إنشاء الجيل الجديد[(١)]

إنَّ الجامعة هي المرحلة النهائية للتربية النظامية الرتيبة ، وإن كان هنالك مراحل أخرى تلي هذه المرحلة النهائية ، فقد تلقينا من منابع الإسلام الصافية أنَّ طالب العلم إنما يستمرُّ في الطلب من المهد إلى اللحد ، ولكنَّ الجامعة لها مكانها المرموق ، ولها تأثيرها العميق الواسع في إنشاء الجيل الجديد ، وفي صياغة الجيل الجديد ، فإذا صلحت الجامعة فقد صلح البلد ، وصلحت الأمة ، وصلح الجيل ، وإذا فسدت ـ ومعذرةً ـ فقد فسد البلد ، وفسدت الأمة ، وفسد الجيل ، أقول هذا في ضوء ما قاله الرسول ﷺ : « ألا إن في الجسد مضغةً لو صلحت ، صلح الجسد كله ، ولو فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » ، وقد حلَّت الجامعة محل القلب والعقل تقريباً في نفس الأمة ، وإنَّ الجامعات لها أن تمثل الدور الحاسم المقرر لمصير الشعب . ولكن هذا يتوقف على فهم رسالة الجامعات ، ومعاذ الله أن أعتبر نفسي هنا في مقام موجهٍ ، أو في مقام معلِّم ، والمعلِّم هو أعرف الرجال بحقيقته ، وبنفسه ، وبمكانته ، فإذا لم يكن عارفاً بمكانته ، وعارفاً بشرف زملائه ، مقدراً لهم ، لم يكن معلماً حقيقياً ، إنَّ تمثيل الجامعات لدورها اللائق يتوقف على فهمها لمعنى التربية وغرضها ، إنني أعتبر التربية لباساً يُفصَّل على قامة الشعب وملامحه القومية ، وهي : عقائده ، وقيمه ، ومفاهيمه ، ومثله العليا . إنَّ قضية لباس يُفصَّل على قامة رجل قضيةٌ خطيرةٌ ، فإذا فصل لباس فضفاض سابغ على قامة رجل قزم قصير القامة كان عيباً ، عيباً له ، ولمفصِّله ، ومخطِّطه ، وإذا فصِّل لباسٌ ضيِّقٌ على قامة عملاق ، كان هذا

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها التاسع ، المجلد الرابع والعشرون عام ١٩٨٠م .

الرجل ـ إذا فرض عليه فرضاً وكسي رغم أنفه ـ من هذا اللباس في تعبٍ وعذابٍ ، لا يشعر براحةٍ ولا بهدوء ، فيمنعه من التنقل بحرِّية ، وممارسة نشاطه ، ويفقده الثقة بنفسه وكرامته ، فإنَّه ينمُّ عن أنه ليس له ، إنَّما هو مستعارٌ ، أو مستوردٌ ، أو مفروضٌ عليه .

وإذا كان هذا شأن الفرد ، فإنَّ الشعب أحقُّ بأن يفصَّل لباسه على قامته ، فإنَّه يقوم أمام الشعوب ، ويمثِّل دوره أمامها في مجال الرسالة الإنسانية والقضايا العالمية ، إنَّ قضية اللباس للشعب قضيةٌ أهمُّ من قضية لباس لفرد ، وأضيف إلى ذلك فأقول : إنَّه ليس من الواجب أن يفصَّل هذا اللباس على قامة الشعب فحسب ، بل على قيمته كذلك ، فللشعوب قامة ، وللشعوب قيمةٌ ، وقد نعرف القامة ونقدرها ولكننا نجهل أو نتجاهل القيمة ، فإنَّ كلَّ أمَّةٍ لها قامة ـ ليست لها قدرة على تقويمها ، وفي تحديدها ، وفي تخاطيطها وملامحها ـ ولكن لهذا الشعب كذلك قيمته ، وهذه القيمة هي أعزُّ وأنفس من القامة ، ويجب أن يفصَّل اللباس الحضاري لهذه الأمة ، واللباس التربوي ، والثقافي على قامة هذا الشعب وعلى قيمته ، فيراعى في تفصيل هذا اللباس قامة الشعب ، وقيمة الشعب ، وكلُّ لباسٍ فُصِّل على غير قامة الشعب ، وعلى غير قيمته ، إنما هي إهانةٌ لهذا الشعب ، وإفقادٌ لشخصيته ، وغارةٌ على مواهبه ، ونشاطاته ، ومركزه .

فليست قضية التربية في نظري ونظر كبار فن التربية في العالم المعاصر ، هي أنها مجرد نقل معلوماتٍ من مكتبةٍ إلى عقول الشباب ، وشحن الذاكرة بمعلوماتٍ مبعثرة ، لا وحدة بينها ، وليس مجرَّد محاربة الأمية والجهالة ، ومجرَّد تثقيف فقط ، بل التربية في الحقيقة هي مسؤوليةٌ دقيقةٌ ضخمةٌ ، وأنا هنا أستشهد بثلاث شهاداتٍ لكبار زعماء التربية في العالم المعاصر ، وبذلك تفهمون أنَّ النظرة إلى التربية قد تغيَّرت من زمنٍ قريب ، يقول الأستاذ الأمريكي الكبير (Dr. J. B. Conant) في كتابه «Education and Liberty» (التربية والحرِّيَّة) : « إنَّ عملية التربية ليست عملية تعاطٍ ، وبيعٍ وشراءٍ ، وليست بضاعةً تُصدَّر إلى الخارج ، أو تستورد إلى الداخل ، إنَّنا في فتراتٍ من التاريخ

خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الإنكليزية والأوروبية إلى بلادٍ أمريكية » .

تعرفون أنَّ أمريكا وأوروبا تجمع بينهما روابط كثيرةٌ ، يجمع بينهما دينٌ واحد ، وهو المسيحية ، وتجمع بينهما لغةٌ واحدةٌ وهي اللغة الإنكليزية ، وقد تجمع بين كثير من شعوبهما سلالةٌ واحدةٌ ، ولكنَّ هذا الرجل الفاضل قد بلغ من الحساسية إلى حدٍّ يرى فيه أن ما استعير من نظريات أوروبة ، أو إنكلترا إلى أمريكا ، على الرغم من التقاءاتٍ كثيرةٍ بينهما ، إنما كانت جنايةً على الشعب الأمريكي ، وإفقاداً لشخصيته ، وعمليّة إجرامٍ وهدمٍ ، فكيف ببلدين لا يلتقيان على دينٍ واحدٍ ، ولا على عنصرٍ واحدٍ ، ولا على لغةٍ واحدةٍ ، وثقافةٍ واحدةٍ حتى على أهدافٍ واحدةٍ ؟!

ويقول Sir Percy Neinn الذي يحتلُّ الصدارة بين خبراء التعليم في بريطانيا في مقالٍ له كتبه لدائرة المعارف البريطانية (Encyclopaedia Britannica) :

« لقد سلك الناس مسالك مختلفةً في التعريف بالتربية ، ولكنَّ الفكرة الأساسية التي تسيطر عليها جميعاً : أنَّ التربية هي الجهد الذي يقوم به آباء شعب ومربّوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرة الحياة التي يؤمنون بها ، إنَّ وظيفة المدرسة أن تمنح للقوى فرصة التأثير في التلميذ ، تلك القوى التي تتصل بنظرته إلى الحياة ، وتربي التلميذ تربيةً تمكنه من الاحتفاظ بحياة الشعب وتمديدها إلى الأمام » ، ويقول بروفيسور « كلارك » : « مهما قيل في تفسير التربية فممّا لا محيص عنه : أنها سعيٌ للاحتفاظ بنظريةٍ سبق الإيمان بها ، وعليها تقوم حياة آبائه ، وجهادٌ في سبيل تقليدها ، ونقلها إلى الأجيال القادمة » .

إذاً فمعنى التربية عندهم هو إعادة الثقة إلى نفوس الجيل الناشىء الجديد بصلاحية أمته ، ورسالته ، وتراثه ، فكلُّ تربية تضعف ثقة الجيل الجديد بالعقائد التي آمن بها آباؤه وسلفه ، وتُضعف الثقة بتراثه الذي ورثه ، فهذه تربية تسيء إلى هذا الجيل أكثر مما تحسن . إنَّ الحقيقة المؤلمة أنَّ جامعاتنا اليوم قد أصبحت مصدر قلق وفوضى فكرية ، وكانت المسؤولة في كثير من

البلاد الشرقية الإسلامية ، ولا أسمّيها ولا أعينها ، والسبب الرئيسي وجود صراع بين طبقتين ، ويا ليته كان صراعاً بين طبقتين ، ولكنه كان صراعاً بين فكرتين ، وصراعاً بين عقليتين ، وصراعاً بين نفسيتين ، وذلك سبب حدوث الثورات في البلاد الإسلامية الشرقية أكثر من البلاد الشرقية غير الإسلامية ، هذه قضية يجب أن نفكر فيها جدِّيّاً ، لماذا امتازت بلادنا الإسلامية الشرقية بوجود صراع دائم ، فالكفاح الحقيقي الذي تخوضه بلادنا الإسلامية اليوم هي معركةٌ فكريةٌ حاميةٌ داميةٌ ، والمعركة الفكرية والنفسية هي أشدُّ خطورةً وأشدُّ ضرراً من المعارك الحربية ، فالمعارك الحربية لها آماد ، ولها آجالٌ محدودةٌ ، ولها مجالات محدودةٌ تنحصر فيها ، ولكنَّ المعركة النفسية والعقلية ليست لها حدود ، إنها تمتد من المدرسة إلى المنزل ، ومن المنزل إلى السوق ، ومن وقت الشغل إلى وقت الاستراحة والنوم ، فلنفكر لماذا يوجد هذا الصراع وعدم الانسجام بين طبقات الشعب في بلادنا الإسلامية ، والشرقية ، ولا يوجد في البلاد الشرقية غير الإسلامية ؟ إنَّه موضوعٌ خطيرٌ يجب أن نفكر فيه ، وندرسه دراسةً علمية موضوعية .

سألني أحد الإخوان ، وهو يقود السيارة وأنا معه في « بيروت » قال : يا أستاذنا ! لي سؤال . . لماذا نسمع عن البلاد الإسلامية كل يوم ونقرأ في الجرائد صراعاً وثورةً ، وقلقاً فكرياً ، قد يثور الجيش ، قد تثور طبقةٌ خاصَّةٌ أو طائفةٌ خاصَّةٌ ، وتغلب على الأوضاع ، وتحدث في البلاد انقلاباً وثورةً ، لماذا لا نسمع عن اليابان ، لماذا لا نسمع عن الهند الهندوكية ، لماذا لا نسمع عن تايلند مثلاً ، وعن سيلان ، وبلادٍ أخرى لا تدين شعوبها بالإسلام ، الحقيقة أني بقيت حائراً ، ولم أطمئن إلى جواب ، إنني بدأت أتكلم معه ، وخُضتُ معه في الموضوع ، ولكنَّ ضميري لم يطمئن ، وقد ملك السؤال عليَّ فكري ، وسيطر عليَّ ، وبقي يطلب مني الجواب ، أما الأخ ففارقته ، ولكن هذا السؤال ما فارقني ، إنَّه أمسك بتلابيبي ، وألحّ عليّ بالجواب ، ولم أهدأ ، حتى وجدت له جواباً .

الجواب : إنَّ جامعاتنا ـ وإن لم يكن هذا مقصوداً من حكومة أو وزارة

تربية ـ في أكثر البلاد الإسلامية تخرج طبقة لا تنسجم مع الشعب ، وهذه الطبقة هي التي تملك زمام البلاد ، وحقَّ لها أن تملك ، فلها من المؤهلات ، ولها من الكفاءات والمقدرة ، ومن الاختصاصات السياسية ، وغير السياسية ، ما تمكنها من تملك هذا الزمام ومن توجيه البلاد ، فمنها وزراء التربية ، ومنها وزراء الداخلية ، ومنها وزراء الخارجية ، ومنها وزراء التخطيط ، فأصبحت آلة التوجيه والتأثير في صياغة الجيل ، وفي تخطيط البلد والمدنية بيد هؤلاء الجامعيين الذين يتخرجون من الجامعات ، وهذه الطبقة تعيش في عالمٍ آخر ، وتحلِّق في جوٍّ آخر ، إنَّها تعيش في عزلة عن الشعب ، وهنالك فجوةٌ واسعةٌ عميقةٌ بين الجمهور وبين هذه الطبقة ، وهذه الطبقة لا تزال في شقاءٍ وعناءٍ من الجمهور ، والجمهور كذلك يشكون ، ويتململون ، ولا ينسجمون مع هذه الطبقة ، فوجود هاتين الطبقتين المتنافيتين المختلفتين في التفكير ، وفي أسلوب الحياة ، وفي القيم والمثل ، وفي الأهداف ، كان كفيلاً بوجود هذا الصراع المستميت ، هذا النضال الحامي الدامي في هذه البلاد .

ونتيجة هذا إنَّ أفضل مواهب هذه الطبقة تضيع في التغلب على مشكلة الشعب ، مشكلة محاربة هذه العواطف والأحاسيس ، والمشاعر ـ المتطرفة أو المتزمّتة كما يسمّونها ـ بل في إزالة الأنقاض التاريخية ، كما آثر كثير من قادتنا أن يسمّوا بها هذه العملية ، عملية إزالة الأنقاض ، إنَّهم يتصورون أنَّ في البلاد ركاماً تاريخياً ، وركاماً فكرياً وركاماً عاطفياً ، وركاماً علمياً ، وركاماً ثقافياً ، فلا بدَّ من إزالة هذا الركام ، حتى يخلو لهم المجال ، ويصفو لهم الجو ، إنَّ الجهود التي كانت كفيلةً بإسعاد شعبٍ وبإنهاض أمَّةً ، ضاعت الآن مع الأسف الشديد في كثيرٍ من البلاد الإسلامية في هذه التجربة القاسية الفاشلة القاتلة ، عملية نحرٍ وانتحارٍ في وقتٍ واحد ، إزالة أنقاض ؟

إنَّ الله سبحانه وتعالى أكرمكم بشعب هو والله أقوى الشعوب عاطفةً ، ومن أسلم الشعوب طبعاً ، ومن أكثر الشعوب حماساً ، إنكم تستطيعون أن تفتحوا به العالم ، إنكم كنتم تستطيعون أن تفتحوا به الغرب ، هذا الغرب الناهض الذي سلَّمنا إمامته وزعامته ، ليست عنده هذه القلوب الصافية ،

والضمائر الحيّة ، هذا الإيمان القوي ، وهذا الحماس الدافق ، سلامة الفكرة والوداعة ، وحسن الظن ، والثقة بصلاح الإنسان ، واحترام الإنسانية ، ليست عند الغرب هذه القلوب المؤمنة ، والنفوس المطمئنة ، إنَّ كل واحد في الغرب الآن ، وإن كان في معسكر شرقي أو معسكر غربي ينظر إلى صاحبه بعين الشك ، وبعين الاتهام ، ما عاد أحدٌ في الغرب واثقاً بأخيه ، واثقاً بزميله الذي يعمل معه ، واثقاً بسادة البلاد ، ساد الشك ، وساد عدم الثقة في المعسكرين جميعاً ، إنَّ لدينا ثروةً هائلةً ، هذه الثروة التي استطاعت أن تفتح العالم ، بأيِّ شيءٍ استطاع محمد ﷺ ، وهو النبيُّ المؤيد ، لاشك في ذلك ـ ولكن لله جنود السموات والأرض ـ وكيف استطاع أصحابه أن يفتحوا العالم الفتح الذي لا نزال نعيش في ظلاله ومائدته ، نحن الآن لا نزال نأكل من رفد محمد ﷺ ، ومن صدقة الرسالة التي جاء بها ، ولكن كيف أمكن ذلك ؟ هل كانت عنده تلك الجيوش المسلحة بالتسليح العصري ، التي كانت تستطيع أن تخرج كسرى وقيصر ؟، هل كانت عندهم هذه الموارد الضخمة التي لا تنتهي ، هل كانت عندهم التجارب العسكرية التي حصَّلتها الرومان والفرس بالحرب الأخيرة الطاحنة التي وقعت بين الدولة البيزنطية والفارسية ؟ لا ! إنما فتحوا العالم بالنفوس المطمئنة والقلوب المؤمنة ، وبهذه الثقة ، والتوكل على الله تبارك وتعالى ، وروح التقشف والجلادة ، وتحمُّل المشاق ، والتضحية بالمقاصد الشخصية في سبيل المقاصد الجماعية ، وفي سبيل صالح الإنسانية .

هذه الثروة كنَّا نملكها ، ولا نزال نملكها ، والحمد لله في كلِّ بلدٍ إسلاميٍّ ، ولكنَّ شقاءنا ومحنتنا من هؤلاء الزعماء ، ومن هؤلاء القادة ، ومن هؤلاء الموجهين ، الذين عرفوا أنَّ الحرب الحقيقية إنما هي بينهم وبين الشعب ، ليست بينهم وبين الرذيلة ، وليست بينهم وبين شعب منافس ، ليست بينهم وبين من يريد أن يغزو بلادهم لا ! اذكروا لي مثالًا واحداً ، أيُّ شعبٍ من الشعوب الإسلامية وأيُّ قيادة من القيادات الإسلامية المعاصرة قدَّر لها ، أو وفقها الله لمحاربة الصهيونية وغزو إسرائيل ؟ كلُّ الحروب التي

قامت ، وكلُّ المعارك الدامية التي دارت ، وكلُّ الطاقات التي استهلكت ، كانت في سبيل التغلب على المشكلات الداخلية ، ما هي المشكلات الداخلية ؟ هي مشكلات الشعب ، الشعوب الإسلامية إلى الآن ، مع تقدمها في الثقافة الجامعية ، لا تفهم إلّا لغة الإيمان ، إذا خوطبت هذه الشعوب بلغة الإيمان اندفعت ، وتدفقت ، وأصبحت لا تملك نفسها ، كيف حررنا الجزائر ، كيف أنشأنا دولة باكستان ، كيف استطعنا أن نطرد الطليان من أرض ليبيا ؟ إنما تمكّنا من ذلك بفضل هذا الإيمان الدافق ، هذا الإيمان الموجود في نفوس الشعب ، سلامة القلوب ، صفاء النفوس ، الثقة المشتركة المتبادلة بين الأفراد ، حسن الظن بالمسلم ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور : ١٢] هذا هو المثل الخلقي الأعلى الذي لا يتصور فوقه .

فاستطاع الرسول بهذه النفوس السليمة القوية الممتلئة بالحياة والنشاط ، المليئة بالثقة والاعتزاز أن يفتح القلوب ، واستطاع به المسلمون أن يفتحوا العالم ، ولكنَّ هذه الثروة الهائلة الزاخرة تضيع في ماذا ؟ إنما تضيع في الحروب الداخلية ، ينظر قادتنا وسادتنا ، وزعماؤنا إلى شعبهم المسلم كأكبر عدوٍّ يجب أن يقضى عليه ، الشعب لا يزال مؤمناً ، الشعب لا يزال يندفع ، يندفع إلى الدعوات الإيمانية الدينية ، الشعب لا يزال يجلُّ هذا الدين ، الشعب لا يزال يتغنى بالحنين إلى الشهادة والجهاد ، هذا والله خطرٌ علينا ما دام الشعب مؤمناً ، ما دام الشعب عنده قابلية لهذا الاندفاع ، فيجب علينا أن نقضي عليه بوسائل التربية والإعلام ، وأدوات التسلية ، وحملات التشكيك والإلحاد .

إنَّ نظام تربيتنا أوجد طبقةً لا تؤمن بهذه القيم ، ولا تؤمن بهذه المُثُل ، ولا تفهم هذه المعاني ، ولا تتحمَّس لهذه المقاصد ، فهي تنظر دائماً إلى الشعب الذي اختيرت هذه القيادات للحكم عليه لسبب من الأسباب ، شعباً متخلّفاً يعيش في القرون الماضية ، ينظرون إلى هذه الخصائص التي تتميز بها الشعوب الإسلامية كرواسب « العصر الجاهلي » في تصوُّرهم .

فالآن المعركة الحقيقية التي يخوضها العالم الإسلامي في كلِّ بلدٍ ، ويخوضها سادتنا وزعماؤنا ، هي المعركة التي تدور بين قادة البلاد وساستها ، وزعماء السياسة ورؤساء الأحزاب المتملكين لزمام البلاد ، وبين الشعوب الوادعة السليمة المؤمنة المحبّة لله ورسوله ، هذه هي المأساة الكبرى التي نعيشها الآن في العالم الإسلامي ، إنَّ هذه الطاقات التي كانت كفيلةً بإسعاد المجتمع ، وبإسعاد الأمة والبلاد ، الآن تضيع في غير عدو ، وفي جهاد غير جهادٍ ، والسر في ذلك أن نظام التربية لباس فصِّل في جانبٍ بعيدٍ عنَّا ، غريبٍ منا ، لم يكن يعرف البارعون في الخياطة ، لأيِّ أمَّةٍ يفصَّل هذا اللباس ، والله ليس الذنب ذنبهم ؛ لأنهم لم يدَّعوا أبداً أن هذا اللباس يفصل ليكون لباس الأمَّة الإسلامية ، أنا لم أطلع حتى الآن في دراستي القاصرة على قولٍ لأحد أقطاب التربية في أوروبة ، وفي أمريكا ، وفي روسيا : إننا نحن الكفيلون ، ونحن المسؤولون عن تفصيل اللباس الثقافي للشعوب الإسلامية ، إنَّهم لم يدَّعوا ذلك أبداً ، إنما هي عمليتنا فقط ، نحن استوردنا هذا اللباس من متاجرهم ، ومن جامعاتهم ، فالذنب ذنبنا ، ليس ذنبهم ، فلما لم يفصَّل هذا اللباس على قامتنا فإنه لباس يؤذينا ، ويضايقنا ، ونحن نعيش منه في عذاب ، لماذا لا نجد هذه الفجوة في الهند مثلاً ، لأنَّ نظام التربية لم يكن يتنافى مع قيم البراهمة مثلاً ، ومع قيم الشعب الهندوسي ، ولم يكن يتناقض مع ما يعتقده ويدين به ، وعنده مرونة زائدة ، فيما يتصل بالعقائد ، وعنده الإطلاقية الزائدة التي امتازت بها الشعوب الآرية .

فإذا كان هذا هو وضع شعب ، فكلُّ نظام تربيةٍ ينسجم معه ، ولا يتناقض مع عقائده ، ومع مشاعره ، فهو في هذا النظام في أمان وهدوء ، ولكن ليست هذه قضية المسلمين ، قضية الشعوب الإسلامية ، لهم عقائد معيَّنة ، ولهم قيم ومفاهيم ، ولهم مثلٌ عليا ، قد حدّدها الرسول عليه الصلاة والسلام .

والحقيقة التي يجب أن نعترف بها : أنَّ القيادات اللادينية مع عملية إزالة الأنقاض الطويلة العريضة القديمة ، إلى الآن ما نجحت في أيِّ بلدٍ إسلاميٍّ من تركية إلى إندونيسيا ، لقد فشلت هذه العملية في تركية ، وفشلت في

باكستان ، وفشلت في إيران أخيراً ، إنَّ الملك الراحل قد بذل كلَّ جهوده واستهلك طاقاته في عملية إزالة الأنقاض ، وفي صياغة الجيل صياغةً جديدةً ولكن قد رأى العالم جميعاً أنَّ هذه العملية كانت فاشلةً ، وأنَّ الشعب قد برز كما يبرز الذهب من الكير ، كما يبرز الإنسان من السجن ، أو الطائر من القفص ، فمعنى ذلك أنَّ هذه العملية عمليةٌ فاشلةٌ ، ولكن مع الأسف الشديد نحن ضيَّعنا هذه المدة الطويلة ، أنفدنا هذه الطاقات الهائلة التي كنا نستطيع أن نخدم بها بلادنا ، ونخدم بها الإنسانية ، في هذه العملية السلبية ، وتاريخ العالم الإسلامي اليوم الثقافي إنما هو تاريخ هذه العملية فقط لا غير ، لا أكثر ولا أقل ، محاولة تغيير نفسية الشعب ، ثم الفشل الذريع ، والإخفاق التام ، محاولة التغلب على مشاعر الشعب ، ثم الفشل الذريع ، والإخفاق التام .

فالجامعات تستطيع أن تمثل دوراً بنائياً إيجابياً حاسماً مصيرياً إذا عرفت واجبها ، وهو أن تحدث الانسجام التام بين العقائد التي يؤمن بها الشعب ، وتهيىء لها الدلائل العلمية . في الحقيقة : إنَّ وظيفة التربية كما يقول أحد أئمة التربية في أوروبة هي تدعيم الفكر ، وتهيئة الدلائل العلمية ، والثقة العلمية بما أقرَّ به الشعب ، وبما يؤمن به ، إنَّ كل جامعة ، أو كلَّ نظام تربية يريد أن يكسر هذا الخيط الذي يربط هذه الأمة بعقائدها ، إنَّها جامعة هدَّامةٌ ليست بناءةً ، فوظيفة الجامعة أن تُسلّح الفكر الشعبي ، والعقلية الشعبية بدلائل علمية ، فتجد الثقة علمياً ، كما أنَّها تجد الثقة إيمانياً وعاطفياً ، هذه وظيفة الجامعة ، ولكن إذا كانت وظيفة الجامعة هي خرق هذا الخيط ؛ فمعنى ذلك أنَّها تحدث فراغاً في هذه الأمة لا يملأ ، وإنني أذكر بيتاً لشاعر هندي قاله قبل خمسين سنة ، لما كان الاحتلال الإنجليزي جاثماً على صدر الهند ، إنه قال ناظراً في ضوء تجاربه ، وفي ضوء إنتاج الجامعات الهندية حوله ، وكان يعيش في بلدٍ تقوم فيه كبرى جامعات الهند ، وهو إله آباد ، ومعذرتي فإنَّ الشعر فيه شيءٌ من التنكيت والتبكيت ، يقول : « إنني أرثي لفرعون ، إنه أضاع جهده ، وجنى على نفسه إذ بدأ يقتل أطفال بني إسرائيل . إنه إذا بدا له أن يؤسس جامعةً تقوم على الفلسفة الفرعونية ، وعلى سياسةٍ جديدةٍ للشعب

المصري « وغسيل المخ » كان قد تفادى سوء السمعة ، وسوء الأحدوثة في التاريخ ، إنَّه خلَّد اسمه في التاريخ كقاتل بني إسرائيل ، وكسفاح للدماء ، ولكنه لو أنشأ عدداً من الجامعات في وادي النيل، وأنفق عليها بسخاء، وجلب لها أساتذةً بارعين ، وأنشأ لها مكتبات ، استطاع أن يعمل في تغيير نفسية بني إسرائيل عن طريق التاريخ ، يدرسون تاريخاً يصور لهم أن الفراعنة كانوا منقذي مصر ، وأنهم كانوا بنَّائين لأكبر حضارة عرفها الإنسان ، ولأول حضارة قامت في العالم ، ويدرسون الجغرافية ويقتنعون بأن مصر هي أفضل البلاد ، وأغنى البلاد ، وهكذا يدرسون علم النفس ، وهكذا يدرسون تاريخ الأديان ، وهكذا يدرسون علم الأخلاق ، إلى مواد جامعيةٍ أخرى ، فيقول لسان العصر القاضي السيد أكبر حسين : أسفاً لفرعون إنه قد فاته أن ينشىء جامعةً في وادي النيل ، ويجند لها جيشاً من الأساتذة البارعين الحاذقين ، فيتفادى بذلك عن سوء السمعة ، وعن تلقيبه بفرعون السفاك للدماء ، فقد أصبح مثلاً ، ورمزاً للقسوة ، والسفك للدماء ، ولكنه قد فاته الطريق القويم » .

وقولي أخيراً : إنَّ الجامعات في بلادنا الإسلامية إذا شعرت بمسؤوليتها نحو الأمة ملأت هذه الفجوة الواقعة الآن بين الطبقة المثقفة ، والشعب المسلم ، هذه الفجوة واقعةٌ موجودةٌ في كلِّ بلدٍ لا أستثني منها بلداً إسلامياً شرقياً ، بل هذه الفجوة موجودة بين الطبقتين ؛ الشعب العامل ، الشعب القوي في السواعد ، الغني في المواهب ، الشعب السليم الفطرة والطبقة المثقفة ، هنالك فجوةٌ ، وهنالك جفوةٌ بين الطبقتين ، فإذا جاءت الجامعات ـ وفقها الله تبارك وتعالى ـ وفيكم الثقة ، وفيكم القابلية في هذا البلد الإسلامي العربي الذي يمر بالمرحلة التجريبية في تاريخ الجامعات ، وفي إمكانكم أن تملؤوا هذه الفجوة ، هذا الخليج ، ليس هذا الخليج الذي نعيش عليه ، هنالك خليجٌ آخر أخطر ، وأعمق ، وأوسع ، وهو الخليج الواقع بين الطبقة المثقفة ، وبين عامة الشعب ، هذا الخليج الواقع بين عقائد الأمة وقيمها ومثلها ، وبين تصورات الطبقة الجامعية المثقفة التي تتخرج كلَّ سنةٍ ، هذا الخليج هو الخليج الهائل الذي ما زال ، ولا يزال خطراً على قوة هذه الأمة ،

وعلى مستقبلها ، ورسالتها ، ودورها العظيم الذي قدره الله لها ، فإذا وفقت الجامعات على الأقل في الأقطار العربية الإسلامية ، وفقت لتجربة بنائيةٍ جديدةٍ هي ملء الفجوة بين الطبقتين ، والانسجام العاطفي والفكري الثقافي ، كانت تجربةً مباركةً تاريخيةً تكون مثالًا لكلٍّ الجامعات في العالم الإسلامي ، وما دامت هذه الجامعات تعيش في عزلةٍ وتعيش في وادٍ آخر ، وتعيش الشعوب في وادٍ آخر ، وأكثر مجهودها وأكثر ذكاء أساتذتها ومخططيها يضيع في إساغة الشعب ما لا يهضمه ، وفي تلقين الشعب ما لا يتحمس له ، وفرض الشيء الذي لا يندفع إليه ، معنى ذلك إضاعة الجهود وإضاعة الطاقات في غير جدوى ، وجهادٍ في غير جهادٍ .

* * *

حيرة الشباب المردية
أسبابُها وطرقُ عِلاجَها(١)

عقدت وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلاميَّة للأردن ندوةً علميَّة في ١٨/٨/١٩٧٣م في قاعة الكلية العلميَّة الإسلاميَّة في عمَّان ، ساهم فيه أعضاء وفد رابطة العالم الإسلامي في مكة ؛ الذي كان في زيارةٍ لغرب آسيا ، ومن ضمنها المملكة العربية الهاشميَّة ، وحضرتها نخبةٌ من الأساتذة الكبار ، والمثقفين ، وفضلاء البلد ، وأدارها الأستاذ محمد إبراهيم شقرة مدير المعهد الشرعي ، ووجَّه السؤال الآتي : العالم الإسلامي بأسره اليوم يعيش حيرةً مرديةً ، عقيدةً ، وتصوراً ، وسلوكاً ، وأبرز ما تكون هذه الحيرة في الشباب المسلم في بلادنا خاصَّة ، فنريد أن نعرف أولًا : ما هي الأسباب التي خلقت هذه الحيرة ، أو ساعدت على وجودها ؟ وما هو العلاج الصحيح لهذه الحيرة ؟ وما هو الدور الإيجابي الذي ينبغي للدولة أن تقدمه في هذا الموضوع ؟

وكان جواب العلامة الندوي في هذه الندوة وحديثه حول هذا الموضوع كما يلي :

يسعدني جداً أن أكون موضع ثقةٍ في هذه الندوة العلميَّة ، وأن يوجه إليَّ وإلى زملائي هذا السؤال الذي هو في صميم الواقع ، وهو تصويرٌ واقعيٌّ للواقع الذي نعيش فيه .

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها العاشر المجلد الثاني والعشرون عام ١٩٧٨م .

إني أصارحكم أيها السادة ! أنِّي كنت مستغرباً جداً إذا لم يكن الشباب الإسلامي في حيرةٍ كما تجدونه ، وتشعرون به ، إنَّ الشجرة لا تلام على ثمرتها ، إنَّ في إمكان البستاني ألا يغرس شجرةً من الشجرات ، ولكن ليس من المعقول ، وليس من الطبيعي أنه إذا غرس شجرةً معينةً ، ثم سهر عليها ، وغذاها ، ونماها ، وسقاها ، وأحيا ليالي متواليةً ، ووقف في وهج الشمس ، وفي البرد القارس ، ليحرس هذه الشجرة ، ولتُؤتي أكلها بعد حين ، ثم إذا آتت أكلها الطبيعية ؛ لامها ، ونزل عليها غضباً ، وأنكر منها هذه الثمرة ، هذا شيءٌ غير معقولٍ ، وغير طبيعي ؛ لأنَّ طبيعة الشجرة هي طبيعة الشجرة منذ خلق الله هذا الكون ، ومنذ خلق هذه الشجرة ، فشجرة الزيتون هي ستعطي ثمر الزيتون ، وشجرة الرُّمان ستعطي الرمان ، وهكذا .

إنَّ من أعظم الأسباب في هذه الحيرة التي يعانيها الشباب المسلم بصفةٍ خاصَّةٍ وشباب العالم عامَّة هو التناقض في التوجيه ، والإعلام والتربية ، تناقض بين ما ورثوه ، وبين ما يعيشونه ، وبين ما يلقنونه تلقيناً ، وبين ما يطلبه منهم علماء الدين ، هذا التناقض العجيب الذي سلط عليهم ، ومنوا به هو السرُّ في هذه الحيرة ، هذه الحيرة المردية ، هنالك عقائد آمنوا بها كمسلمٍ ولد في بيت إسلاميٍّ في أسرةٍ إسلاميَّةٍ ، ونشأ على كثيرٍ من العقائد ، وتلقَّاها بوعيٍ ، أو بغير وعيٍ ، ثم إنَّه نشأ في بيئةٍ دينيةٍ ، تؤمن بمبادىء الإسلام ، وقرأ التاريخ الإسلامي ـ إذا أكرمه الله بذلك ، وتسنت له هذه الفرصة الكريمة ـ وكان سعيداً بوجوده في بيئةٍ واعيةٍ دينيةٍ ، ثم سيق ـ ومعذرتي إلى اختيار هذه الكلمة ، لأنَّه لا يزال في سنٍّ مبكرة ، وليس له خيار ـ إلى دور ثقافةٍ ، يسمع فيها من أولئك الأساتذة الذين يجلُّهم ؛ لأنهم أصحاب اختصاصٍ ، وأصحاب زعامةٍ في كثيرٍ من العلوم ، كلَّ ما ينقض ما أبرمته البيئة ، وكلَّ ما غرسته في قلبه وعقله من التربية الإسلاميَّة ، يسمع ويرى كلَّ ما ينفي ذلك ، أو ما يقلِّل قيمته على الأقل ، فيقع في تناقضٍ عجيبٍ ، وفي صراعٍ فكريٍّ عنيفٍ ، وهذا الصِّراع الفكري يدوم معه إلى أن يشاء الله ، أو تحدث معجزةٌ ، إنها حقَّاً في هذه البيئة التي يعيش فيها ، صراعٌ

من أدق أنواع الصراع ، ومن أصعب أنواعه ، الصِّراع بين القوى المتعارضة ، إنَّه قد يواجه الصراع في ساحة القتال ، ومدَّة ساحة القتال قصيرةٌ وإن طالت ، ولكن هذا الصراع يعالجه دائماً ، إنَّه يعالجه في المسجد ، ويعالجه في المدرسة ، ويعالجه في البيت ، ويعالجه فيما بينه وبين نفسه ، هذا الصراع المرير الهائل العميق ، يتلقى من مؤسسة « الإعلام » ومؤسسة الصحافة بالمعنى العام ، ومن التلفزيون الذي جاء حديثاً ، يسمعون إذاعاتٍ وأحاديث ، وبرامج تقضي على البقية الباقية من آثار التربية القديمة ، وتحدث فيهم ثورةً فكريةً ، وقلقاً نفسيّاً ، والصحافة التي هي « صاحبة الجلالة » في نظرِ كثير من الناس تقدم إليهم في أول النهار الغذاء الفاسد العفن ، والمواد المثيرة المهيجة للعواطف ، قبل أن يكسروا الصفرا ، على تعبير إخواننا السوريين ، وقبل أن يتلوا شيئاً من القرآن ، فأول ما يقع عليه نظرهم صورةٌ عاريةٌ لفتاة ، وعناوين مثيرةٌ للغرائز ، أو مقالاتٌ مثيرةٌ للشكوك ، مزعزعةٌ للإيمان والثقة ، فيتلقون هذا في رغبةٍ ونهامةٍ ، وفي شوقٍ واستجابةٍ ، إنه يقع في أيديهم كتبٌ علميةٌ لها عناوين هائلة ، وأسماء مرعبة ، صادرةٌ من أناسٍ آمنوا بفضلهم وعبقريتهم ، فيرون ما يشككهم في التاريخ الإسلامي ، يشكِّكهم في مصادر الشريعة الإسلامية ، وحتى في مصادر اللغة والأدب الأولى ، ويشككهم في صلاحية هذه الأمة ، وفي خلود الرسالة التي يحملونها ، يشككهم في صلاحية اللغة العربية ، فيتلقون هذا المزيج العجيب ، وهذه الخميرة العجيبة ، من أفكار ومبادىء وإغراءاتٍ ، ومن نظرياتٍ علميةٍ ، ويقعون من كلِّ ذلك في حيرةٍ لا تعدلها حيرة ، فخليقٌ بكلِّ هذا أن يوقع الإنسان ـ وإن كان ناضج الفكرة ، مختمر العقل ، حصيف الرأي ـ في حيرةٍ ، فكيف بالشباب الغضِّ الناعم ، وكيف لهذه البراعم الناعمة التي لم تتفتح بعد ، كيف يرجى منهم أن يقفوا أمام التيارات المتصارعة ؟!

إنَّ مثل ذلك أيها الإخوان السادة ! كمثل عجلةٍ أو مركبةٍ ركب فيها فرسٌ في الأمام ، وركب فيها فرس في الوراء ، وكلاهما قويان ، فكما أنَّ هذه العجلة من المعقول جدّاً أن يكون ركابها في حيرةٍ من أمرهم ، هذا يجرُّها إلى

الأمام ، وهذا يجرُّها إلى الوراء ، فكذلك الشباب يتأرجحون في أرجوحةٍ يميناً وشمالاً .

إنَّ الأدب الذي لم يزل يواجهنا منذ خمسين سنة على الأقل من العواصم العربية الكبرى ؛ التي كان لها التوجيه ، وكانت لها الزعامة الفكرية والدينية ، غرس في قلوب الناشئة وفي قلوب الشباب ، بل في قلوب كثيرٍ من الكهول بذوراً من الشكِّ والاضطراب ، تشككوا حتى في وجودهم ، تشككوا في كلِّ ما تواتر واستفاض ، وأصبح من قبيلِ البديهيات ، إنَّ هذه الكتب التي أريد من ورائها رزقٌ ، أو شهرةٌ ، أو زعامةٌ فكريةٌ ، أو هتافٌ ، أو تصفيقٌ حادٌّ ، إنَّ هذه كلَّها غرست في قلوب شبابنا الشكَّ ، والحيرة ، والتناقض ، فأنا لا أستغرب هـذا الوضع ؛ وهذا هو السبب الرئيسيُّ ، والسرُّ في حيرة الشباب .

أما بخصوص العلاج فإنني أعتقد أنَّ أول خطوةٍ يجب أن نخطوها نحو إنقاذ الشباب من هذه الحيرة المردية هي توحيد نظام التعليم ، ولستم في حاجةٍ إلى شرح هذه النقطة ؛ إنَّ المعسكر التعليمي موزَّعٌ بين قسمين : المعسكر الديني ، والمعسكر اللاديني ، أو العلماني ، أو المعسكر القديم ، والمعسكر الجديد ، وهذه الثنوية أو الازدواجية في التعليم ، هي السبب الأكبر في خلق هذه الحيرة التي يعيشها الشباب ؛ فأول خطوةٍ نخطوها إلى الغاية الصحيحة لإزالة هذه الحيرة ، هو تنسيق غايات التعليم ، ومواد التعليم ؛ فهنالك كما قلت تناقضٌ في المواد الدراسيّة ، فالذي يبنيه تعليم يهدمه تعليم آخر ، والعلوم التي لم تكن لها صلةٌ بالعقائد هي كذلك لها اتصال بالعقائد ، وما أصبح التعليم مجرداً ، إنَّ اعتقاد أنَّ من التعليم ما هو محائد ، وما هو نزيهٌ كلَّ النزاهة ، وما هو بعيدٌ كل البعد عن التأثير في العقيدة ، قد أصبحت نظريةً قديمةً ، ولا نصيب لها من الصحَّة ، فالخطوة الأولى ـ الخطوة الثورية الجذرية ـ هي إحداث تنسيقٍ في نظام التعليم ، فلا قديم ولا جديد ، ولا دينيَّ بالمعنى اللاهوتي ، وبالمعنى الكهنوتي المسيحي الأوربي ، ولا بالمعنى الإسلامي الصحيح ، فلا تعليم لاهوتي ، ولا تعليم دنيوي ، أو زمني أو

علماني ، بل التعليم وحدةٌ لا تتجزأ ، إنما ينقسم بين غايات ووسائل ، ولا بدَّ أن تكون بين هذه الوسائل وحدةٌ تربطها ، وتخضعها للغاية الأساسية .

ثم إزالة هذا التناقض ، الذي يعبِّر عنه لسان الشريعة ، ولسان القرآن بكلمة « النفاق » إنَّ هذا يحتاج إلى قلب نظام التعليم رأساً على عقب ، يعني : إحداث نظامٍ تعليمي ، كوحدةٍ متكاملةٍ متناسقةٍ ، وهذا يحتاج إلى ثورةٍ عارمةٍ ، إلى ثورةٍ جريئةٍ ودقيقةٍ شاملةٍ ، ويحتاج طبعاً إلى أناسٍ عندهم الأصالة الفكرية ، لا يعيشون متطفلين على مائدة الغرب ، إنَّه يحتاج إلى الاجتهاد في المواد الدراسيَّة ، وهذا يحتاج طبعاً إلى مشاريع عملاقةٍ ، وإلى جهودٍ كبيرةٍ واسعةِ النطاق ، عميقة الجذور ، ويحتاج كذلك إلى أن تتبناها الحكومات الإسلامية ، والمجامع الإسلامية الكبيرة ، فإذا نجحنا في تطوير نظام التعليم تطويراً جديداً ، وإذا نجحنا في إزالة النفاق عن هذا المجتمع الذي نعيش فيه ، إذاً من المؤمل أن ننقذ الشباب من هذه الحيرة المردية .

وأما ما يتَّصل بواجب الحكومات الإسلامية فلا شكَّ أنَّ دور الدولة عظيمٌ وحاسمٌ في إزالة هذه العوامل الهدامة ، وفي ردِّ المجتمع إلى حياةٍ سليمةٍ ، لا صراع فيها ، ولا حيرة ، ولكن هذا يتوقف على أن تكون عند الدولة فكرةٌ واضحةٌ ـ لست أعني دولةً دون دولةٍ ، ولا أعرِّض بدولةٍ ، إنما هو موضوع علمي ـ فكرةٌ واضحةٌ عن الدين الذي تؤمن به وتدين ، وعن الأهداف التي تتبناها ، وتريد أن تعيش هذه الأهداف ، ولا تعيش فقط ، بل تنمو وتزدهر ، وإذا آثرنا التعبير الإسلاميَّ الدينيَّ ، قلنا : « الإيمان والعقيدة » ، إيمانٌ راسخٌ ، وعقيدةٌ جازمةٌ بفضل الإسلام ، وبفضلِ الأهداف التي تدعو إليها ، وتعيش لها ، وأن تكون متمسكةً بمبدأ الهداية ، لا الجباية[1] .

ثم الإخلاص والعزم الصادق والتضحية التي لا غنى عنها ، هذه كلُّها

---

(١) وتمثل هذه الفكرة خير تمثيل جملة مأثورة عن سيدنا عمر بن عبد العزيز يخاطب بها أحد عماله الذي شكا إليه انتشار الإسلام والنقص في الجزية : « ويحك ! إن محمداً ﷺ إنما بعث هادياً ولم يبعث جابياً » .

عوامل لوجود بيئةٍ مناسبةٍ ، أو الأجواء المناسبة لنمو الشخصية الإسلامية ، وإكمالها ، ووصولها إلى الغاية المطلوبة .

إنَّني لست متشائماً ، ولا يائساً من دور الشباب ، ومن صلاحيتهم ، ومن حرصهم على أن يعملوا شيئاً في مجال الدَّعوة الإسلامية ، والفكرة الإسلامية ، وفي أن يمثلوا دورهم كشبابٍ مسلمٍ في هذا المعترك الفكري الذي لم يشاهد تاريخ الإنسانية معتركاً فكرياً مثله ، إنَّ الشباب طبقاتٌ وأقسامٌ كثيرةٌ ، وليس هناك طرازٌ واحدٌ من الشباب ، إنَّنا شاهدنا عدداً كبيراً من الشباب يتلهفون شوقاً إلى أن يلعبوا دورهم ، وهم في استعدادٍ تامٍّ ، وعندهم التألم الشديد مما هو واقع حولهم . إنَّ هؤلاء الشباب هم أمل اليوم ، وجيل المستقبل ، وفي الحقيقة : إنَّ الشباب هم الذين يستطيعون أن يحوِّلوا هذا التيار ، وعندي من المعلومات ما تؤكد لي أنَّ في الشباب مجالًا واسعاً للعمل الإسلامي ، والفكر الإسلامي ، وعندهم قلقٌ ، والقلق أول خطوات النمو ، والتقدم ، والتحسُّن . إنَّ الشباب قلقون اليوم ، وإنَّ الحضارة الغربية قد عجزت عن تسليتهم وإرضائهم ، وإنَّ هناك فراغاً لم يملأ ، ولا يمكن أن يملأ ، إنَّ هنالك ديناً واحداً يستطيع أن يملأ الفراغ الهائل الذي أحدثته أوربة بين القلب والروح ، والجسم والمادَّة ، وهذا من خصائص الحضارة الغربية التي لها تجارب خاصَّةٌ ، ومراحل معينةٌ مرَّت بها في رحلتها الطويلة ، ولكن مع الأسف الشديد ، ومن سوء حظِّ الإنسانية لما آلت القيادة إلى أوربة ؛ آثرت هذه الحضارة في تفكير الأمم التي كانت في عزلةٍ عن هذه التجارب ، تجارب مجتمع خاصٍّ ، كانت لدينه طبيعةٌ خاصَّةٌ ، وقد حدث فيه صراع بين الكنيسة والحكم ، وصراعٌ بين تعليم الدين ، وصراعٌ بين الكهنوت والعقل السليم ، والعلم الحديث ، هذا كلُّه من تجارب الغرب ، وكان الشرق غنياً عن هذه التجارب ، لم يكن منها في عيرٍ ولا نفيرٍ ، لكن فرض الغرب ، وفرضت الثقافة الغربية هذه التجارب ، وانطباعات هذه التجارب ، ومردود هذه التجارب ، وقيمة هذه التجارب ؛ فنظريَّة « الدين قضيةٌ شخصيَّةٌ » و« الفصل بين الدين والسياسة » هذه كلها تجارب الأمم الأوربية لظروفٍ خاصَّةٍ ، وأجواء

خاصةٍ ، وللطبيعة المسيحيَّة التي دانت بها أوربة ، ولكنَّها قد أشركت فيها الشعوب الشرقية من غير سببٍ ، ومن غير مبرِّرٍ ، فهذا الفراغ موجودٌ في الشباب ، والشباب بدؤوا يشعرون بهذا الفراغ . إنَّ ما نشاهده من انحرافاتٍ وشذوذٍ ، ومن مبالغاتٍ ، ومن تطرُّفٍ في حياة الشباب ، وكلُّ ذلك للشعور بهذا الفراغ ، وإنّني أستطيع أن أقول في ضوء تجاربي ومشاهداتي في الشرق ، وفي آسيا : إنَّ الشباب فيهم قابليةٌ واستعدادٌ كبيرٌ ليكونوا قادة حركةٍ جديدةٍ ، وليخوضوا هذه المعركة .

ولكننا نعيش في عزلةٍ عن الشباب ، وعندنا كثيرٍ من سوء تفاهم ، ومن إساءة ظنٍّ ، ومن جهل للوضع الذي يعيش فيه الشباب ، فإذا ملئت هذه الفجوة بين الكهول والشباب ، وبين الدعاة إلى الدين ، وبين الشباب الجامعيين ، والشباب المثقفين بالثقافة الغربية ، يمكن أن نجرَّ عدداً كبيراً إلينا ، ونجعلهم مقتنعين مستجيبين لهذه الدعوة ، متحمِّسين لها ، ولكن ذلك يحتاج إلى مخططاتٍ دقيقةٍ عميقةٍ ، مخططاتٍ علميةٍ مدروسةٍ ، يحتاج ذلك إلى مكتبةٍ جديدةٍ ، يحتاج ذلك إلى أسلوبٍ جديدٍ في الحديث مع الشباب ، يحتاج ذلك إلى الحكمة التي أشار إليها القرآن بقوله : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] يحتاج ذلك إلى أن تكون عندنا أقلامٌ قويةٌ بليغةٌ ، وأن تكون عندنا تلك المقدرة البيانية ، والطلاوة الأدبية ، وحلاوة التعبير ، التي لا يمكن لدعوة أن تشقَّ طريقها إلى الأمام ، وأن تنفذ في عقول الشباب ، وفي نفوسهم عن غير هذا الطريق .

إننا نرى مع الأسف الشديد : أنَّ كثيراً من علمائنا الأفاضل يعتبرون التضلُّع من آداب اللغة ، والحصول على تلك المقدرة البيانية ، والأسلوب البليغ الذي يدخل إلى قرارة النفوس من فضول واجبات العلماء ، وعلى هامشها ، وقد يعتبرون ذلك ابتعاداً عن وظيفتهم ، وانحرافاً عن جادتهم ، مع أننا نرى أنَّ القرآن نوَّه بهذه الحقيقة ، وكلنا نؤمن : أنَّ الله سبحانه وتعالى هو أغنى الأغنياء ، ولكنه أنزل كتابه في أسلوبٍ معجزٍ ، وفي لسان عربيٍّ مبين ، ولم ينزله في لسانٍ عربيٍّ مبينٍ فحسب ، بل نوَّه بهذه الناحية في غير موضع من

مواضع القرآن ، فقال : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ ـ ١٩٥] ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : ٢] فمعنى ذلك : أنَّ ناحية اللفظ ، وناحية الأسلوب ، وناحية البلاغة ، ناحيةٌ مهمَّةٌ ، وإذا رجعنا إلى تاريخ الإصلاح والتجديد ؛ رأينا أنَّ الذين كانوا على قمة الإخلاص ، وعلى ذروة الانقطاع إلى الله ، وإلى الربانية الصادقة ، كانوا لا يستهينون بهذه الناحية ، إنما كانوا يهتمُّون بها كلَّ الاهتمام ، ولا أضرب المثل بالنبي ﷺ في هذه المناسبة ، لأنَّه صلى الله عليه وآله وسلم أفصح الفصحاء ، وأبلغ البلغاء من غير شكٍّ ، وهذا معروف عند الجميع ، ولكني أضرب المثل بسيدنا عليِّ بن أبي طالب ، إنَّه كان في قمةٍ من البلاغة ، ونواصل سيرنا إلى آخر القرون الإسلاميَّة ، فنرى أنّ من تبوَّأ القيادة ، أو الزعامة في الدَّعوة الإسلامية ؛ كانوا على جانبٍ عظيمٍ من البلاغة ، ومن فهم نفسيّة المخاطبين . إنني في الحقيقة اؤخذ بالحيرة إذا قرأت خطب سيدنا عبد القادر الجيلاني ، فأنا أرى أنَّ هذا الرجل الذي اشتهر في العالم كلِّه ، وفي جميع العصور بزهده ، وقناعته ، وبربانيته ، وبإشراقه ، وتبتله ، إنَّه يخاطب الجيل المعاصر ، والمجتمع الذي يعيش فيه في بغداد ، البلد الذي ولد فيه الحريري ، وولد فيه ابن الجوزي ، وولد فيه الصابي ، وولد فيه هؤلاء الشعراء ، وتغنى فيه البحتري ، والشريف الرضي ، والمتنبي ، وأبو تمام ، والمعري .

كانت بغداد عاصمة عالم الإسلام ، ومركز الخلافة العباسيّة ، كانت محطة كلِّ عبقريٍّ من جميع الأصناف ، فسيدنا عبد القادر الجيلاني نراه يخاطب الجيل المعاصر في بغداد بلسانٍ يحلق في البلاغة ، ويخاطبهم بأسلوب ساحرٍ ، بأسلوبٍ يبلغ إلى الأعماق ، بأسلوبٍ لا تزال له الصولة إلى الآن ، وإذا قرأنا خطبه التي دوَّنها المدوِّنون ، وحرصوا على نقل اللفظ الصحيح ، لاعتقادهم أنَّ ما يصدر من القلب يدخل في القلب ، وهذا كان من دواعي الحرص على نقل الكلام بالحرف .

وهذا كله يعطينا الفكرة عن أهمية الأدب والأسلوب ، إننا إذا أردنا أن

نوجِّه الشباب التوجيه الإسلامي العميق ، فعلينا أن نتسلَّح لذلك ، وأن نُعدَّ له عدته ، وأن نستوفي تلك الشروط التي كانت لكلِّ زمانٍ ومكان ، وهي لا تزال لها قيمتها ، وأهميتها ، وتأثيرها ، وهو إحداث مكتبةٍ إسلاميةٍ علمية ، تلائم عقلية الشباب ، وتؤثر فيها ، ويتقبلها الشباب بقبولٍ حسن ، بل يتشوَّقون إليها ، ويمدُّون إليها يدهم ، فإذا وفينا هذه الشروط فإني واثقٌ بأنَّ الشباب مستعدُّون ليكونوا لا مؤمنين بهذه الفكرة فحسب ، بل دعاةً متحمِّسين لهذه الفكرة والدعوة ، متفانين فيها ، متهالكين عليها ، لا يعدلون بها شيئاً .

* * *

تعليم المسلمين وتربيتهم العامة(١)

تعليم الأميين وتربيتهم :

يعرف الجميع أنَّ بعثة النبي ﷺ كانت في أمَّة أمِّيَّة جميعها ، أو كادت ، حتى ذكرت هذه الأمَّة باسم الأميين في القرآن ، حيث تناول القرآن ذكر بعثة النبي ﷺ وتعليمه للناس ، فقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [الجمعة : ٢] ومع هذه الأمية كانت هذه الأمَّة في ضلالةٍ لا يعبر عنها بأصدق من القرآن حيث قال : ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] وقال أيضاً : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، وما كانت غاية بعثة النبي ﷺ تعليم هذه الأمة الأميَّة الجاهلة بربها العليم فقط . بل كانت غاية بعثته تعليم الكتاب ، والحكمة عملياً ، وتهذيب أخلاقها ، وتزكية نفوسها ، وتفويض منصب المعلم والهادي المصلح إليها ، مع تحليتها بخصال الملائكة ، كما جاء في القرآن الكريم : ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة : ٢] .

لم تكن تكفي ولا تغني لإحداث ثورةٍ في مثل هذه الأمة العظيمة أيُّ مدرسة كبيرةٍ ، أو المدارس الكثيرة ، وهي لم تكن ترغب في التعليم والتربية ، بل لم تكن تتهيَّأ لسماع كلمة ما ، فكيف إذا لم تكن هناك أيُّ مدرسةٍ ، وفي مثل هذا الوضع ، حيث لم يكن يوجد هناك معلمون ، ولا طلبةٌ لمدرسةٍ واحدة ، إذا قامت هناك مدرسة أو مدارس لبقيت فائدتها وتأثيرها محدودةً مقصورةً ، ولم تنتج أكثر من أن يتعلم فيها عدة أفراد من الأذكياء

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في أعدادها الثاني والثالث والسادس ، المجلد الخامس والعشرون عام ١٩٨٠ ـ ١٩٨١م .

والراغبين في العلم مع إعجابهم بأنفسهم وزعمهم بأنهم طبقةٌ خاصَّةٌ ممتازة من بين الناس أجمعين ، ولكان قد انحصر العلم في مكانٍ واحدٍ ، وفي طبقةٍ محدودةٍ ، فضلاً عن أن ينتشر في الناس كلِّهم .

لا بدَّ من الإيمان قبل العلم :

إنَّ الأسلوب الذي اختاره النبي ﷺ للثورة العامة بتوفيق من الله هو معجزةٌ بذاتها نظراً إلى نجاحه ومنجزاته ونظراً إلى حكمته وسهولته أيضاً ، فقد نفخ النبيُّ ﷺ أولًا في هذه الأمة روح الطلب الصادق للدين ، والشعور بحاجة الدين ، وعلمه ؛ ذلك لكي تثق وتؤمن بوعد الله ـ روي عن صحابي رضي الله عنه « تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن » ـ وبقوة هذا الإيمان وطلبهم الصادق تركوا دارهم ، وتحملوا المشاق في سبيله ، وكان يسعى كلُّ فردٍ منهم لينال القدر اللازم من العلم ، وكان يعدُّ السفر في سبيله عبادةً ، والمحنة جهاداً ، والموت في سبيله شهادةً ، وكلُّ متعلم كان يرى من واجبه أن يعلِّم الآخرين ما هو يعلم .

مدرسةٌ سيارةٌ عمليةٌ :

كانت بداية هذا التعليم والتعلم من أول يومه بتطبيق العلم مع العمل ، والعمل مع العلم ، وكذلك تطبيق العلم مع التعليم والتعلم ، وكان المجتمع الإسلامي كلُّه مدرسةً علميةً سيارةً واسعة النطاق ، كان كلُّ فردٍ من هذه المدرسة طالباً بنفسه ، ومعلماً للآخرين ، ثم لم تكن تحفظ دروس هذا العلم في الخلوة ، بل كانت تثبت معانيها في قلوبهم بتوجيهها إلى الناس ، ونشرها في الجمهور مع تحمل المشاق ، والصبر على ما يلاقونه في سبيل ذلك من المصائب ، وكانت تشعل بها مجامر القلوب ، وكان واجب التعليم والإصلاح ، وتزكية النفوس يتأدَّى عملياً بالمعاشرة ، والاجتماع ، والمعاملات مع الناس ، وعلى سبيل المثال ، لم تكن تعلم هناك أصول السباحة وقواعدها على البرِّ ، ولا على الأيدي ، بل كانت تعلم ، وتمرن بها في تيار الحياة ، فمن تعلم كلمة الإسلام وآمن بالله ورسوله شدَّ المئزر ، وشمَّر

في طلب معرفة الربِّ بدلًا من طلب الرزق ، والسعي له ، ولم يبال بنفسه في طلب الدين والعمل به ولم يبتغ به بديلاً من أغراضه الدنيوية التافهة ، بل إنَّه كان يواجه بعد إيمانه محناً ، ويلقي نفسه في شدائد المصائب ، والآلام ، ثم يخرج منها سعيداً عزيزاً بعد مدَّةٍ من الزمن ، كما يخرج الإبريز من النار .

النفوس لا الرسوم :

كان هذا التعليم تعليماً عملياً في ميادين الجهاد ، ومسؤوليات الحياة ، وفتنة البيوت ، ومنازل السفر ، ولم تكن أجهزة هذا التعليم الرسوم الجامدة ، بل كانت أجهزته النفوس المتحركة المتحولة ؛ التي كانت تؤثر صحبتها في كل مناسبة ، ولدى كلِّ حاجةٍ تأثيراً عملياً ، فكان المرء يتعلم بذلك اللباقة في مجال العمل والتطبيق ، عدا وسائل الدين ، ومفاهيمه ، كما يتعلم الإنسان اللغة بين أصحابها ، والحضارة ، وحسن المعاشرة بين المثقفين ، والقائمين بها ، هكذا كان يتعلم الدِّين بمصاحبة أهله في أسلوب طبيعي .

إنَّ هذا الأسلوب لتعليم الدين أسلوبٌ طبيعيٌّ سهل كأسلوب تعليم اللغة بين أصحابها وناطقيها ـ كذلك تعليم الدين بالاختلاط مع الناس وبصحبتهم ، والتعليم بالنفوس بدلًا من الكتب والرسوم أسلوب الأنبياء ، وبالأخصِّ ميزة تعليم سيدنا محمد ﷺ الذي لم يكن أسلوب التعليم عنده النقل من كتابٍ إلى كتابٍ آخر ـ بل كان النبي ﷺ يأخذ من ربه ويكتب على ألواح القلوب ، ثم يعلم بهم الآخرين وبهذا الأسلوب يستطيع ملايين من الناس أن يتعلَّموا العلم الضروري في مدَّةٍ يسيرةٍ ، كما أنَّ هذا الأسلوب يخلو من نقائص العمل والتأثير التي طالما توجد في التعليم اللفظي .

ليس الكتاب في الحقيقة إلا ميزاناً يعرف به الخطأ والصواب ، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « من كان مستناً فليستن بمن قد مات ، فإنَّ الحي لا يؤمن عليه الفتنة » والوسيلة العظيمة لاقتداء السلف الصالح هي الكتاب ، ولكن الكتب والصحائف العلمية لا تتعدَّى فوائدها بدون المعاشرة ، والأسوة العلمية ، فهي في الحقيقة ذريعة للاستفادة الكاملة منها ، ولكن كان

من الخطأ أن اتكل الناس على الكتب في اكتساب العلم ، واقتنعوا به ، الأمر الذي أنتج أنَّ تعلم الدين أصبح أمراً صعباً ، وصارت دائرته محدودةً جداً كذلك ، وحرم أهل الحرف والأشغال من حصوله ، ويئسوا منه ، ولم يتيسر حصول الدين إلا لنبذة من الأمَّة ورجال معدودين ممن كان في استطاعتهم أن يفرغوا حياتهم لذلك ، فانحسر العلم في طبقةٍ صغيرةٍ محدودةٍ ، وبقيت الأمة أكثرها في جهلٍ ويأسٍ .

ثم إذا صحَّ أنَّ المتعلم يتفاعل مع العلم ؛ فلا بدَّ أن نعترف بأنَّ الكتب ورسومها يتولد منها الجمود الذي لا يحرك ساكناً ، ولا يثير العواطف الكامنة الخامدة في الإنسان ، ولكنَّ الإنسان المتحرك يثير النشاط ، والحماس ، وكذلك لا يحصل فهمٌ صحيحٌ للدين ، ولا الحكمة العملية بدون الصحبة ، والرفقة ، وبدون الحركة والعمل ؛ إذ أنَّ عملاً واحداً صحيحاً يكشف الحجاب عن ألف خطأ .

إنَّ الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين تعلموا الدين والعلم بالصحبة والخدمة ، فميزتهم معهم في دينهم وعلم دينهم إلى يوم القيامة ، ولا شكَّ أنَّهم كانوا فائزين بحقيقة الدين وروحه وجوهره ، كما يصور ذلك الصحابيُّ الجليل سيدنا عبد الله بن مسعود تصويراً صادقاً بليغاً لا يمكن أبلغ منه ، فقال عنهم :

« أولئك أصحاب محمد ﷺ أبرُّ الناس قلوباً ، وأعمقهم علماً ، وأقلهم تكلفاً » .

السفر والهجرة في سبيل العلم الديني :

بعد هذه الميزة التي ذكرناها آنفاً ، كانت هناك ميزةٌ أخرى ، وهي أنَّ المسلمين دعوا إلى الخروج لمدة من الزمن من بيئتهم وأشغالهم ليطلبوا العلم ؛ إذ لم تكن العناية بالطلب ميسورةً لهم مع هذه الشواغل والعلائق ، وما كان في استطاعتهم في هذا الجو وفي هذه الأحوال الخاصَّة أن يحدثوا تغييراً ، أو انقلاباً في حياتهم ، وكانت المدينة مركزاً وحيداً بعد الهجرة ،

حيث كان يوجد جوٌّ إسلاميٌّ كامل ، وكان من المستطاع أن يشاهد هناك الدين الإسلامي في صورةٍ حيَّةٍ متحرِّكةٍ ، فدعي مسلمو العرب كلُّهم إلى أن يأتوا إلى هذا الجوِّ الإسلامي في المدينة المنورة ، ويتعلَّموا الدين هناك ، ثم يرجعوا . . ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

وكان يشترط لطلب العلم الاجتهاد العملي ، والإيثار ، والتضحية بالنفس والنفائس ، واحتمال المشاق إلى حدٍّ ما ، كان من امتحان حب الدين وطلبه الصادق أن يستعدَّ الإنسان لترك مألوفاته ورغائبه : إذ أنَّ ترك المألوفات ومخالفة النفس أكبرُ جهادٍ للمرء وذلك يتيسر بالهجرة بسهولةٍ ؛ إذ أنَّ الوطن جامع لمئات من المألوفات ، والرغائب ، ومفارقته على النفس شاقةٌ جداً ، وهذا الذي يعبر عنه القرآن بالهجرة ، كما قال في المنافقين : ﴿ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [النساء : ٨٩] .

هذه الآية مدنيةٌ ، ومن المعلوم أنَّ المنافقين كانوا يسكنون المدينة المنورة وحواليها ، فقد جاء في سورة التوبة : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾ [التوبة : ١٠١] .

العلم الديني والسعي للدين أمرٌ لا بدَّ منه لكلِّ مسلم :

يتبين من القرآن والسنَّة بكلِّ وضوحٍ أنَّ علم الدين ، وتبليغ تعاليم الدين إلى الناس ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وبذل المجهود لنشر الدين وإعلاء كلمته واجبٌ على كلِّ مسلم وجزء من حياته مهم ، فالمسلم في العهد النبوي سواء كان فلاحاً أو تاجراً ، فقيراً أو غنياً ، جاهلاً أو أميَّاً كان يفرغ وقتاً من أوقات ليله ونهاره في طلب الدين وخدمته ، وإن كان يشتغل بكسب المعاش والحوائج اللازمة في أوقات الفراغ ، وكلما دعتهم حاجةٌ أو أمرٌ مهمٌّ للدين قدَّموه على كلِّ عملٍ آخر من أمور الدنيا إسهاماً في العمل الديني ، ومن تغافل عنه ، أو لم ينفض يده من مألوفاته ومرغوباته أخذ

بالعتاب الشديد ، فإنَّ سورة التوبة مليئة بهذا العتاب ، ولما تخلف كعب بن مالك عن غزوة تبوك أخذ بالعتاب والتأنيب بحيث إنَّ الأرض ضاقت عليه بما رحبت ، لم يكن هناك من يخاطبه أو يلتفت إليه ويحدثه .

أما في زماننا هذا فقد انقلب الوضع رأساً على عقب ؛ إذ أنَّ تعلم الدين وخدمته والسعي له ، والعمل به لم يعد أمراً مهماً واجباً على كلِّ فردٍ من أفراد الأمَّة بل صار جزءاً من أعمال الأمة ، واختص له أفراد ، وأما بقية الأمة فصارت بمعزل عنها ، كأنها ليست عليها مسؤولية مع أنَّ القرآن يصف المسلمين ، فيقول : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ ﴾ [التوبة : ٧١] .

إنَّ وصف المسلمين في هذه المناسبة بالمؤمنين يؤكد : أنَّ هذه الأعمال من عامة واجباتهم ، وعلتها الإيمان ، ولا شكَّ أنَّ هذا التغير في المسلمين كان تحريفاً عملياً في حياة المسلمين ، ولم يكن يوجد هذا التخصيص والاستثناء في عهد الرسول ﷺ ، ولا في عهد الصحابة رضي الله عنهم ، كان طلب الدين وخدمته فريضةً شاملةً للجميع ، ولم يستثن منها تاجر المدينة ، ولا فلاحها ، وزارعها ، وعندما طلبت طائفة من الأنصار الرخصة من الجهاد لمدةٍ من الزمن ليصلحوا أمور دنياهم ويقيموا أياماً مع الأهل بحجة أنَّ الإسلام قد انتشر ، وأنَّ العاملين للدين لم يعودوا قلة ، نزلت هذه الآية : ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِۛ ﴾ [البقرة : ١٩٥] كأنَّ القعود عن خدمة الدين ، وإعلاء كلمة الله كان يرادف الانتحار .

تعليم الدين وخدمته مع أشغال الحياة :

ونشأ هناك وهم آخر ، وهو : أن الاشتغال بكسب المعاش لا يتيح فرصة لخدمة الدين ، ولا يترك المرء أهلاً للقيام بخدمة الدين ، ما لم يتفرغ كلياً لهذا العمل ، وانحاز عن الدنيا إلى الدين وحده ، ولا شكَّ أنَّه لا يقدم على هذه التضحية العظيمة إلا نبذةٌ من الرجال ، ومع هذا التفكير بدأ يتناقص طلاب

الدين والعاملون له تدريجياً ، وأما العامة من المسلمين الذين كانوا منهمكين بأشغالهم وما كان خروجهم منها أمراً ميسوراً ، ظنوا أنفسهم محرومين من سعادة خدمة الدين والعمل له ، واقتنعوا بما كانوا يظنونه عملاً دنيوياً ، كما قال الله عز وجل : ﴿ وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ﴾ [يونس : ٧] وماتوا محرومين من سعادة طلب العلم ، ونعمة الدين ، وخدمته ، مع أنَّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يجمعون بين عمل الدنيا وخدمة الدين ، فكان فيهم تجار ، وزراع ، وأهل الحرف ، ولكنهم ما تركوا طلب العلم ، وما قعدوا عن خدمة الدين على أيِّ حال ، وخاصة أولئك الذين كانوا يدعون بالقراء « أي : طلاب العلم وعلماء الدين ، إنما كانوا يشتغلون بالعمل ، أو التجارة نهاراً ويقرؤون في الليل » .

« عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أفلا أحدثكم عن إخوانكم الذين كنا نسميهم على عهد رسول الله ﷺ القراء ، فذكر أنَّهم كانوا سبعين فكانوا إذا جنَّهم الليل ؛ انطلقوا إلى معلم لهم بالمدينة ؛ فيدرسون الليل حتى يصبحوا ، فإذا أصبحوا فمن كانت له قوة استعذب من الماء وأصاب من الحطب ، ومن كانت عنده سعة اجتمعوا ، فاشتروا الشاة ، وأصلحوها فيصبح ذلك معلقاً بحجر رسول الله ﷺ » . (مسند أحمد بن حنبل ص١٣٧ ج٣) .

وكانوا يهتمون بهذا الطلب اهتماماً بالغاً ، حتى إذا لم تسنح لأحدٍ منهم فرصة الحضور بسبب ما ، كان يتفق على التناوب ، فإذا غاب أحدهم عن مجلس الرسول ﷺ حضر جاره ، أو أخوه ، فيخبر الأول بما دار في المجلس من حديث ، وما نزل فيه من آيةٍ ، ورغم ذلك أيضاً من غاب عن مجلس الرسول ﷺ يقضي يومه في قلقٍ وأسف ، فعن عمر رضي الله عنه يقول : « إني كنت وجارٌ لي من الأنصار في حي بني أمية بن زيد ، وهي من عوالي المدينة ، وكنا نتناوب النزول عند النبي ﷺ فينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلته جئته من خبر ذلك اليوم من الأمر وغيره وإذا نزل فعل مثله » .

منهج العمل :

فالأمة الإسلامية اليوم في حاجة ملحَّةٍ إلى تجديد نفس المنهج الذي كان متبعاً في العصر النبوي لتعلم الدين في شكلٍ عملي مطابق للفطرة الإنسانية ، وهي في حاجةٍ إلى أن تضمَّ مع رسوم الكتاب الاستفادة من النفوس الحية فإنه هو أسهل وأعم طريق للتعليم ، فلتكن تحت إشراف هذه المدارس والمعاهد العلمية مدارس سيارة ، ومراكز تربية نشيطة ، وصحائف ناطقة تملأ صدورها من العلوم النبوية في هذه المدارس الدينية ، وتسقي جوانب الحياة العامة في القطاعات المختلفة ، إذاً لا بدَّ من فتح الأبواب العلمية للمجهودات الدينية ، وإذاً لا بدَّ من بعث الهمم للعمل في سبيل الدين ، وإثارة النفوس للخروج في سبيل الطلب للعلم النبوي من جديد ، ذلك الذي تناساه الناس ، وأهملوه منذ زمنٍ بعيد . هذه هي طبيعة الإسلام ، ووضع العلم الديني الطبيعي ، وسنة الله الجارية في هذا الكون .

فالحاجة ملحةٌ إلى أن تتجدد تحركات عملية لخدمة الدين وتعلمه ، وتصبح خدمة الدين والسعي له جزءاً لازماً لحياة المسلمين ، فيجعل المسلمون مشاغل حياتهم ومعاشهم تابعةً للدين ؛ إذ يقول الله عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] وهذا هو رأس مال الحياة ، ولم يخلق المسلم إلا لهذا الغرض السامي الذي تشير إليه الآية : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] نعم ، إذا توفر الوقت من هذا العمل العظيم يُشْغَل بكسب المعاش بدلًا من أن ينقضي ذلك في راحة وبطالةٍ ؛ إذ « إن الله يحب المؤمن المحترف » .

قد لا يتمكن الناس من تفريغ أوقاتهم لتعلم الدين ؛ بسبب أعمالهم ، وأشغالهم السائدة على بيئتهم ، ولا يستفيدون من الدعوة استفادةً تامةً ، فيمكن حثهم على الخروج في سبيل الله ، والاغتراب لمدَّةٍ من الزمان لكي يتسنى لهم تعلم الدين ، والاستفادة من خدمة أصحاب الدين والعلم ، وليتعودوا على الإقامة في بيئةٍ دينية خالصة ، وفي جوٍّ تربويٍّ لا يتيسر لهم في

وطنهم ، وفي زحمة أشغالهم ، فيكون خروجهم درساً مفيداً مباركاً لهم ولغيرهم كذلك ، ويثير العواطف الروحانية الكامنة التي غطتها عليهم أشغال الحياة وأعمال الكسب والمعاش .

هذه هي المبادىء والأغراض السامية التي يدعو الشيخ محمد إلياس رحمه الله من أجلها كلَّ طبقة من المسلمين إلى الخروج من بيوتهم وأوطانهم وتحمل مشاق الغربة والسفر تحت نظامٍ خاصٍّ يسهل لهم تعلم الدين ، يقول في إحدى رسائله التي وجهها إلى بعض إخوانه موضحاً هذه الأغراض : « إننا تركنا الخروج في صورة الجماعة لتعلم الدين مع أنَّ هذا أصل أساسيٌّ ، كان النبي ﷺ يطوف بنفسه ، ويتجول بهذه الدعوة ، ومن يأتيه فهو كذلك يطوف ولهان في سبيل هذه الدعوة ، كان عدد المسلمين في مكة قبل الهجرة إلى المدينة قليلاً في عدد الأفراد ، فكلُّ من كان يعتنق الإسلام كان يقوم بدعوة الحق إلى الآخرين منفرداً ، ولما هاجر المسلمون إلى المدينة والنبي ﷺ ، وتكونت هناك حياةٌ اجتماعيةٌ متمدِّنة لم يلبث النبيُّ ﷺ إلا وجعل يبعث جماعات المسلمين إلى أنحاء المدينة كلها ، وقد تحوَّلت حياتهم إلى حركةٍ وتجوال ، وما كان يتمتع بحياة الإقامة والهدوء إلا الذين كانوا مرجعاً لهؤلاء المتجولين ، وجملة الكلام : أنَّ الحركة والتنقل من مكانٍ إلى مكانٍ والجدَّ والاجتهاد للدين كان أصلاً ، وعندما انحرف المسلمون عن سيرتهم هذه انفلتت الخلافة من أيديهم » .

ولكن ماذا ينبغي أن تكون حالة من خرج في سبيل الدَّعوة وإلى أيِّ شيء يدعو الناس ، وبأيِّ أسلوبٍ يدعوهم ؟ فلنقرأ ذلك في بيان الشيخ محمد إلياس رحمه الله يقول :

« توجه الدعوة إلى أمرين فقط ، وما عداهما فهو ظل وشبه لهما ، أولهما ماديٌّ والآخر روحاني ، وأريد من المادي ما يتعلق بالجوارح ، وهو أن نسيح في البلاد والأقطار لتبليغ ما جاء به النبي ﷺ في شكلٍ جماعي ، ولنحيي هذه السنة النبوية ترويجاً لها وتحكيماً ، وأريد من الروحاني تربية العواطف الدينية والتضحية بالنفوس في سبيل الله ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ

حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

المبادىء الستة :

إذا أزمعت جماعة على الخروج يجب أن تراعي من الأمور ما هو الأهم أولًا بأول :

تصحيح الكلمة وتبليغها :

من سوء الحظ أن كثيراً منا يهملون معنى كلمة الإسلام ، ولا يعرفونه ، ولذلك ندعو أولًا إخواننا إلى تعلم هذه الكلمة ـ كلمة ـ « لا إله إلا الله محمد رسول الله » التي هي إقرار بربوبية الله ، ويعني ذلك : أنَّه لا يهمُّ المؤمن سوى أن يضحي بنفسه في سبيل الله .

تصحيح الصلاة :

وبعد تصحيح هذه الكلمة يجب أن نهتم بتصحيح أمور الصلاة من الخشوع ، والخضوع ، كما كان النبي ﷺ يصليها .

حصول العلم والذكر :

يجب أن نشغل أوقاتنا الثلاثة (الصبح ، والمساء ، وجزءاً من الليل) بتحصيل العلم ، والذكر لله تعالى حسب ما يتيسر .

تفريغ الوقت لهذا الغرض النبيل :

فلنفرغ جزءاً من أوقاتنا لتبليغ هذه الأمور والخروج إلى بلادٍ أخرى ؛ معتقدين أنَّ هذا هو العمل النبوي الكريم الذي بعث لأجله نبينا محمد ﷺ وأخرجت له هذه الأمَّة .

التخلق بالخلق الجميل :

ولتكن من نية من يخرج في سبيل الدعوة والتبليغ أن يؤدي واجباته نحو الخلق والخالق ، فكلُّ امرىء مسؤول عما قام به من العمل .

تصحيح النية :

السعي للحصول على رضا الرب تبارك وتعالى ولإصلاح حياة الآخرة وفقاً لما وعد الله به من المثوبة على العمل في الدنيا .

إنَّ هذه الحركة والتنقل ، وهذا السفر والغربة لمدةٍ قليلةٍ لتعليم الدين ، وتبليغ أوامر الله ورسوله إلى الآخرين ومفارقة مرغوباتٍ ومألوفاتٍ لمدَّةٍ من الزمن ، وتغييرٍ خفيفٍ في العادات ؛ شيء حقير بإزاء ما يعقبها من الفوائد والمنافع ، كما أنَّها طريقٌ سهلٌ للشكر على هذه النعمة العظيمة .

الدين الذي لا يقوم بآلاف من النفوس أن يضحي بها ، والدين الذي كان ثمنه الأصلي لوعة القلب وإهراق دم العين هو ذلك الدين الذي إذا خرجنا في سبيله ، وبذلنا فيه بعض الجهود ، لا يمكن أن يكون قيمة حقيرة له حيال الواجب الأصيل الذي يعود علينا ، ولكن رحمة الله الواسعة تبشر دعاة هذا الزمن الأخير بالأجر ما يساوي أجور خمسين صحابياً ، وإنَّ بشارة ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] تبعث فينا أملاً كبيراً[١] ، وكتب الشيخ محمد إلياس إلى تلميذٍ له أصيب بمرض في مثل هذا السفر : أريد أن أهنئك على هذا المرض الذي كان بسبب الخروج في سبيل الله في هذا القرن الرابع عشر .

هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

إنَّ مرضك هذا لا يختلف في صورته عن آلاف من الرجال الذين يصابون بالحمَّى ، ولا أهمية لهذا المرض في مثل هذا الزمن الذي يضحي فيه الناس بنفوسهم في سبيل البطن والمعدة ، ويا لها من حمَّى تكون بسبب الخروج في

(١) من رسالة للشيخ محمد إلياس رحمة الله عليه .

سبيل الله للدعوة إلى أسلوب من الحياة إذا عمَّ وانفتح له الطريق بتضحياتٍ جسامٍ ؛ لنال بها أفراد هذه الأمة الذين لا تترك لهم أمور دنياهم طريقاً نحو الرشد والهداية ، وتمهد لهم الطريق للإسهام في عمل الدَّعوة إلى الله التي تضمحل آثارها اليوم .

ملاك الأمر على الطالبين :

إنَّ شؤون التعليم والتربية قد حدث فيها تغيير كبير بالنسبة إلى القرون الأولى ، وهو أنَّ نطاق التعليم قد تحدد في الطلاب ، وانحصر بينهم اليوم ، لقد كان طلاب العلم والتربية يتلقون تربية النفس والتزكية مع التعليم في القرون الأولى ، أما الآن فقد انصرفت العناية عمن زال فيهم الشعور بالمرض ، وحرموا دافع الطلب والتعلم بتاتاً إلى غيرهم ، مع أنَّهم كانوا بأمسِّ حاجةٍ كذلك إلى إثارة دوافع الطلب وإيقاظ الشعور فيهم .

وعندما يقترب موعد بعثة الأنبياء يعيش العالم آنذاك في تهورٍ عظيم ولا يبالي بالنفع والضرر ، وهنالك يبعث الأنبياء عليهم السلام ، فينفخون في الناس روح الطلب ، ويصنعون من هؤلاء رجالًا عاملين ، وذلك هو العمل الذي يسمى بالتبليغ والتربية .

وقد تناول الإمام الغزالي هذا المعنى بالإيضاح والشرح في كتابه « إحياء علوم الدين » يقول : « وإن كان لا يدري أنَّ ما يرتكبه ذنبٌ فعلى العالم أن يعرف ذلك ، وذلك بأن يتكفل كل عالم بإقليم ، أو بلدةٍ ، أو محلةٍ ، أو مسجدٍ ، أو مشهدٍ ، فيعلم أهله دينهم ، ويميز ما يضرهم عما ينفعهم ، وما يشقيهم عما يسعدهم ، ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يسأل عنه بل ينبغي أن يتصدَّى لدعوة الناس إلى نفسه فإنَّهم ورثة الأنبياء ، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم ، بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ، ويطلبونهم واحداً واحداً ، فيرشدونهم ، فإن مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم ، كما أنَّ الذي ظهر على وجهه برص ، ولا مرآة معه لا يعرف برصه ما لم يعرفه غيره ، وهذا فرض عين على العلماء كافة وعلى

السلاطين كافة أن يربوا في كل قرية ، وفي كل محلة فقيهاً متديناً يعلم الناس دينهم ، فإن الخلق لا يولدون إلا جهالًا فلا بدَّ من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع ، والدنيا دار المرض ، إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ، ولا على ظهرها إلا سقيم ، ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان »[١] .

إيقاظ دافع الطلب والشعور به :

ونحن الآن في أمسِّ حاجةٍ إلى إيقاظ شعور المسلمين بإسلاميتهم وإلى أن يُؤكد لهم أن الدين لا يتحقق بدون الطلب والشعور به ، وأن الحاجة إلى تعلم الدين أشد من حاجة المرء إلى تعلم الصناعات والمهن ، فإذا نشأت فيهم عاطفة الطلب والشعور به تيسرت المراحل القادمة بنفسها ، والمرض الشائع العام في المسلمين اليوم هو فقدان الحس والطلب ، وقد ظن الناس ـ من خطأ ـ أنَّ الإيمان موجود في القلوب فاشتغلوا بأمور تتبع الإيمان ، وتأتي في المنزلة الثانية بعده ، والحقيقة أننا بحاجة إلى تجديد الإيمان قبل كل شيء .

وكل ما وجد من مظاهر ازدهار الإسلام وتقدمه وجماله في القرون الماضية إن هو إلا ثمرة للشعور الصحيح بالدين والطلب ، ولجهود السلف ورجال الدعوة في القرون الأولى ، وليس ما نجده اليوم من البقية الباقية لشعار الإسلام والتدين والمعاهد الدينية إلا نتيجة لهذا الطلب والشعور الذي كان قد تولد في المسلمين بجهود أصحاب النبي ﷺ والسلف الصالح ، وبتضحيتهم ، وتبليغهم ، ولا نزال نستفيد من هذه الذخيرة منذ قرونٍ من غير إضافةٍ وزيادةٍ فيها ، فالخطر كل الخطر أن تنفذ هذه الذخيرة في يومٍ من الأيام ولا يبقى منها شيءٌ ، ويبقى المسلمون كجسمٍ لا روح فيه .

إنَّ وجود طلاب العلم في المدارس الإسلاميَّة والمصلِّين في المساجد اليوم يتوقف على هذا الشعور الباقي في المسلمين ، وعلى هذا الطلب ،

---

(١) الربع الرابع من كتاب الإحياء ، باب دواعي التوبة .

فعندما تنفد هذه البقية الباقية من الطلب والشعور تقفر المدارس من الطلاب ، وتوحش الزوايا والمساجد من أصحاب الذكر والعبادة ، ونحن نرى من آثار نقص الطلب والشعور في كل مكان ، والخطر لا يزال يتزايد كل يوم .

فالمهم أن نسعى لصيانة هذه الذخيرة والزيادة فيه ، فلا يطمئن أهل المدارس والأوساط الدينية إلى أنَّهم يجدون الرجال العاملين ، لأنَّ الذخيرة التي تنفق من غير زيادة منها ستنفد يوماً من الأيام ، ولو كانت مثل البحر ، إنَّ الغرض من تبليغ كلمة « لا إله إلا الله » ، وتفهيم معناها وشرحها ، وتذكير مفاهيمها ومقتضياتها هو أن يشعر المسلمون بإسلامهم ، وتنبعث فيهم عاطفة الطلب ، ولا سبيل لإيقاظ الشعور والطلب في الشعوب الإسلامية الواسعة ، إلا أن يطالبوا بتصحيح كلمة الإسلام وشرح معانيها ، لكي يفهم المسلمون ما يطلب منهم من الإقرار بعبودية الله واتباع الرسول ﷺ ، ولا سبيل لذلك إلا أن نسعى لهذا الغرض في المسلمين جميعاً ، لا في طبقةٍ خاصَّةٍ دون طبقات أخرى ، فلو لم يقم لملايين من الناس آلاف منهم لن يمكن الإصلاح والتربية ، فإنَّ عدد المربين أقلُّ بكثيرٍ من عدد من هم بحاجة إلى التربية والإصلاح .

العناية بالطبقة المتخلفة :

في عهد الانحطاط الماضي وقعت طبقةٌ كبيرةٌ من أمة محمد ﷺ فريسة الإهمال وعدم الاعتداد بها ، بسبب فقرها ، وبؤسها ، وازدراها الناس ، وعومل السكان في الأكواخ والعائشون في بؤس وفقر معاملةً غريبة ، شأن البهائم ، رغم أنَّ كثيراً من خصائص الإسلام التي وجدت في القرون الأولى مدينة لهؤلاء الفقراء ، وهي لا تتجلى إلا فيهم .

يبين الشيخ محمد إلياس رحمه الله هذا الوضع المؤسف المؤلم ، بأسلوب لطيفٍ جداً يقول :

« الذين نراهم من الطبقة المتخلفة ، وفي ملابس صفيقة ، إنما هم يمثلون في الواقع بساطة السنة ، وإن كان الناس لا يبالون بهم ، وإلى هذه الحقيقة

يشير ما قاله النبي ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء » ومن هؤلاء المسلمين من هم يسكنون في البوادي والقرى ، ويعيشون خارج دائرة التعليم والإصلاح من مدَّةٍ طويلةٍ ، وكثير من هؤلاء الأقوام والأسر ابتعدوا عن الإسلام واقتربوا إلى الإلحاد بسبب غفلة المتحضرين ، وكثير منهم قد ارتدوا ـ رغم أنَّ هؤلاء المسلمين هم من أهم عناصر الأسرة الإسلامية[١] ، ومن جملة ما أوصى به سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه خليفته بعده : وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام »[٢] .

فلا بدَّ لرجال الدعوة والتبليغ أن يعتنوا بهؤلاء المسلمين ، ويجب أن يقلق كل مسلم من الوضع الذي يعيشه هؤلاء المسلمون .

يقول الشيخ محمد إلياس رحمه الله : « لو فكر المسلمون بأعماق قلوبهم عرفوا أن كل مكلف للدعوة والتبليغ رجلاً كان أو امرأةً ، إنما يستوجب لعنة الله وغضبه بترك فرائضه ، وإنَّه سيحاسب بعد موته على ما كان يقدر عليه من العمل ولم يعمل ، فليتألم كلُّ مسلم خوفاً من هذا العذاب العظيم ، وعليه أن يفكر في الخطر الذي سيواجهه فيما إذا فاجأه أجله في هذه الحالة »[٣] .

إنَّ الإمام الغزالي يتذكر غفلة وجهل هذا المجتمع من سكان القرى والأرياف التي تجاور دار الإسلام ، ثم يلفت أنظار العلماء وسكان المدن إلى أداء هذه الفريضة من الدَّعوة والتبليغ ، يقول :

« وأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد ، فكيف في القرى والبوادي ، ومنهم الأعراب ، والأكراد ، والتركمانية ، وسائر أصحاب الخلق ، ومعلوم أنَّ الإنسان لا يولد عالماً بالشرع ، وإنما يجب التبليغ على أهل العلم ، فكل من تعلَّم مسألةً واحدةً فهو من أهل العلم بها ، وهذا شغلٌ

---

(١) من كتاب للشيخ محمد إلياس رحمه الله .
(٢) رواه البخاري .
(٣) من كتاب للشيخ محمد إلياس .

شاغلٌ لمن يهمه أمر دينه يشغله عن تجزئة الأوقات في التفريعات النادرة ، والتعمق في دقائق العلوم التي هي من فروض الكفايات ، ولا يتقدَّم على هذا إلا فرض عين ، أو فرض كفاية هو أهم منه »[١] .

* * *

(١) الربع الثاني من كتاب « إحياء علوم الدين » باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان .

مكانة العلم ومسؤوليات العلماء[(١)]

سادتي وإخواني ! إنَّني أعتقد أنَّ العلم وحدةٌ لا تتجزأ ، ولا يجوز تقسيمه إلى قديم وجديد ، ونظري وتطبيقي ، وقد نوه الدكتور محمد إقبال بأن أسطورة القديم والجديد إنَّما هي من نسج الخيال الفجِّ السقيم .

إنَّني أرى أنَّ العلم حقيقةٌ مشاعةٌ ، وهي موهبةٌ من الله العليم ، لا تحتكرها أمةٌ دون أخرى ، أو بلدٌ دون بلدٍ ، إنَّني أجد في « الكثرة » من العلم وحدةً غير منفصمة العرا . إنَّ هذه الوحدة هي وحدة « الصدق » والبحث عن « الصدق » والذوق العلمي لا يروي عطشه ، والسرور الغامر بالعثور عليه لا يضاهيه سرور ، ورغم هذه الحقيقة فإنَّني أرى أن أشكر معالي مدير الجامعة ونائب المدير ، وجميع المسؤولين في هذه الجامعة على أنهم اختاروا للتكريم العلمي شخصاً ينتمي إلى الطراز القديم من التعليم ، ويتَّصل به .

إنَّني لا أعترف في مجال العلم والأدب والشعر والفلسفة ، بتلك القاعدة الشائعة التي لا تسمي العالم أو المفكر إلا من تزيا « بزيها الخاص » وقد سلم الناس بأنَّ من لا يلبس تلك البذلة الخاصة لا يستحق تكريماً ، ولا يسمع منه ، وليس بأهل أن يؤخذ منه ، ولسوء الحظ فقد سيطر هذا التفكير في مجال الأدب والشعر أيضاً ، فكلُّ من لا يعلق على حانوته لافتة « الأدب » ولا يلبس بذلته لحضور ندوة الأدب ، فهو « قليل الأدب » وإنَّ الناس لم يغفروا أبداً زلَّة أولئك الأدباء والشعراء الذين لم يرتدوا زيهم ، أو لم يستطيعوا أن يظفروا بزيهم .

---

(١) ألقى العلامة الندوي هذا البحث في احتفال توزيع الشهادات على المتخرجين من جامعة كشمير في سري نغر ، وذلك في شهر نوفمبر عام ١٩٨١م . ثم نشر البحث في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثامن ، المجلد السادس والعشرون ، عام١٩٨٢م .

إنَّني أعتقد بشمول العلم ، وسعة أفقه ، وجدته ، وطراوته ، ولم تزل الهداية الربَّانيَّة تسند مثل هذا العلم ، وتكلؤه عين الله الحارسة ، فإنَّ العالم الخالص ، والطالب الصَّادق لا تتأخر عنهما منحة الله وعطاؤه في أيِّ وقت .

سادتي ! أتذكر بمناسبة هذه الحفلة التي أقيمت في هذه الجامعة الموقرة لتوزيع الشهادات في سفوح جبال هملايا وفي أحد أوديتها الخضراء الجميلة . ذلك الواقع الذي تمثل قبل أربعة عشر قرناً من الزمن على جبل لم يسم سمو هذه الجبال ولم يخضرَّ مثل هذا الاخضرار في بلدٍ قاحلٍ أجرد ، الواقع الذي خلَّف آثاراً عميقةً خالدةً على التاريخ البشري بل على مقادير البشر ولا يوجد لها نظير في التاريخ ، وله صلةٌ خاصة بذلك « اللوح » و « القلم » اللذين يقوم عليهما أساس العلم والمدنية ، والبحث والتحقيق ، والكتابة والتأليف ، ولم يكن يتصور دونها وجود هذه المعاهد العظيمة ، والمكتبات الواسعة الكبيرة ، التي تتجمَّل بها الدنيا ، وتتضاعف بها قيمة الحياة ، ولذة العيش ، أعني بذلك : الوحي الأول الذي نزل على محمد العربي ﷺ في غار حراء على مقربةٍ من مدينة مكَّة المكرمة فيما يقرب من ١٢ / فبراير عام ٦١١م . كان ذلك الوحي بهذه الكلمات الخالدة :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ ـ ٥] .

إنَّ الله عزَّ وجلَّ في هذه الحلقة الأولى من وحيه العظيم ، وفي هذه الرشحة من وابل الرحمة ، لم يمهل إعلان هذه الحقيقة : أنَّ تقدُّم العلم منوطٌ بالقلم ، هل في سجل التاريخ من مثيلٍ لهذا الواقع الذي تمثل في الخلوة الخاشعة في غار حراء ؛ الذي كان نبيُّ المستقبل الأمي يتحنَّث فيه ، ويبحث عن طريقٍ لهداية الناس ، والذي كان لا يعرف كيف يستخدم القلم ، ولم يمارس في حياته هذا الفن ؟ هل يتصور فوق هذا في الوحي الذي ينزل على نبيٍّ أميٍّ بين أمَّةٍ أميَّة ـ لا يعرف الناس فيها الكتابة والقراءة فضلاً عن أن توجد هناك معاهد وجامعات ـ والذي يربط بعد قرون وأجيال بين الأرض والسماء ، هل يتصور أن يكون مبدأ هذا الوحي وأول لفظة من عبارتها ﴿ اقرأ ﴾ فيقال

لمن لم يقرأ في حياته فيما يوحى إليه من ربه ، ﴿ اقرأ ﴾ إنَّها إشارةٌ إلى أنَّ الأمَّة التي سوف تقوم بدعوته وجهاده لا تكتفي بطلب العلم فحسب ، بل تنهض مرشدةً معلمةً ، هاديةً ، تنشر العلم ، وتبثُّه ، وإنَّ العهد الذي بدأ بنبوته ليس عهد الأمية ، والجهالة ، ومصادمة العلم ، بل هو عهد العلم ، والعقل ، والحكمة ، وعهد البناء ، والإنسانية ، والرقي .

ثم تأمَّلوا في قوله تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ لقد كان من أكبر الأخطاء ، التي وقعت في سبيل العلم ، أنَّ صلته كانت قد انقطعت عن ربِّ العالمين خالق الكون ، فسار العلم في مسارٍ منحرفٍ ، وضلَّ ، وعمي ، ولكن وُصل حبله المنقطع هنا في هذا الوحي الأول بالله العظيم ، فلما ذكر العلم ، ونال هذا التكريم ، كان من اللازم التنبيه على أنَّه لا يتقدم في مجاله إلا « باسم الرب » لأنَّه هو الواهب للعلم وخالقه ، ولا يستطيع العلم أن يتقدَّم تقدماً صحيحاً بنَّاءً إلا في ضوء هدايته .

لقد كان هذا النداء العلوي أعظم نداء في تاريخ العالم ، وأبعثه على التغيير والثورة على الأوضاع الجاهلية ، سمعته أذن الدنيا ، ولم يكن أحد يتصوَّر ذلك من قبل ، لو جمع أدباء العالم ، وشعراؤه ، ومفكروه ، وقيل لهم : قدِّروا ، وفكروا في الوحي الذي سينزل ، بماذا تكون بدايته ؟ وما الذي ينال الأولية منه ؟ لا أعتقد أنَّ أحداً منهم يعرف طبيعة هذا الشعب الأمي وعقليته ـ يستطيع أن يقول إنه سيبدأ بـ « اقرأ » .

كان هذا النداء دعوةً صارخةً إلى الثورة والانقلاب ، وإلى أنَّه لا يجوز للعلم من الآن فصاعداً أن يخطو خطوةً واحدةً في مضمار الكون إلا بهداية العليم الحكيم : لأنَّ رحلة العلم طويلةٌ ، عسيرةٌ ، ملتويةٌ ، متعرجةٌ ، يقطع فيها الطريق على ركب الحياة ، وتواجه كل خطوة من الخطوات أوديةٌ ، عميقةٌ ، هائلةٌ ، وبحورٌ سحيقةٌ مائجةٌ ، وتعترض طريقه الحيات والعقارب ، فلابدَّ إذاً في هذا الطريق من خرِّيتٍ ماهرٍ ، ودليلٍ لا تخفى عليه الخوافي ، وهو الله العليم الخبير ، ليس هو مجرد العلم أو الأدب ، فليس العلم عبارةً عن النقوش الجميلة المزخرفة ، والدمى المزينة المكسوة ، ليس العلم عبارة

عن وسائل الترفية والتسلية ، أو سبباً للتحريش بين الناس ، وإلقاء العداوة بين القلوب ، ليس العلم ما يثير شعباً على شعب ، ويورث بينهما الصراع الدائم ، أو ما يعلم كيف الطريق إلى ملء « خندق المعدة » أو يعلم استخدام اللسان ، واللباقة في الكلام ، بل العلم ما يقرأ باسم الله : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١-٥] .

ذلك الرب الأكرم كيف لا يعرف جميع حاجات الإنسان وضروراتهم ، ثم يتكفل بها ، هل هناك من رفع مكانة القلم ، وأشاد بها هذه الإشادة العظيمة ، حتى لم تغفل الحلقة الأولى من الوحي الإلهي في غار حراء ذكر هذا القلم ، الذي قد لا يعثر عليه في أيِّ بيت من بيوت مكَّة إلا بعد بحثٍ طويل وتفتيش دقيق ، اللهم إلا في بيت ورقة بن نوفل ، وأمثاله من الكتبة الذين تعلَّموا شيئاً من الكتابة في بلد عجمي ، ونقلوه إلى الجزيرة العربية .

ثم ذكرت هذه الآية الكريمة حقيقةً مثيرةً خالدةً ، وهي أنَّ العلم لا نهاية له ، ولا حدود . ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ما هو العلم الحديث ؟ وما هي التكنولوجيا ؟ وكيف وصول الإنسان إلى القمر ؟ وكيف تسخيرنا للفضاء ؟ وكيف طويت الدنيا وقربت المسافات ؟ كلُّ ذلك من آثار هذا الإعلان الخالد : ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

سادتي ! اسمحوا لي أن أنتهز هذه الفرصة السعيدة كطالب يقطع سفره في أودية العلم ، فأتقدم ببعض الاقتراحات والمشورات .

إنَّ المهمة الأساسية للجامعات هي تكوين السيرة الإنسانية المثالية ، فينبغي أن تصنع الجامعة شاباً لا يرضى أبداً ببيع ضميره إزاء عرضٍ من الدنيا قليل ، فإنَّ الفلسفات والنظم المعاصرة تعتقد بأنَّ كلَّ شخصٍ له ثمنٌ مقدرٌ معلوم ، فإذا لم تستطع أن تشتريه بثمنٍ بخس ، فلتشتره بثمنٍ مناسب ، ولا تعتبر الجامعة ناجحةً في دورها إلا إذا أعدت شباباً كفؤاً في خلقه وعلمه ، لا يساوم ، ولا يبيع مبادئه ، ولا تستطيع أيُّ فلسفةٍ هدَّامةٍ ، أو حركة منحرفةٍ ، أو دعوةٍ مضللةٍ أن تشتري ضميره ، ويقدر أن يقول في ثقةٍ ، واعتمادٍ ، وصراحةٍ ، وجراءةٍ في كلمات الدكتور إقبال :

« لك الحمد يا رب ! إذ لست من سقط المتاع ، ولست من عبيد الملوك والسلاطين ، لقد رزقتني حكمةً وفراسةً ، ولكني أحمدك على أنني لم أبعهما لملكٍ من الملوك » .

والمهمة الثانية أن يتخرَّج من جامعاتنا شباب مستعدُّون ليهبوا حياتهم للحقِّ والصِّدق ، والعلم والهداية ، شباب يجدون في الجوع لذةً لا يجدها النهم في الأكل اللذيذ ، والشبع المزيد ، ويجدون متعةً في الفقد والحرمان لا يجدها المحظوظون ، والمكثرون ، ويوجهون عظيم صلاحياتهم وطاقاتهم ، وأفضل مواهبهم وكفاءاتهم ؛ التي شحنتهم بها جامعتهم لحماية الإنسانية ، وصيانتها من الدَّمار الرهيب .

ينبغي أن تراجع الجامعات حساباتها ، فتنظر كم تخرج من أبنائها من الشباب الأكفاء ؟ إنني أصارحكم بأنَّه لم يعد شيء في أيامنا هذه على بلدٍ من البلدان ، ويشاد بذكره نظراً إلى عدد جامعاته ، ومعاهده . إنَّ هذا قصورٌ في النظر ، وفكرةٌ متخلفةٌ لم تعد صالحةً للقبول . إنَّ القضية هي قضية عدد أولئك الشباب الجامعيين الذين يقضون حياتهم في الشوق إلى العلم ، والبحث والتحقيق ، ونشر العلم النافع ، والخلق الفاضل ، ومقاومة المنكرات ، والفوضى الخلقية ، ويقفون في وجه الوحشية السفاكة للدماء ، وعبادة القوة والمنفعة والمال ، كم عدد الشباب الذين نذروا نفوسهم لرفع مستوى شعوبهم علماً وخلقاً ، وتربيتهم وتوعيتهم ، ولكي ينفخوا فيهم روح العزة والإباء ، الذين ينسون حظوظهم العاجلة ، ويطبقون أعينهم عن مصالحهم الشخصية ، والمنافع المادية ، ويهبون أنفسهم لخدمة القضية العامة ، إنَّ المقياس الصحيح في ذلك أن نرى كم من الشباب عكفوا على العلوم والدراسات النافعة ؛ تاركين وراءهم راحة الدنيا ، ونعيمها ، ورقيها ؛ ليخرجوا إلى أمتهم بأعمالٍ بناءةٍ خالدةٍ .

والحق أنَّ الغرض الأساسي من كلٍّ من الأدب والشعر ، والحكمة والفلسفة ، والتصنيف والتأليف بعث حياةٍ جديدةٍ ونفخ روحٍ جديدة ، لا أن يكون لمعان سراب والتهاب شعلةٍ لا تلبث أن تنطفىء ، وأتمثل هنا ببعض

أبيات الشاعر الإسلامي محمد إقبال الذي قالها مخاطباً لأحد الأدباء والشعراء، ولكنَّها تصدق على العلم والأدب والفلسفة والحكمة ، يقول ما معناه :

« يا أهل الذوق والنظر العميق ! أنعم وأكرم بنظركم ، ولكن أيُّ قيمة للنظر الذي لا يدرك الحقيقة ؟ لا خير في نشيد شاعرٍ ، ولا في صوت مغنٍّ ، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس ، ولا بارك الله في نسيم السحر ، إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الفتور ، والخمول ، والذّوي ، والذبول ، إنَّ غاية الإحسان في فنٍّ من فنون العلم والأدب لوعة الحياة الدائمة ، ما قيمة شرارة تلتهب سريعاً وتنطفىء سريعاً ؟! » .

سادتي ! واسمحوا لي أخيراً أن أوجه بعض النصائح إلى هؤلاء الشباب الخريجين الذين يحملون من هنا شهادات العلم ، ويستحقون التهنئة عليها ، والسعداء الذين لا يزالون يقتطفون من أزهار العلم في رحاب هذه الجامعة ، وسوف أستعين في حديثي هذا ـ الذي قد يكون جاداً وثقيلاً ـ بقصة طريفةٍ لعلَّها تملح المجلس ، وتمتع الأسماع .

يحكى أنَّ فريقاً من تلاميذ المدارس ركبوا سفينةً للنزهة في البحر ، أو للوصول إلى البر ، وكان في النفس نشاط ، وفي الوقت سعة ، وكان الملاح المجدف الأميُّ خير موضوع للدعابة والتندر ، وخير وسيلةٍ للتلهّي وترويح النفس ، وخاطبه تلميذٌ ذكي جريء ، وقال : يا عمّ ماذا درست من العلوم ؟ قال : ولا شيء يا عزيزي ! قال : أما درست العلوم الطبيعية يا عمي ؟! قال : كلا ، ولا سمعت بها ! وتكلم أحد زملائه ، وقال : ولكنَّك درست علم الأقليدس ، والجبر ، والمقابلة ! قال : وهذا أغرب ، وتصدقون أنِّي أوَّل مرةٍ أسمع هذه الأسماء الهائلة الغريبة ، وتكلم ثالث « شاطر » فقال : ولكنِّي متأكدٌ بأنَّك درست الجغرافية والتاريخ ، فقال : وهل هما اسمان لبلدين ، أو علمان لشخصين ؟ وهنا لم يملك الشباب نفوسهم المرحة ، وعلا صوتهم بالقهقهة ، وقالوا : ما سنُّك يا عم ؟! قال : أنا في الأربعين من سني ! قالوا : لقد ضيعت نصف عمرك يا عمنا ! وسكت الملاح الأميُّ على غصصٍ ومضضٍ ، وبقي ينتظر دوره ، والزمان دوار .

وهاج البحر ، وماج ، وارتفعت الأمواج ، وبدأت السفينة تضطرب والأمواج فاغرة أفواهها لتبتلعها ، واضطرب الشباب في السفينة ، وكانت أول تجربتهم في البحر ، وأشرفت السفينة على الغرق ، وجاء دور الملاح الأمي ، فقال في هدوءٍ ووقار : ما هي العلوم التي درستموها يا شباب ؟! وبدأ الشباب يتلون قائمةً طويلةً للعلوم والآداب التي درسوها في الكلية ، ويتوسعون فيها في الجامعة من غير أن يفطنوا لغرض الملاح الجاهل الحكيم ، ولما انتهوا من عدِّ العلوم المرعبة أسماؤها ، قال في وقارٍ تمزجه نشوة الانتصار : لقد درستم يا أبنائي هذه العلوم الكثيرة ، فهل درستم علم السباحة ؟ وهل تعرفون إذا انقلبت هذه السفينة ـ لا قدَّر الله ـ كيف تسبحون ، وتصلون إلى الساحل بسلام ؟ قالوا : لا والله يا عم ! هو العلم الوحيد الذي فاتتنا دراسته والإلمام به ، هنالك ضحك الملاَّح ، وقال : إذا كنت قد ضيعت نصف عمري ، فقد أتلفتم عمركم كله ؛ لأنَّ هذه العلوم لا تغني عنكم في هذا الطوفان ، إنَّما كان ينجدكم العلم الوحيد ، هو علم السباحة الذي تجهلونه[١] .

ولا يزال الوضع ـ في أيامنا هذه ـ في بلدان العالم الراقية المتحضرة التي تبدو كأنها تملك مقادير الأمم ، حيث ارتطمت سفينة الحياة في ورطةٍ لجيَّةٍ ، وتعصف بها الأمواج العاتية كالتماسيح الهائلة الضارية فاغرة أفواهها لتبتلعها ، والشاطىء بعيد ، والخطر محدقٌ قريب ، ويحمل ركاب السفينة المحترمون كلَّ شيءٍ إلا فن السباحة ، وبتعبير أفصح وأوضح ، تعلموا كلَّ علمٍ وفنٍّ ، ولكنهم لم يتعلموا كيف يعيشون حياة الإنسان الكريم الذي يخشى ربه ، ويرحم خلقه ، ويتوجع لما أصابهم من ويلاتٍ ونكباتٍ ، لقد صوَّر الدكتور إقبال هذا الوضع الخطير ، وهذا التناقض العجيب الذي أصيب به أبناء القرن العشرين ، بل المجتمعات البشرية كلها ، يقول :

« من الغريب أنَّ من اقتنص أشعة الشمس ، لم يعرف كيف ينير ليله ، وكيف يصبح ، وأنَّ من بحث عن مسالك النجوم وطرقها ، لم يستطع أن يسافر

---

(١) من كتاب المؤلف « النبوة والأنبياء » ص٣٣ و٣٤ الطبعة الرابعة .

في بيداء أفكاره ، ومن عكف على الألغاز يحلها ويشرحها لم يستطع أن يميز النفع من الضرر » .

إنَّ الشروط الأساسية للحياة الكريمة الناجحة المأمونة من الخطر والضرر هي معرفة الطريق إلى حياةٍ إنسانية نبيلةٍ ، والخشية لله الواحد ، وحب الناس ، وصلاحية ضبط النفس ، وقسرها ، وصفة إيثار المصلحة الجماعية على المصلحة الفردية ، واحترام الإنسانية ، والعواطف الكريمة للحفاظ على الأنفس والأعراض والأموال ، وإيثار أداء الحقوق لأهلها على المطالبة بها ، وحماية المضطهدين المظلومين ، ونصرة الضعفاء المساكين ، وجراءة مواجهة الطغاة الجبارين ، وعدم الخوف من الناس الذين لا يحملون إلا الثروة والجاه ، وعدم الخضوع أمامهم ، والصراحة بقولة الحق دائماً ، والشهادة على نفسه وجماعته ، والتمسُّك بالعدل لنفسه ولغيره ، وإقامة القسطاس المستقيم ، والإيمان الجازم بإله قادرٍ شاهدٍ بصير ، والتفكير في المسؤولية أمامه ، والخوف من حسابه ، هذه هي الشروط الأساسية للحياة الشريفة المحترمة ، وهذه هي الضمانات اللازمة لوجود المجتمع الصَّالح الرشيد والحكومة القوية المحروسة ، وإنَّ تربية هذا المجتمع ، وتهيئة الجو المناسب له ، من أولى فرائض الجامعات ، والمؤسسات العلمية ، وإيجاد هؤلاء الشباب من أهم مسؤوليات المثقفين والمفكرين ، والمسؤولين في البلاد .

ويلزمنا في مثل هذه المناسبات أن نراجع أنفسنا ، وننظر إلى أيِّ مدىً نجحت مؤسساتنا وجامعاتنا ، وكم من شبابها الخريجين وأبنائها العاملين يستحقُّون أن يهنؤوا ويبارك لهم ، وما هي محاولاتنا للحصول على هذه الأهداف والمقاصد العظيمة في المستقبل ، وماذا أعددنا له ، وجهزنا ؟ إنَّها قضية تستحق أكبر قسطٍ من التأمل والتفكير .

وختاماً أشكركم على هذا التكريم ، والثقة التي وضعتموها فيَّ ، وعواطف الحبِّ والاحترام ؛ التي أبديتموها عن طريق هذا التكريم .

* * *

إيجاد الرباط المقدس الدائم بين الدين والعلم وربط مصير أحدهما بالآخر وتفخيم شأن العلم والحث عليه[١]

ومن مآثر سيدنا محمد ﷺ الخالدة، ومن خصائص بعثته ودعوته: أنَّه ﷺ أنشأ الرباط المقدس الدائم بين الدين والعلم، وربط مصير أحدهما بالآخر، وفخم شأن العلم، وحثَّ عليه حثاً لا مزيد عليه، فكانت نتيجته الطبيعية وجود حركة علمية وتأليفية، لا يوجد مثلها في تاريخ الأدوار والمدنيات التي قامت على أساس الدين، والرسالات السماوية.

وأكبر دليل على ذلك أنَّ أول وحيٍ نزل على سيدنا محمد ﷺ منَّ فيه فاطر الكون على النوع البشري بتخصيصه بالعلم، وذكر فيه وسيلته الكبرى التي ارتبط بها تاريخ العلم ومسيرته، وانبثقت منها حركة التأليف والتعليم، ونقل العلم من فردٍ إلى فردٍ، ومن أمةٍ إلى أمةٍ، ومن عصرٍ إلى عصرٍ، ومن جيلٍ إلى جيل، ويرجع إليه فضل ذيوعه في العالم، وانتشاره على أوسع نطاق عرف عن أي فضيلةٍ أو حاجةٍ من الحاجات البشرية المعنوية، وقامت عليه دنيا المدارس والجامعات، ودور العلم والمكتبات.

كانت كلُّ القرائن التاريخية والعقلية ـ إذا كان الأمر بالقرائن والقياسات البشرية ـ تستبعد أن يذكر في سياق هذا الوحي الأول «القلم» فإنَّ هذا الوحي ينزل على أميٍّ في أمَّةٍ أميَّةٍ، وفي بلاد متخلفةٍ، لم يكن شيء أكثر ندرةً

(١) نُشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها التاسع، المجلد الثلاثون عام ١٩٨٦م.

وغرابةً فيها من هذه القطعة الخشبية التي تسمى « القلم » وقد أصبح لقب العرب الشائع السائر « أميين » .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] .

وحكى القرآن قول اليهود ـ وكانوا مجاورين للعرب في المدينة عارفين بهم بحكم الجوار والمعايشة ـ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران : ٧٥] وقد امتاز في هذه الأمة الرسول ـ المنزل عليه هذا الوحي ـ بالأميَّة الكاملة ، يقول الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢] .

ويقول :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٨] .

ينزل هذا الوحي الأول على النبي الأمي بغار حراء ، وهو اتصال الأرض بالسماء ، وبالأولى : اتصال السماء بالأرض ، بعد فترةٍ طالت ، وامتدَّت ستة قرون[١] ، فلا يفتتح الأمر بالعبادة ، أو بمعرفة الله تعالى وطاعته ، أو الدَّعوة إلى الله ، من الأمور الإيجابية ، أو نبذ الأوثان والأصنام ، أو نعي على الجاهلية وعاداتها وأعرافها ، من الأمور السلبية ، وكان كلُّ ذلك في محلّه ، ولكنَّه يفتتح بكلمة : ﴿ اقرأ ﴾ .

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ ـ ٥] ، فكان حدثاً عظيماً من الأحداث التاريخية ، يفتح آفاقاً جديدةً واسعةً من تفكير الإنسان وتأمُّل المفكرين والمؤرخين ، وهي إشارةٌ بليغةٌ واضحةٌ إلى أنَّ هذا النبيَّ الأميَّ ﷺ سيفتتح

(١) وهي المدة التي مضت على نبوة سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا الصَّلاة والسَّلام .

دوراً جديداً في تاريخ الإنسانية ، وفي تاريخ الديانات والرسالات السماوية ، يتسم بالقراءة ـ في أوسع معانيها وأعمقها ـ ويتَّسم بقيام دولة العلم ، وبدء عهده الزاهر ، وباقتران الدين بالعلم ، يترافقان ويتعاونان في الصياغة الإنسانية الجديدة .

ولكن سيكون انطلاق فن القراءة والعلم في أحضان هذه النبوة باسم الرب الذي خلق هذا الكون ، وخلق الإنسان ، فيكون مصطبغاً بالإيمان بالله ومعرفته الصحيحة ، يشق طريقه إلى الأمام في ضوئه وتحت هدايته ، فقال : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] .

عارفاً بحقيقة الإنسان وخلقته ، فلا يعدو طوره ، ولا يغترَّ بفتوحه في مجال العلم ، والعقل ، والصناعة ، وأسباب تسخير الكون ، فقال : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق : ٢] .

ثم شرَّف قدْر العلم ، ونوَّه بقيمته ، وغنائه ، ودوره الكبير في عالم العلم ، والقراءة ، والتعليم ، والتربية ، وهو الذي لم يكن العثور عليه سهلاً في مكة والجزيرة العربية ، فكان خاصاً بعددٍ محدودٍ جداً[1] ، لذلك اشتهر القارىء المتعلِّم في الجزيرة العربية بكلمة « الكاتب » فقال : ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ [العلق : ٤] .

ثم أشير إلى صلاحية الإنسان للعلم الحديث الأحدث من الحقائق الدينية ، والكونية ، والعلوم ، والصنائع ، والاكتشافات ، والاختراعات ، وتوسيع آفاق العلم ، وأنَّ مصدر كل ذلك هو التعليم الإلهي ، وتهيئة الإنسان للعلم المجهول واكتشاف المفقود ، فقال : ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ٥] .

هذا أوَّل الوحي النازل على محمد ﷺ وفاتحته ، والبداية والعنوان لهما أثرٌ كبيرٌ على جميع المراحل التي تلي ، وعلى تعيين الطبيعة التي تسيطر على

---

(١) كان من يعرف القراءة والكتابة من قريش ١٧ شخصاً فقط ، كما جاء في كتاب « العقد الفريد » لمؤلفه ابن عبد ربه ٤/ ٢٤٢ وفتوح البلدان للبلاذري ص٤٥٧ وذهب بعض الباحثين إلى أن عددهم كان أكثر من هذا ولكنه محدود معدود على كلِّ حال .

علمٍ ، أو دعوةٍ ، أو مدرسة ، بقي هذا الدين ـ ولا يزال ـ مقترناً بالعلم ، مرافقاً له ، مسايراً لرغبة النوع الإنساني في التعلم ، والقدرة على حلِّ القضايا الجديدة التي تعرض للأجيال البشرية ، والعقل الإنساني ، والمدنية الصَّالحة ، غير متجهمٍ للعلم ، وغير هيَّاب لعمل العقل .

وهناك ديانات ترى حياتها في موت العلم ، وترى ازدهارها ، وانتصارها في انهزام العلم ، تمثلها حكاية تقول : إنَّ بعوضةً شكت إلى سيدنا سليمان الريح الهوجاء ، قالت : إنَّ الريح تظلمنا كثيراً ، وتجور علينا ، فلا بقاء لنا نحن البعوض معها ، فإذا هبت لجأنا إلى الفرار ، فقال سيدنا سليمان : لا بدَّ من إحضار المدَّعى عليه ، ودعا الريح فإذا بالبعوضة قد طارت ، فقال : فكيف نحكم على قضيةٍ في غياب مدَّعيها ؟! وكذلك أصحاب الديانات الكثيرة ، وفي مقدمتها الديانة البرهمية في الهند ، وكهنتها وسدنتها ، وقصة الصِّراع بين الكنيسة النصرانية والعلم في أوربة مشهورةٌ ، وكتاب درابر الأمريكي : (Conflict Between Religion & Science ـ الصراع بين الدين والعلم) من الوثائق التاريخية والكتب المنيرة المليئة بالمعلومات والأضواء ، وقد بلغ عدد ضحايا محاكم التفتيش الديني العقائدي (Courts of Inquisition) في أوربة في القرون الوسطى والاضطهاد الكنسي إلى اثني عشر مليوناً (١٢٠٠٠٠٠٠)[1] وهو ضعف عدد ضحايا الحرب العالمية الأولى ، فقد بلغ ستة ملايين وأربعمئة ألف نفس (٦٤٠٠٠٠٠) .

ونزل القرآن ، وقد شرَّف قدر العلم ، ورفع منزلة العلماء إلى درجة لا يوجد لها مثيل في الصحف السابقة ، وفي الديانات القديمة ، وأضفى على العلم والعلماء نعوتاً بلغت به إلى درجةٍ أدنى من درجة الأنبياء ، وفوق كلِّ درجةٍ من درجات البشر ، فحسب القارىء قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ الحكيم ﴾ [آل عمران : ١٨] وقوله لرسوله ﷺ : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] وقوله

---

(١) John Davenport: Apology For Muhammad& Quran.

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] ، وقوله : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وأما الحديث النبوي فيكفي القارىء منه قوله ﷺ : « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم »[١] ، وقوله : « إنَّ العلماء ورثة الأنبياء ، وإنَّ الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر »[٢] .

ومن هذا التنويه بشأن العلم والحثِّ عليه انبثق ذلك النشاط ، وبكلمة أصح : الحماس العلمي والتفاني في سبيل العلم في تاريخ الإسلام ، وانطلقت هذه الحركة العلمية العالمية الخالدة التي مساحتها الزمنية من أكبر المساحات الزمنية ، والمساحة المكانية من أكبر المساحات المكانية ، والمساحة المعنوية أوسع من كلتا المساحتين[٣] .

وتكفي هنا شهادة لباحث غربيٍّ كبيرٍ ومؤرخٍ فرنسيٍّ شهير ، وهو الدكتور غوستاف لوبون ، يقول في كتابه المشهور : « حضارة العرب » :

« والإنسان يقضي العجب من الهمة التي أقدم بها العرب على البحث ، وإذا كانت هنالك أممٌ تساوت هي والعرب في ذلك ؛ فإنَّك لا تجد أمةً فاقت

---

(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

(٢) رواه أبو داود ، والترمذي .

(٣) ليرجع إلى معرفة هذه المساحات ، ولمعرفة التنوع والتفنن في الموضوعات إلى كتب وضعت في ذكر المؤلفات التي ألفها علماء الإسلام في عصور وأنحاء مختلفة ، ونذكر على سبيل المثال « كتاب الفهرست » لابن النديم ، و « كشف الظنون » لحاجي خليفة جلبي ، و « معجم المصنفين » للعلامة محمود حسن التونكي (ستون مجلداً ويحتوي على عشرين ألفاً من الصفحات ، وعلى تراجم أربعين ألفاً من المصنفين) و « الثقافة الإسلامية في الهند » للعلامة السيد عبد الحي الحسني ، طبع مجمع اللغة العربية بدمشق و « تاريخ الأدب العربي » لبروكلمان الألماني ، و « تاريخ التراث العربي » لفؤاد سزكين .

العرب على ما يحتمل ، والعرب كانوا إذا ما استولوا على مدينةٍ صرفوا همَّهم إلى إنشاء مسجدٍ ، وإقامة مدرسةٍ فيها ، وإذا ما كانت تلك المدينة كبيرةً أسسوا فيها مدارس كثيرة ، ومنها المدارس العشرون التي روى بنيامين التطيلي المتوفى سنة ١١٧٣م أنَّه شاهدها في الإسكندرية ، وهذا عدا عن اشتمال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وطليطلة . . إلخ . على جامعاتٍ مشتملةٍ على مختبراتٍ ، ومراصد ، ومكتباتٍ غنيةٍ ، وكلٍّ ما يساعد على البحث العلمي ، وكان للعرب في إسبانية وحدها سبعون مكتبةً عامةً ، وكان في مكتبة الخليفة الحكم الثاني بقرطبة ستمئة ألف كتاب ، منها أربعة وأربعون مجلداً من الفهارس ، كما روى مؤرخو العرب ، وقد قيل بسبب ذلك : إنَّ شارل الحكيم لم يستطع بعد أربعمئة سنة أن يجمع في مكتبة فرنسة الملكية أكثر من تسعمئة مجلد يكاد ثلثها يكون خاصاً بعلم اللاهوت[١] .

وكان دور البعثة المحمدية والدَّعوة الإسلاميَّة في توجيه العلم إلى الهدف الصحيح ، وحمله على أداء دوره الإيجابي البنَّاء النافع المجدي المنقذ من الحيرة والاضطراب ، والتناقض والارتياب ، أكبر أهمية ، وأكثر قيمة من دورها في تنشيط حركة العلم وتوسيعها .

وذلك أنَّ وحدات العلم كانت مبعثرةً ، بل كانت في أغلب الأحيان متناقضةً ، فعلم الطبيعة يخالف الدين ، وعلم الحكمة يحارب الدين ، وحتى علوم الرياضة والطب البريئة كان يخرج منها أصحاب الاختصاص فيها أحياناً بنتائج سلبية إلحادية ، فكان في اليونان ـ التي فاقت العالم المعاصر لمدة قرون في علوم الفلسفة والرياضة ـ علماء إمَّا مشركون ، وإمَّا ملحدون ، وأصبحت علومها ومدارسها الفكرية خطراً على الدين ، وحجةً ، وقدوةً للملحدين ، فكان أكبر حسنات الإسلام أنَّه دلَّ على الوحدة التي تربط بين وحدات العلم ، وقد تيسَّر له ذلك لأنه بدأ رحلته في مجال العلم والمعرفة بدايةً صحيحة ،

---

(١) حضارة العرب ص٤٣٤ تأليف الدكتور غوستاف لوبون ، ترجمة الأستاذ عادل زعيتر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

بدأها بالإيمان بالله ، والاستعانة به ، والاعتماد عليه ، عملاً بقوله تعالى لرسوله : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] وصحة البداية ـ في غالب الأحيان ـ كافلةٌ بصحة النهاية ، فاستطاع بفضل القرآن والإيمان أن يكتشف الوحدة التي تربط الوحدات بعضها ببعض ، وهي معرفة الله تبارك وتعالى ، وذلك الذي مدح الله به عباده المؤمنين ، فقال : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩١] .

وكذلك كانت تبدو الوحدات الكونية ـ من الظواهر والحوادث والتغيرات ـ متناقضةً مضادةً ، توقع الإنسان في حيرةٍ واضطرابٍ ، وقد تؤدي إلى الكفر والإلحاد ، والطعن والاعتراض على الخالق ومدبر الكون ، فدلَّ العلم الإسلاميُّ المؤسس على الإيمان والقرآن على الوحدة التي تجمع بين هذه الوحدات الكونية ، وهي إرادة الله الغلابة ، وحكمته الباهرة .

وقد أشار عالمٌ غربيٌّ كبيرٌ هو : هيرالد هوفدنج الألماني إلى أهمية العثور على هذه الوحدة ، ودورها الفعَّال في حياة الإنسان ، ومسيرة العلم والأخلاق ، يقول : « إنَّ فكرة كلِّ دينٍ قائمةٌ على التوحيد ، وهي تقوم على أنَّ علة الوجود لجميع ما في الكون واحدةٌ ـ وبغضِّ البصر عن المشاكل التي تحدث بهذه الفكرة بصورةٍ لازمةٍ ـ يخلف ذلك الاعتقاد أثراً نافعاً ومهماً على الطبيعة الإنسانية ، وهو أن أتباع هذا الدين يسهل لهم الاعتقاد بأنَّ جميع الأشياء في العالم مرتبطةٌ حسب قانونٍ واحدٍ ، بغض النظر عن الخلافات والتفاصيل ، فيلزم بكون العلَّة واحدةً أن يكون القانون واحداً ، وقد غرست فلسفة الأزمنة المتوسطة الدينية فكرة وجود هذه الوحدة في الكثرة المشاهدة في العالم في أذهان الناس ، الفكرة التي كان الإنسان غير المثقف بمعزلٍ عنها بتأثير وجود الكثرة في المظاهر الطبيعية التي كان يتيه ، ويغوص فيها ، فيفلت من يده حبل الوحدة التي تربط هذه الكثرة »[١] .

وبذلك أصبح العلم هادفاً ، نافعاً ، موصلاً إلى الله تعالى ، مركزاً جهده

---

(١) History of Modern Philosophy p.5.

على ما ينفع الإنسانية ، ويسعد المجتمع والمدنية ، وكانت أكبر منَّةٍ على الفكر الإنساني والمجهود الإنساني ، فقد غيَّر مصير الإنسانية ، ومجرى الفكر البشري .

وقد اعترف علماء الغرب بفضل القرآن على العلوم ، والفِكَر الإنسانية ، ونكتفي هنا بشهادتين :

يقول مارغليوث (G. Margoliouth) : الذي عرف بالتحامل على الإسلام ، في مقدمته لترجمة رادول (J. N. Rod Well) :

« إنَّ مما اتفقت كلمة الباحثين عليه : أنَّ القرآن يحتل مكانةً ممتازةً في الصحف الدينية العظيمة ، بالرغم من أنَّه أحدث سنة في هذه الصحف[١] التي صنعت التاريخ ، ولكنه يسبق الجميع في التأثير المثير للحيرة على الإنسان ، إنَّه أوجد فكراً إنسانياً جديداً ، وأرسى قواعد مدرسةٍ خلقيةٍ متميزة »[٢] .

ويقول Hart Wighirschfeld :

« لا داعي إلى الاستغراب إذا قيل : إنَّ القرآن ينبوعٌ للعلوم ، إنَّ كل ما حدث عنه القرآن من الأرض ، والحياة الإنسانية ، والتجارة ، والحرفة ، كان موضع دراسة العلماء والمفسرين ، فألقوا عليه الأضواء في كتبهم ، وتفسيرهم للقرآن ، وفتح ذلك مجالاً واسعاً للبحث والتأمل فيها ، تمهَّدت عن طريقه طرق تقدم العلوم في المسلمين ، إنَّه لم ينحصر تأثيره في العرب ، بل إنَّه حمل الفلاسفة اليهود على أن يقتفوا آثار العرب في المسائل الدينية ما بعد الطبيعة ، ولا داعي إلى ذكر ما استفاد علم الكلام المسيحي من بحوث العرب في الإلهيات »[٣] .

***

---

(١) يعني : آخرها نزولاً .

(٢) Rew. G. Margoliouh in Introduction to the Koran By Rev. J. M. Rodwell London. 1918.

(٣) Hartwig Hirschfeld: New Researches into Composition and Exegesis of the Quran - London- 1902. P.9.

استخدام العلم والعقل والانتفاع به

حتى في القضايا الدينية ، والحثُّ على النظر في الأنفس والآفاق[(١)]

لا نعرف ديناً من الأديان ، ولا صحيفةً من الصحف السماوية ، دعا إلى استخدام العقل والانتفاع به ، وإلى التفكير والاستنتاج ، وربط المسببات بالأسباب ، والنتائج بالمقدمات ، والاعتبار والادكار ، وذم تعطيل ما وهب الله الإنسان من صلاحية التأمل فيما حوله ، والإعراض عن آيات الله في الأنفس والآفاق ، والبلاد والأمم ، وما مضى من مثلاتٍ وعبرٍ في حياة الأمم ، وما ظهر من نتائج الأعمال والأخلاق ـ على مستوى الأفراد ، والأمم ، والحكومات ، والشعوب ـ مثل ما فعله القرآن .

إنَّه استحثَّ على استخدام الحواس الظاهرة التي من أهمها العين ، والانتفاع بها في الرؤية الصحيحة حتى يؤدي من البصارة إلى البصيرة ، هذه أولى الخطوات فيقول : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة : ٢٧] .

وذمَّ تعطيل هذه القوة العظيمة التي هي وسيلة الاهتداء ، فقال : ﴿ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٧١] .

ويقول : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام : ٥٠] .

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة البعث الإسلامي في عددها العاشر المجلد الواحد والثلاثون عام ١٤٠٧هـ .

ويقول : ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود : ٢٤] ويقول : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ ﴾ [الرعد : ١٦] ويقول : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ [فاطر : ١٩ ـ ٢٠] ويقول في نهاية الزجر : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٥] . ويثير الغيرة في أصحاب الأبصار ، فيقول : ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [الحشر : ٢] .

أما حث القرآن على استخدام العقل ، وإثارة الغيرة في أصحاب العقول ؛ فقد تكرّر في القرآن كلمة ﴿ تعقلون ﴾ ، حتى بلغ عدد ما ورد فيها إلى ثلاث وعشرين (٢٣) آيةً جاء فيها : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ﴿ أفلا تعقلون ﴾ وقوله : ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ نذكر على سبيل المثال آيات :

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٢] ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٨] ﴿ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٩] ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠] ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٧ ـ ١٣٨] ويصف أهل جهنم بعدم الانتفاع بهذه الحاسة الشريفة ، فيقول : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠] كذلك وجاءت كلمة ﴿ يعقلون ﴾ في مقام المدح ، أو مقام الإثبات إلى أكثر من عشرين .

كذلك شأن القرآن مع الدّعوة إلى التفكير ومدح الذين يتفكرون ، وقد جاءت هذه الكلمة إحدى عشرة مرة في القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران : ١٩١] ، ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٦] ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد : ٣] .

كان نتيجة ذلك ـ زيادةً على الاهتداء إلى الحقيقة الكبرى ، وهو ما أشار إليه القرآن بقوله في هؤلاء المستخدمين للعقل والتفكير على الطريقة الصحيحة ، ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ [آل عمران : ١٩١] ـ ، هو النشاط

الفكري العالمي في مجالٍ من مجالات العلوم والصنائع والمدنية ، ظهر أثره في العالم كله ، وكأنما فتح كوة ومنفذاً واسعاً يدخل منه النور والهواء الطلق ، وكأنما كسر ، أو فتح ذلك القفل الذي وضعه أعداء الحرية والتفكير السليم ، أو الممثلون المزورون للديانات القديمة ، على العقل البشري ، وانتبه العالم من سباته العميق الذي طال قروناً وآلافاً من السنين ، وبدأ يمسح عن عينيه آثار النوم العميق ، ويتقدَّم بخطىً سريعةً إلى تدارك ما فاته من التقدم ، والرقي ، وتذليل العقبات ، وإزالة العوائق والحواجز في سيره الطويل ، يحدِّث عن هذا الأثر العالمي ، وعن هذه الهزَّة العنيفة والرفيقة في وقت واحدٍ عالمٌ فرنسي كبير ، فيقول جوليفة كستلو Jolivt Castelot في كتابه « قانون التاريخ » (Laloi De L, Histoire) :

« كان التقدم العربيُّ بعد وفاة الرسول عظيماً ، جرى على أسرع ما يكون ، وكان الزمان مستعداً لانتشار الإسلام ، فنشأت المدنية الإسلامية نشأةً باهرةً ، قامت في كل مكان مع الفتوحات بذكاءٍ غريبٍ ، ظهر أثره في الفنون والآداب ، والشعر والعلوم ، وقبض العرب بأيديهم خلال عدة قرون على مشعل النور العقلي ، وتمثلوا جميع المعارف البشرية التي لها مساسٌ بالفلسفة ، والفلك ، والكيمياء ، والطب ، والعلوم الروحية ، فأصبحوا سادة الفكر مبدعين ومخترعين ، لا بالمعنى المعروف ، بل بما أحرزوا من أساليب العلم التي استخدموها بقريحةٍ وقادةٍ للغاية ، وكانت المدنية العربية قصيرة العمر ، إلا أنها باهرة الأثر ، وليس لنا إلا إبداء الأسف على اضمحلالها » .

ويتقدَّم فيقول :

« ولئن كان سادة البلاد أصحاب أثرة ، فإنَّ العمل الذي تمَّ حولهم كان أسمى منهم ، ومنه نشأت مدنيةٌ مدهشةٌ ، وإنَّ أوربة لمدينة للحضارة العربية بما كتب لها من ارتقاء من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر ، وعنها أخذت الفكرة الفلسفية العلمية التي سرت إليها سرياناً بطيئاً ناقصاً في القرون الوسطى ، وأنَّ أوربة لتتجلَّى لنا منحطةً جاهلةً أمام المدنية العربية ، وأمام العلم العربي ، والآداب ، والفنون العربية ، وأوربة تدين بالهواء النافع الذي

تمتَّعت به في تلك العصور للأفكار العربية ، وقد انقضت أربعة قرون ولا حضارة فيها غير الحضارة العربية ، وعلماؤها هم حملة لوائها الخفاق »[١] .

ويقول غوستاف لوبون (Gustave Lebon) :

« ينسب الناس إلى فرنسيس باكون (Francis Bacon) قاعدة التجربة والملاحظة والمنطق الاستقرائي (Inductive Logic) وهما الأصل في أساس البحث العلمي الحديث ، بيد أنَّ الواجب أن نعترف اليوم أنَّ هذه الطريقة كلها هي من مبتدعات العرب » .

ويقول Rodert Briffault في كتابه : The Marking of Humanity :

« ما من ناحيةٍ من نواحي تقدُّم أوربة إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضلٌ كبيرٌ وآثارٌ حاسمةٌ لها تأثيرٌ كبير »[٢] .

ويقول : « لم تكن العلوم الطبيعية (التي يرجع فيها الفضل إلى العرب) هي التي أعادت أوربة إلى الحياة ، ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت في حياة أوربة تأثيراتٍ كثيرةً ومتنوعةً منذ أرسلت أشعتها الأولى إلى أوربة »[٣] .

* * *

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ، للأستاذ محمد كرد علي ، ج٢ ، ص٥٤٣ ـ ٥٤٤ .

(٢) أيضاً ، ص٢٠٢ .

(٣) The marking of Humanity p. 202.

دور الإسلام الثوري البناء في مجال العلوم الإنسانية(١)

اعتذار وتوضيح :

في البداية أصرح بأنِّي كنت استخدمت مصطلح الثوري ، (Revolutionary) للتعبير عن دور الإسلام في مجال العلوم الإنسانية ، لكن هذه الكلمة قد اقترنت بها سلبياتٌ وتشنُّجاتٌ في غالب الأحيان ، في تاريخ الحكومات والحضارات والحركات والنشاطات ، وهي لا تتفق مع إيجابية الإسلام ودوره البنائي الإصلاحي ، ولا تليق بمصدره (الوحي الإلهي) الذي هو فوق ردود الفعل ، وبعيدٌ عن كلِّ عاطفية وحساسية ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقد سوغ لي في البداية استخدام هذه الكلمة تحفظ وتفصيل ؛ ما يتَّصف به دور الإسلام في مجال العلوم الإنسانية والحضارة البشرية من القيام بانقلابٍ جذريٍّ شاملٍ يقوم على منهج إزالة الأنقاض ، واقتلاع الجذور الفاسدة ، والحشائش الطفيلية ، من حقل العلم والفكر الإنساني ، وتصحيح المفاهيم ، وتجلية الحقائق ، ووضع البناء الجديد مكان البناء القديم في عالم العلم والعقل . لكنَّني ملتُ أخيراً إلى استخدام عبارة الجذريِّ استبعاداً عن الظلال الكريهة لمصطلح الثورية !! .

---

(١) ألقى العلامة الندوي هذا البحث في ملتقى الفكر الإسلامي العشرين المنعقد في بلدة « سطيف » في الجزائر عام ١٩٨٦م حضره نخبة ممتازة من رجال الفكر والثقافة والبحث والتحقيق من العلماء وأساتذة الفن في العالم الإسلامي ، وكان عددهم كبيراً قلما يتفق وجود مثل هذه المجموعة الكبيرة من أصحاب العلم والفكر الكبار في الندوات العلمية . نُشر هذا البحث القيم تباعاً في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس ، المجلد الثاني والثلاثون عام ١٩٨٧م .

الحاجة إلى استعراض العالم القديم عقائدياً ، وعقلياً ، وخلقياً :

إنَّه لا يمكن تقدير قيمة دور الإسلام الإصلاحيّ البنَّاء حتى إلى حدٍّ محدودٍ والإنصاف له بعض الإنصاف ، والشعور بضخامة عمله بعض الشعور ، وفهم الصعوبات والعوائق التي اعترضت له في تحقيق أهدافه وإكمال مهمته ، إلا إذا استعرضنا العالم القديم ، الذي جاء فيه الإسلام يحمل رسالته للبشرية ، وإلا إذا ألقينا بعض الأضواء على الشعوب الرائدة العملاقة التي قادت العالم القديم علمياً وعقلياً ، وعقائدياً ، بين ٥٠٠ق.م إلى ٥٠٠م[١] .

اليونان القديمة ، ودورها القيادي الساحر في عالم العلم والعقل :

وفي مقدمة هذه الشعوب الرائدة والمدارس العلمية والفكرية الموجهة للعالم كلِّه ، والمسيطرة على العقول في العالم المتحضر بين رومة في الغرب ، وباتلي بترا (بتنه) في الشرق ، هي (اليونان) ولا نعرف في التاريخ شعباً تمتَّع بإجلالٍ وتقديرٍ ، وإخضاعٍ وتسخيرٍ ، في الأوساط العلمية والفكرية ، وبقى محتفظاً بالهيمنة على العقول والقرائح ، والنشاطات العلمية إلى حدِّ التقديس ، واعتقاد العصمة من الخطأ لأطول مدَّة في التاريخ ، وأفسح مساحةٍ في الجغرافية ، وأوسع إطارٍ من العلوم والآداب ، بفهمٍ ووعيٍ ، أو في دهشةٍ وانبهارٍ ، مثل ما تمتع به اليونان .

وإلى القراء بعض الشهادات التاريخية واعترافات بعض الباحثين والفضلاء ، يقول صاحب مقال « إلى أيِّ حدٍّ يدين العالم لليونان ؟ » (H. A. L. Fisher) في التاريخ العام للعالم (Universal History of the World) :

---

(١) وذلك دور ازدهار الفلسفة اليونانية ، فإنَّ سقراط ولد عام ٤٦٩ق.م ، وعاش إلى عام ٣٩٩ ق.م ، وولد أفلاطون عام ٤٢٧ق.م ، وأرسطو عام ٣٨٥ق.م وبقيت المدرسة الإغريقية ـ في الفلسفة ، والمنطق والعلوم الرياضية والطب والأدب ـ هي القدوة والموجهة بطريق مباشر للمدارس الفكرية والأدبية في الغرب والشرق ، إلى القرن السادس المسيحي ، وبعده عن طريق التراجم قروناً متطاولة حين تكفل العرب والفرس بنقل أفكارها وتدريس علومها وآدابها .

« إنَّ منبع الحضارة الأوربية في الحقيقة هو اليونان القديمة ، إنَّ مفكريها وفنانيها قد بحثوا عن الإنسان في روائع فنهم ، وحلُّوا لغزة الطبيعة ، وعبروا عن الجمال ، وليست هذه الحقيقة الواضحة في حاجة إلى تفصيل ، إنَّ جميع فروع العلم سواء كانت ذات صلة بالعلوم الرياضية والطب ، أو بأيِّ فرعٍ من فروع الفلسفة ، أو المنطق أو بالأخلاق وعلم النفس ، أو بفرعٍ من فروع الأدب ، ترجع أصولها إلى اليونان ، وإنْ صرفنا النظر عن النظريات التعليمية المنسوبة إلى أفلاطون ، وأرسطو ، فإنَّ بعض المصطلحات العلمية التي لا تزال منتشرةً إلى الآن ، وعليها الاعتماد ، مثل (Alphabet) (الألفباء) (School) (المدرسة) و(Pedagogy) (علم أصول التدريس) ، هي يونانية اللغة والتعبير ، وهي تكفي للدلالة على أنَّ أهل اليونان كانوا هم الأدلاء على العلم والفن ، المنيرين لسبلها »(١) .

ويقول العالم الغربي (W. G. Burgh) في كتابه (تراث العالم القديم The Legacy of ancient world) :

« لم يفهم شعبٌ حقائق الحياة والعلم إلى هذا المدى من وضوح البصيرة ونقائها ، ولم يعبر عنها في هذه الدقَّة كما استطاع ذلك الشعب الإغريقي ، إنَّ ذكاءه المحيِّر للعقول مكَّنه من عرض العلم والعمل عن طريق الكلمات والتعبيرات الفلسفية إلى درجة اعتمدت الأجيال المتأخرة على الأسس التي أرساها اليونان ، بل أصبحت مدينةً لها معترفةً بفضلها في إنشاء مؤسساتها العلمية والفكرية على هذه الأسس »(٢) .

الهند القديمة ومكانتها في الفلسفة والعلوم الرياضية :

ويلي اليونان الهند القديمة ، ولو صرفنا النظر عما يدعيه بعض الغلاة من المؤلفين في تمجيد الهند علمياً ، وردِّ كلِّ عظمةٍ وعبقريةٍ إليها ، فيقولون :

---

(١) Universal history of world 'London' Vol - 111P. 1555.

(٢) The Legacy of the ancient world 'London' 1947 P.117.

إنَّ فلاسفة الهند ورياضييها كانوا أساتذة اليونان في الفلسفة والعلوم الرياضية والطب، تتلمذ عليهم علماء اليونان، واقتبسوا عنهم العلوم، فلا شكَّ أنَّ الهند تلي اليونان في البراعة، والتفوق في الفلسفة، والعلوم الرياضية والطب.

يقول العالم الفاضل: (Cyril Henty Philips) أستاذ التاريخ الشرقي في جامعة لندن؛ في مقال له في دائرة المعارف البريطانية (Encyclopedia Britannica):

« إنَّ مأثرة الهند الكبرى ظهرت في المجالات الفكرية والحضارية. إنَّ نظامهم الفلسفي، والديني، والأدب السنسكريتي، أول انتصار للعقل الإنساني. إنَّ عبقريتهم تجلَّت في ميدان قواعد الصرف، والنحو، والقانون، والفن المعماري، وصنع التماثيل، والتصوير، والموسيقا، والفنون الجميلة، والصنائع اليدوية، وصنع المعادن، والتطريز، وصوغ الحلي، واستخدام العاج والخشب في المصنوعات والزخارف، والهند هي التي كشفت الأرقام إلى رقم ٩، واهتدت إلى فنِّ العدد، والأرقام بإضافة صفر (٠) بعد رقم ٩»(١).

وجاء في دائرة المعارف لتاريخ العالم، للمشرف عليها William L. Langer وهو يتحدث عن دور الهند بين عام ٣٢٠م إلى ٥٣٥م:

« لقد نشطت الحركة الأدبية وتضخَّم الإنتاج الأدبي في هذا العهد، ونبغ شاعر ككالي داس، اشتهرت قصصه، وتمثيلياته، ونقلت إلى عدَّة لغات.

وقد تقدَّمت فنون مختلفة في هذا العهد تقدماً كبيراً، مثل الفنِّ المعماري، والتصوير، والنقش، والطب، أمَّا في العلوم؛ فقد وضعت أصول الهيئة والرياضيات والهندسة، وقد ادَّعى عالم هندي من علماء الهيئة اسمه آرية بهت (Arya Bhat) دوران الأرض »(٢).

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ج/ ١٤، طبع عام ١٩٨٥م Encyclopedia Britannica.

(٢) An Encyclopedia of world history, by willam L-Langer. P.140.

إيران في سعة مملكتها وفي أوج حضارتها :

ويلي اليونان ، والهند ، إيران ، فكانت أعظم من الإمبراطورية الرومانية الشرقية ـ بعد انشقاقها عن الإمبراطورية الرومانية الكبرى ـ مساحةً ، وأبَّهةً ، وثروة ، وقد تأسست على يد « أردشير » في سنة ٢٢٤م ، وكانت تحكم حين بلغت أوجها ، أسيرية ، وخوزستان ، وميديه ، وفارس ، وآذربيجان ، وطبرستان ، وسرخس ، وجرجان ، وكرمان ، ومرو ، وبلخ ، وسغد ، وسيستان ، وهرات ، وخراسان ، وخوارزم ، من فارس القديمة ، والعراق ، واليمن من الجزيرة العربية ، وقد دخلت بعض ولايات الهند مثل كجه ، وكاتيهاوار ، ومالوه في حكمها في بعض الفترات ، وقد اتَّسعت هذه الإمبراطورية اتساعاً كبيراً منذ القرن الرابع المسيحي ، وقد أوغلت في الشمال والشرق ، وبلغت إلى أقصى حدودها .

وقد كانت طيسيفون (المدائن) عاصمة الإمبراطورية ومقرَّ الإمبراطور الإيراني ، وكانت مجموعة مدن كما يبدو من اسمها العربي ، وقد بلغت أوجها في الرقي ، والمدنية ، والبذخ في القرن الخامس إلى ما بعد[١] .

وقد كانت إيران مأخوذةً بسحر اليونان في العلوم العقلية والرياضية ، متطفلةً عليها ، يقول الأستاذ آرتهر كرستن سين الدينماركي (Christensen, A.) في كتابه : « إيران في عهد الساسانيين » :

« إنَّ الفكرة اليونانية بما فيها من عقائد ، ونظريات أحدثت توافقاً بين الديانات المختلفة في غربي إيران ، وبصفةٍ عامَّةٍ على تخوم آسيا الغربية »[٢] .

ويقول Percy sykes في كتابه « تاريخ فارس » (A History of Persia) وهو يتحدَّث عن التأثير اليوناني في إيران :

---

(١) راجع للتفصيل « إيران في عهد الساسانيين » للبروفيسور ارتهر كرستن سين (Christensen'A.) .

(٢) أيضاً ، ص٣٧ .

« إنَّ نوشيروان طالع كتاب أرسطو ، وأفلاطون ؛ التي نقلت بأمره إلى الفارسية . إنَّه أنشأ في جند يسابور (خوزستان) جامعةً كانت تعنى بتدريس الطبِّ عنايةً خاصَّةً من غير أن تصرف النظر عن الفلسفة والعلوم الأخرى ، كما دوِّن تاريخ إيران المعلوم في كتاب بنى عليه الفردوسي ملحمته الشهيرة ، واستورد من الهند كتاباً هو السابق على حكايات لقمان ، كذلك ظهر لعب الشطرنج .

لقد أصبحت إيران في هذا العهد محلاًّ رئيسياً لتبادل الأفكار بين الشرق والغرب »[١] .

ويقول العلامة الدكتور محمد إقبال في كتابه « فلسفة العجم » :

« إنَّ الفلسفة اليونانية التي كانت نبتةً أجنبيةً لأرض إيران ، أصبحت جزءاً لا ينفكُّ من الفكر الإيراني ، وأصبح المفكرون الذين جاؤوا في العصور الأخيرة ـ بما فيهم من نقاد ـ يتكلمون في لغة أرسطو وأفلاطون ، وكانوا خاضعين مع ذلك للأفكار الدينية القديمة »[٢] .

تناقضات عجيبة في حياة الشعوب الثلاثة القائدة للعالم :

وبعد هذا الاستعراض الوجيز للوضع العقلي الفلسفي ، والعلمي الفني السائر على أرقى شعوب العالم القديم في القرون التي سبقت ظهور الإسلام ، وتصوير القمَّة التي وصلت إليها هذه الشعوب ، والمدارس الفكرية القائدة للشعوب والمجتمعات البشرية ؛ التي كانت تعيش على فتات مائدتهم ، وتتناول كل ما تقدِّمه إليهم هذه المدارس ـ بمعناها الواسع ـ من نظرياتٍ علميةٍ ، ونتائج بحثٍ وتأملاتٍ ـ كنهاية للعلم والذكاء ، وكأمورٍ بديهيَّةٍ في بعض الأحيان ، لا تتسع للبحث والنقاش ، نبحث ـ فنجد عجباً ـ عن بعض مواضع الضعف ، وعن تناقضات في حياتهم العقلية والثقافية ، ونظام تفكيرها

(١) Ahistory of Bersia by percy sykes. p. 459 London.

(٢) The Development of metaphysics in Persia, P.15.

وسلوكها ، وما لا يتَّفق مع هذا السموِّ العقلي والتحليق الفكري ، وفتوحاتها العلمية البعيدة ، وإنجازاتها وانتصاراتها الباهرة للعقول في مجالات العلوم الإنسانية .

مجموع أساطير (الميثالوجية) عند اليونان :

فمن أكبر تناقضات العقل البشري ، بل من أكبر تناقضات التاريخ العقائدي والثقافي ، ما عرفت به اليونان من التسفل فيما يتَّصل بمعرفة فاطر هذا الكون ، ومدبره ، وذاته ، وصفاته ، وفي العقائد الدينية والإلهيات ، فقد تبين من تاريخ اليونان القديم : أنَّ اليونان التي منحت العالم تراثاً واسعاً من العلوم الطبيعية والرياضية ، وتولَّت قيادة الدول العقلية والفكرية لآلافٍ من السنين ، (كما تقدم في السطور الماضية) ظلَّت تعبد الكواكب ، والأصنام في معظم أجزاء تاريخها ، وكانت فريسة الأوهام والخرافات الكثيرة ، وكان عندها استعدادٌ عجيبٌ ـ بجوار استقلالها الفكري وعدم خضوعها للمسلمات القديمة من غير بحثٍ ونقاشٍ وعرضها على محكِّ العقل والنقد ـ لقبول كلِّ غريبٍ ومنافٍ للعقل ، وما كان من نسج الخيال ، إذا كان ذا صلة بالعقيدة ، والديانة الشعبية القديمة .

إنَّ التاريخ الجديد قد أزاح الستار عن وجه علم الأصنام (Mythology) في اليونان ووثنيتها القديمة ، فقد تحقَّق أنَّ اليونان القديمة كانت ترزح تحت نير الآلهة والإلهات ، ومعابد الكواكب وهياكلها[1] .

---

(١) وقد غفل عن هذه الحقيقة التاريخية كثيرٌ من المتكلمين المسلمين الذين أعطوا الفلسفة اليونانية أكثر مما تستحقُّ من التقدير والإجلال ، وصاروا يبحثون في قضاياها كقضايا علمية ، وقد نبَّه على هذه النكتة أستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي ؛ إذ قال :

« وعلى كلِّ حالٍ فالفلسفة التي تلقَّاها المسلمون على أيدي الناقلين من يهود ونصارى لم تكن صافيةً محضة ، فإنَّها كانت مشوبةً بآرائهم ، وأوهن بيوت الفلسفة فلكياتها وإلهياتها ، فليست أولاهما إلا تأويل ما كان يعتقده اليونان في تأله الكواكب وأساطيرها ، فجعلوها فلسفة ، وعبَّروا عنها بكلمات فلسفية ، ولم يجدوا لها سلطاناً=

يقول الدكتور الفرد ويبر (Alfred Weber) في كتابه « تاريخ الفلسفة » وهو يتحدث عن اليونان القديمة :

« وبالضبط كما أنَّ طفلاً يجعل محيطه عالماً طلسمياً ، ويعتبر لعبه التي يلعب بها ، وحصانه الخشبي كائناتٍ حيَّةً ، كذلك يكون النوع البشري في طفولته الطبيعية خاضعاً لتصوراته وأهوائه (وذاك شأن اليونان في العهد القديم) »[١] .

« إنَّ الفلسفة لم تخلع عنها لباس الأساطير والخرافات (Mythology) في وقتٍ قريبٍ ، إنَّ الفلسفة ظلَّت تعبر عن أفكارها في لغة الشعر الغنائية ، ولم تزل محافظةً على نقائص العقائد الدينية التي انبثقت عنها »[٢] .

ويقول الفاضل الألماني الدكتور ويهلم وينسل (Wihelm Vansel) في كتابه « مختصر تاريخ فلسفة اليونان » :

« إنَّ اليونانيين كانت العبادة في حياتهم أكثر من الثقافة والعقائد ، لذلك لم يكن عندهم نظامٌ معترفٌ به من العقائد ، لقد ورثوا ميثالوجيةً قديمةً كانت تقبل التغيُّر والتطوُّر على حسب الأزمنة والأدوار ، وكانت تخييلات الأدباء والشعراء لا تزال تغير هيئتها »[٣] .

ويقول الفاضل أدولف هولم (Adolf Holm) في كتابه « تاريخ اليونان » :

« كان اليونان بطبيعتهم مغرمين بالطرافة وحبِّ كلِّ شيءٍ جديد ، ولم

= من البرهان غير نزرٍ يسيرٍ من الأوهام ، كالقول بالأفلاك وحركاتها وطبائعها ونفوسها وتأثيرها في القوى ، (الجزء الثالث من كتاب « المعتبر في الحكمة الإلهية لأبي البركات هبة الله بن علي البغدادي (م ٥٤٧هـ) مقالة العلامة السيد سليمان الندوي » ص٢٣١ .

(١) تاريخ الفلسفة ص٨ .

(٢) تاريخ الفلسفة ص١١ .

(٣) أيضاً ص١٤ .

يكن في دينهم نصيبٌ للعقائد الثابتة »[١] .

انتباه بعض كبار علماء الإسلام لهذه الحقيقة :

وقد أحسن حجة الإسلام الإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ) وصف هذا التناقض العجيب في مدارك العقلاء الأذكياء اليونانيين ، فيقول في حديثه عن آراء الفلاسفة اليونانيين فيما يتصل بالذات الإلهية وصفاتها ، وما صنفوه من نسب العقول والأفلاك :

« قلنا ما ذكرتموه تحكُّماتٌ ، وهي ـ على التحقيق ـ ظلماتٌ فوق ظلمات ، لو حكاه الإنسان عن منامٍ رآه لاستدلَّ على سوء مزاجه ، أو لو أورد جنسه في الفقهيات ـ التي قصارى المطلب فيها تخمينات ـ لقيل إنَّها ترَّهاتٌ لا تفيد غلبات الظنون »[٢] .

وقال في موضع آخر :

« لست أدري كيف يقنع المجنون من نفسه بمثل هذه الأوضاع فضلاً عن العقلاء الذين يشقُّون الشعر بزعمهم في المعقولات »[٣] .

وقد تفطن لهذه النكتة شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية (م٧٢٨هـ) فقال :

« وأمَّا معرفة الله تعالى ؛ فحظُّهم (يعني : اليونانيين) منها مبخوسٌ جداً ، وأما ملائكته وكتبه ، ورسله ، فلا يعرفون ذلك البتَّة ، ولم يتكلموا فيه لا بنفي ولا بإثبات ، وإنما تكلم في ذلك متأخروهم الداخلون في الملل »[٤] .

السرُّ في اضطراب اليونان العقلي والعقدي :

وقد ذكر أحد العلماء المسيحيين الأدباء السرَّ في هذا الاضطراب العقلي ، وهذا التناقض في حياة اليونان ، يقول جرجي زيدان :

---

(١) تاريخ يونان ، ج٢ ، تأليف أدولف هولم ص٣٧٢ .

(٢) تهافت الفلاسفة ، ص١١٥ .

(٣) أيضاً ، ص١٢٤ .

(٤) تفسير سورة الإخلاص ، ص٥٧ .

« أخذ اليونان بأهداب الفلسفة والعلم على أثر الحروب اليونانية الداخلية ، فإنَّها توالت ٢٧سنةً ، وفي نهايتها دخلت أثينا في حوزة المقدونيين ، وأصبح الأثينيون بعد العز أذلاء ، فساقتهم العبرة والمذلة إلى النظر في الوجود ، فنهضوا نهضةً فلسفيةً زعيمها وواضع أساسها سقراط ، والحروب يغلب أن يعقبها نهضةٌ أدبيَّةٌ ، أو علميَّةٌ أو سياسيَّةٌ على ما قررناه في غير هذا المكان . . وإن كانوا قد تنبَّهوا إلى شيءٍ من ذلك قبلاً .

فلما أصيبت أثينا بالذلِّ بعد تلك العظمة ، أصاب أهلها اضطرابٌ وانكسارٌ ، والإنسان إذا أصيب بنكبةٍ لا حيلة له في دفعها اشتغل عنها بالتعليلات الفلسفية عن الوجود وأصله ، ليخفف وطأة تلك المصيبة عليه ، وخصوصاً في مثل ما أصيبت به أثينا بعد عزِّها ، ورفعة شأنها ، وأصبح أهلها بعد سقوطها يتلفتون إلى الوراء آسفين ، وينظرون إلى الأمام خائفين ، وقد ذهبت أسباب مفاخرتهم القديمة ، ولم تنتظم حكومتهم الجديدة ، فتنبهت أذهانهم ، وانصرفت قرائحهم إلى النظر في شؤون الإنسان على الجملة ، وشؤونهم على الخصوص ، فكانت وجهة تلك النهضة الأدب والفلسفة ، ودخل القرن الرابع قبل الميلاد ، والناس يتناقلون آراء بعض المتقدمين من العلماء على ما يوافق أحوالهم ، ونفوسهم تشتاق إلى الزيادة »[١] .

علم الأصنام (الميثالوجية الهندية) وكثرة الآلهة والإلهات في الهند :

أما الهند التي فاقت في الفلسفة والعلوم الرياضية والطبِّ ، وكانت تلو اليونان كما قدَّمنا ، فقد تفوقت في ميثالوجيتها الوثنية (علم الأساطير) وأمعنت فيها ، حتى صارت فيها إماماً وقدوةً لما حولها من البلاد ، وامتازت بكثرة المعبودات ، والآلهة ، والإلهات ، وقد أصبح كلُّ شيءٍ رائع ، وكلُّ شيء هائل ، وكلُّ شيءٍ نافع إلهاً يعبد ، وارتقت صناعة نحت التماثيل ، وتأنق فيه المتأنقون .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ، لجرجي زيدان ، ج٢ ص٣٣٠ .

يقول الأستاذ الهندوكي L. S. S. O. Malley في كتابه « الهندوكية السائدة (دين الجماهير) » :

« إنَّ عملية خلق الآلهة ، لم تنته على هذا ، فلم تزل تنضم آلهةٌ صغيرةٌ في فتراتٍ تاريخيةٍ مختلفةٍ إلى هذا « المجتمع الإلهي » في عددٍ كبير ، حتى أصبح منهم حشدٌ يفوق الحدَّ والإحصاء ، كان كثيرٌ منهم آلهة سكان الهند القدامى ، ألحقوا بآلهة الديانة الهندوكية ، ويذكر أنَّ عدد هؤلاء الآلهة قد بلغ ٣٣٠ مليوناً »[١] .

ويقول الأستاذ Vaidya C. V. في كتابه « تاريخ الهند الوسطى » :

« كانت الديانة الهندوكية ، والديانة البوذية وثنيتين سواء بسواء ، بل ربما كانت الديانة البوذية قد فاقت الديانة الهندوكية في الإغراق في الوثنية ، كان ابتداء هذه الديانة ـ البوذية ـ ينفي الإله ، ولكنَّها بالتدريج جعلت بوذا الإله الأكبر ، ثم أضافت إليه آلهةً أخرى على مرِّ الزمن »[٢] .

التطرف الإيراني العقائدي :

أما الإيرانيون ؛ فقد دانوا بالوثنية في كلِّ عصر ، وأصبح ذلك شعاراً لهم ، وآمنوا بإلهين اثنين ، أحدهما : النور ، أو إله الخير ، ويسمونه « آهورمزدا » أو « يزدان » والثاني : الظلام ، أو إله الشر ، وهو « أهرمن » ولا يزال الصراع بينهما قائماً ، والحرب دائمة[٣] .

يذكر المؤرخون للدِّيانة الإيرانية مجموعة أساطير متصلةً بالآلهة Mythology

---

(١) L. S. S. O. Malley, C. I. E. I. Popular Hndu Lsm, The igion of The Masses, (Cambridge, 1935) pp.6-7.

(٢) C. V. Vaidya: History Of Mediacval India, Vol. I Poona 1921.

(٣) اقرأ كتاب « إيران في عهد الساسانيين » للبروفيسور آرتهركرستن سين (Christensen, A:) باب ، الدين الزردشتي ، ديانة الحكومة ص/ ١٨٣ ـ ٢٣٣ .

لا تقلُّ في غرابتها وتفاصيلها الدقيقة عن الميثولوجيا الإغريقي، أو الهندي[١].

وقد عُرف المجوس من قديم الزمان بعبادة العناصر الطبيعية ، وأعظمها النار ، وقد عكفوا على عبادتها أخيراً ، يبنون لها هياكل ، ومعابد ، وانتشرت بيوت النار هذه في طول البلاد وعرضها ، وكانت لها آدابٌ وشرائع دقيقةٌ ، وانقرضت كلُّ عقيدةٍ وديانةٍ غير عبادة النار ، وتقديس الشمس ، وأصبحت الديانة عندهم عبارةً عن طقوسٍ وتقاليد يؤدُّونها في أمكنةٍ خاصَّةٍ ، أما خارج المعابد فكانوا أحراراً ، يسيرون على هواهم ، وما تملي عليهم نفوسهم ، وأصبح المجوس لا فرق بينهم وبين من لا دين لهم ، ولا خلاف في الأعمال والأخلاق[٢] .

ويقول الأستاذ آرتهر كرستن سين وهو يحكي عن ديانة إيران :

« إنَّ ديانة الآريين القديمة (ومنهم أهل إيران) كانت مؤسسةً على عبادة العناصر ، والأجسام الفلكية ، والقوى الطبيعية ، ولكن سرعان ما أضيفت آلهةٌ جديدةٌ إلى آلهة القوى الطبيعية ، كانت تمثل القوى الخلقية ، أو كانت تماثيل للتصوُّرات الذهنية »[٣] .

ويذكر المؤرخون للديانة الإيرانية مجموعة أساطير متصلةً بالآلهة (Mythology) لا تقلُّ في غرابتها وتفاصيلها عن الميثالوجية الإغريقية أو الهندية .

وقد أحسن العلامة الدكتور محمد إقبال في وصف طبيعة الإيرانيين القلقة المضطربة التي تجلَّت في حياتهم ، من مجال العقيدة والديانة ، إلى الشعر والأدب ، يقول :

« إنَّ تخيُّل الإيرانيين كان كالفراشة دائمة الحركة والطيران ، تنتقل ـ في حالة شبيهة بسكرٍ وطربٍ ـ من زهرةٍ إلى زهرةٍ أخرى ، وتعجز عن تصور

---

(١) أيضاً ، ص٢٠٤ ـ ٢٠٩ .
(٢) أيضاً ، ص٣٠ .
(٣) « إيران في عهد الساسانيين » ص٣٠ .

الحديقة تصوراً جامعاً شاملاً ، لذلك ظهرت أفكارهم الممعنة في العمق ، وعواطفهم الجياشة ، في أبيات لا يربطها نظام ، وتجلّت في النسيب والغزل الذي ينمُّ عن الرقة والدقة »[١] .

التفسخ الخلقي والانحلال الاجتماعي في مراكز العلوم والحكمة :

والمأخذ الثاني في حياة الشعوب والبلاد الثلاثة التي اتصفت بالعبقرية الفكرية ، والإبداع الفني ، بالنسبة إلى الأمم المعاصرة والبلاد المجاورة لها ، والتي قادت العالم المفتوح علمياً وفكرياً ، أو المأخوذ بسحرها (وهي : اليونان ، والهند ، وإيران) هو التدهور الخلقي ، والخضوع الزائد للغريزة الجنسية ، والدوافع الجامحة ، فكانت على طرفي نقيض من السمو العقلي والتدنّي الخلقي ، لا تمنعها من ذلك التأملات الفلسفية ، ولا اللّذة بالفتوح العلمية ، ولا المثل والقيم الخلقية .

في اليونان :

أما اليونان فتكفي عنها شهادة مؤرخ أخلاق أوربة الشهير ليكي (Lecky, W. E. H) يقول في كتابه الشهير « تاريخ أخلاق أوربة » (History of European Morals) :

« مما يقضى منه العجب (فيما يتصل بالحياة في اليونان القديمة) : أنَّ الخضوع للغريزة الجنسية ، والانسياق مع الأهواء والشهوات كان في أوجه ، وقد بلغ القمَّة تحت سمع حكماء الأخلاق وبصرهم ، بل الأصح أنَّه قد بلغ القمَّة في ظل احتضانهم وإشرافهم ، فإذا روى لنا أحدٌ أنَّ كبار أساقفة باريس المتدينين كانوا جالسين في غرفة المومسة الفرنسية الشهيرة « نيتادى انكلو » يشيرون عليها بما يساعدها على نجاح مهنتها وازدهارها ، فلا يوجد من يصدِّق هذه الرواية ، ولكن الحقيقة التاريخية أنَّ نفس هذه الصلة (الآثمة) كانت

---

(١) The Development Of Metaphysics In Persia, PP. 13-14.

قائمةً بين سقراط الكبير والمومسة اليونانية الشهيرة « تهيودونا » »[١] .

ويقول في موضع آخر :

« إنَّ تشكيك الفلاسفة قد استأصل الديانات القديمة ، وقد اكتسح البلاد (اليونان) سيلٌ من الترف الشرقي والتدهور الخلقي ، وقد انتشرت في هذا الوضع وقائع البغاء ، والفجور انتشاراً كبيراً ، وكثر عددها إلى حدٍّ هائل »[٢] .

ويروي التاريخ الموثوق به عن أرسطو وصلاته الأثيمة ببعض المومسات اليونانية ، وكذلك عن أفلاطون وصلاته بالمومسات والغلمان ، ويحكي رواياتٍ عن كبار فلاسفة اليونان مثل : سقراط ، وأفلاطون ، من الدعارة والشذوذ الجنسي ، وحماية البغاء الرسمي ، وتبريره ما يندى له جبين الحياء ، ويحمرُّ له وجه الأدب ، ويصعب على الباحث في موضوع جدِّي مثل هذا الموضوع الذي له صلة بالديانة ، والأخلاق ، ودور الإسلام الإصلاحي التربوي ، أن ينقل هذه الشهادات ، ويكفيه أن يحيل القارىء على مصدرها الكبير[٣] .

في الهند :

أما الهند فقد اتفقت كلمة المؤرخين على أنَّ المجتمع الهندي كان قد بلغ درجة الانهيار الخلقي في مستهل القرن السادس الميلادي[٤] فانتشرت الخلاعة حتى في المعابد ، وأصبحت لا عيب فيها ؛ لأنَّ الدين قد أضفى عليها لوناً من القدس والتعبُّد[٥] .

---

(١) History of European By Lecky, W.E.H. New york - 1855, p: 175-176.

(٢) أيضاً ، ج٢ ، ص١٩٢ .

(٣) Hans Lichtm sexual Life In Ancient Greece, London 1942.

(٤) راجع « الهند القديمة » ج٣ ، لمؤلفه . R. C. Dutt .

(٥) ستيارته ـ بكداش ، لديانند سرسوتي ، ص٣٤٤ .

ويقول فاضل هندوكي « ويديا دهر مهاجن » :

« كان الجماهير في الهند (في القرن السادس المسيحي) يتهرَّبون من الأعمال الشاقَّة والكدح ، وكانوا يصرفون أوقاتهم في الاستهتار وخلع العذار ، وقد راجت في تلك الفترة ديانة « وامارکي » في العامة ، التي كان مبدؤها : كلوا ، واشربوا واقضوا حياتكم في صفاءٍ وسرور » (Eat Drink And Be Marry) فكانوا يعيشون على شرب الخمور ، والتمتُّع بالغيد والغواني .

وقد تسرَّبت هذه القبائح إلى المدارس ، وأصبحت المعابد والزوايا مسرحاً للكسل والترف ، وكان أكثر كهنتها يعيشون حياةً داعرةً ، وكان فيها عددٌ كبيرٌ من البنات والشابات اللاتي لم يتزوجن ، انتشرت بسببهن الخلاعة ، وحياة الفجور ، كذلك فإنَّ وجود الراهبات في المعابد اللاتي نذرن حياتهن لهذه المعابد وكهانها ، قد سبب فوضى خلقية هائلة ، وفي ذلك العهد ظهر أدبٌ خليعٌ يسمى بـ « Tantrik » كان له أثر عميق في الأخلاق »[1] .

في إيران :

أما إيران فقد كانت مسرحاً بارزاً لتضعضع أسس الأخلاق والفضيلة وذوبانها ، وقد شاع التمتُّع بالحياة وانتهاب المسرَّات إلى حدٍّ بعيدٍ ، وقد ظهر مزدك في أوائل القرن الخامس المسيحي ، فدعا إلى إباحة الأموال والنساء ، وجعل الناس شركاء فيها ، وقد جاء في وثيقةٍ إيرانيةٍ تاريخيةٍ تعرف « نامه تنسر » تصوير لذلك العصر :

« وانتهكت الأعراض ، وعم خلع العذار ، لقد نشأ جيلٌ لا كرامة فيه ، ولا عمل ، ولم يكن له رصيدٌ ولا ماضٍ مجيدٌ »[2] .

وانغمست إيران في الفوضى الخلقية وطغيان الشهوات ، وكانت تتأرجح

---

(١) راجع Muslim Rule in India, pp: 33-34 .

(٢) « نامه تنسر » طبع مينوي ، ص١٣ .

بين أبيقورية[1] جامحة ، وتنسُّكٍ مغالٍ ، ولم تزل المحرمات النسبية التي تواضعت على حرمتها ومقتها طبائع أهل الأقاليم المعتدلة موضع خلاف وتقاض فيها .

حيرة واضطراب وفلسفات سلبية متناقضة عند قادة الفكر والعلوم :

والمأخذ الثالث الذي يمثل موضع الضعف والانتقاد في هذه الشعوب والأقطار الثلاثة التي تزعمت العلم ، والفلسفة ، والرياضيات ، والآداب ، وقادت العالم مدَّة طويلة ، هو أن هذه الرحلة الطويلة المضنية في سبيل العلم والفن والاكتشاف ، والاختراع والابتكار ، التي تستحقُّ من المنصفين وهواة العلم كلَّ إعجابٍ وتقدير ، كانت بلا غايةٍ محدَّدةٍ ، وعلى غير بصيرةٍ وبينة ، فكانت تؤدي أحياناً إلى حيرة واضطراب ، وأحياناً أخرى إلى فلسفاتٍ سلبية ، وقد انتهت باليونان تارةً إلى الارتياب واللاأدرية (Agnosticiam) وتارةً إلى أبيقورية (Epicureanism) ترى المتعة بالحياة واللذة « الخير الأسمى » ومقياس الأخذ والعطاء ، والسلوك والأخلاق ، وتارةً إلى سوفسطائية (Sophism) تنكر إمكان الوصول إلى حقائق موضوعيةٍ ثابتةٍ ؛ إذ الحقيقة عندهم ذاتيةٌ نسبيةٌ تختلف باختلاف الأفراد ، كان من نتائج هذه التعاليم هدم المعايير الثابتة في الأخلاق ، والشك في البديهيات والمسلمات .

وقد أدَّت هذه الرحلة المعتمدة على التأملات والمغامرات وردود الفعل ، وعلى الذكاء والتجرُّد وإجهاد الجسم ـ بالهند مرَّة ـ إلى الديانة (الجينية) التي ظهرت في القرن السادس قبل المسيح ، والتي تقوم على تعاليم خلقية سلبية غالباً ، وعدم امتلاك شيء ، والكف عن الإيذاء حتى عن قتل الحشرات والهوام ، ثم تدرَّجت إلى حياة العزوبة والتجرُّد ، والرهبانية المجهدة ، في عهد أحد قادتها « مهاوير » .

وفي نفس هذا العهد(٦٠٠ق.م) ظهر بوذا ، وكانت تعاليمه ردَّ فعلٍ

---

(١) مذهب أبيقور ، الفيلسوف الإغريقي ، الذي قال بأن المتعة هي الخير الأسمى .

عنيفٍ ضدَّ النظام البرهمي والنظام الطبقي السائدين على الهند ، وعلى الرهبنة ، والإغراق في التأمل والمراقبة ، وكان ابتداء هذه الديانة ـ البوذية ـ ينفي الإله ، ولكنّها بالتدريج جعلت بوذا الإله الأكبر ، ثم أضافت إليه آلهةً أخرى على مر الزمن[١] .

وأدّت إيران إلى الزردشتية التي خلقت المزدائية ، وكانت مؤسسةً على الحرب القائمة بين النور والظلام ، أو بين إله الخير وإله الشر ، ثم جاء « ماني » يدعو إلى حياة العزوبة ، لحسم مادة الفساد والشر من العالم ، وانتصار النور على الظلمة بقطع النسل ، وذلك في أوائل القرن الثالث المسيحي ، وظهر مزدك في أوائل القرن الخامس المسيحي ، فدعا إلى إباحة الأموال والنساء ، وجعل الناس شركاء فيها ، فكانت النتيجة أن انتشرت ثورات الفلاحين ، وكثر النهابون ، وأصبحت الأراضي والمزارع مقفرةً خربةً[٢] ، وظلّت إيران القديمة في أكثر عهودها تحت تأثير الدعوات المتطرفة المغالية ، وردود فعلٍ عنيفة بين احتكار سلالي ، أو طبقي ، أو ديني ، وشيوعية متطرفة ، وفوضوية مطلقة ، وكل ذلك نتيجة رحلةٍ على غير هدى ، ومن غير خرِّيت حاذق ، وقائدٍ بصير مؤيدٍ من الله .

وحدات علمية متناثرة بعيدة عن واقع الحياة :

وكانت النتيجة الثانية أن أصبحت العلوم والفنون والآداب ، والمدارس المختصَّة بالفلسفة والمنطق ، والرياضيات ، والهندسة ، والجغرافية والتاريخ ، والأدب والشعر والملاحم ، وحداتٍ متناثرةً ، متناقضةً أحياناً ، مختلفة في الهدف ، متفاوتةً في التأثير ، وتكوين السيرة والأخلاق ، والنظر إلى الكون والإنسان ، لا رباط بينهما ، ولا تفاهم ، فضلاً عن التعاون على إسعاد البشرية ، وتكوين المجتمع الصَّالح ، والمدينة الفاضلة ، وربط الخلق

---

(١) راجع للتفصيل « تاريخ الهند الوسطى » للأستاذ سي ، وي ، ويديا .
C. V. Vaidya History of Mediaeval Inbia, Bol, I, Poona -1921, 101.

(٢) إيران في عهد الساسانيين .

بالخالق ، والكون بالفاطر ، يعيش أئمتها وأساتذتها في عالمهم المحدود ، قد يكون خيالياً ، وقد يقع في برجٍ عاجيٍّ بعيدٍ عن الحياة العملية ، والمجتمع المائج والهائج ، والحياة المضطربة المتطورة ، وحكومات عادلة حيناً ، جائرة أحياناً كثيرة ، لا شأن لهم في أكثر الأحوال بمصير الإنسانية ، وأوضاع المدنية .

البعد عن النبوات وتعاليمها هو السبب الرئيسي لشقاء هذه الشعوب والبلاد :

والسر في تخبط هذه الشعوب والبلاد العملاقة العبقرية في الفنون والآداب ، والفلسفة ، والرياضيات تخبطاً شبيهاً بخبط عشواء ، أو رمي السهام في الظلماء ، وفي السرِّ في وجود التفاوت الفاحش ، والفجوة العميقة السحيقة بين العلم والعمل ، والنظر والسلوك ، وبين الذكاء والخلق والاستقامة ، وفي انتشار الفوضى المنهجية والعقائدية ، والتوزع بين المذاهب والآراء ، وفي وجود وحداتٍ علميةٍ متناقضةٍ حيناً ، متناثرةٍ أحياناً ، مجردةٍ من وحدة تربطها ، وتخضعها لقوةٍ قاهرةٍ ، أو إرادةٍ قاسرةٍ ، أو غايةٍ مشتركةٍ فاضلةٍ ، هو انقطاع آخر خيط كان يربط هذه الشعوب والبلاد بالنبوات[1] ؛ إذ

---

(١) يقول القرآن : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [المؤمن : ٨٣] .
يقول العلامة شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي في تفسيره « روح المعاني » يحكي قولًا ثانياً للمفسرين في تفسير (بما عندهم من العلم) :
« أنَّ المراد به علم الفلاسفة والدهريين من بني يونان على اختلاف أنواعه ، فكانوا إذا سمعوا بوحي الله تعالى دفعوه ، وصغروا علم الأنبياء عليهم السلام إلى ما عندهم من ذلك ، وعن سقراط أنَّه سمع بموسى عليه الصلاة والسلام ، وقيل له : لو هاجرت إليه ، فقال : نحن قوم مهذبون فلا حاجة لنا إلى من يهذبنا » (روح المعاني ، ج٢٤ ، ص٩١) ، وكذلك كان الشأن مع الهند وإيران » .
ولقد أحسن الفيلسوف الإنجليزي المشهور Roger Bacon في تعليل هذه النفسية المعوقة عن قبول الحق والإذعان له ، إذ قال : « إنَّ من الأسباب الرئيسية العائقة =

كانت هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة ، التي لا يشوبها جهلٌ ولا ضلالٌ ، ولا سوءُ فهمٍ ولا سوء تعبيرٍ ، ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى الصحيحة إلا ما كان عن طريقهم ، لا يستقلُّ بها العقل ، ولا يغني فيها الذكاء ، ولا تكفي سلامة الفطرة ، وحدَّة الذهن ، والإغراق في القياس ، والغنى في التجارب .

فضل النبوة والأنبياء والحاجة إليهم :

وقد ذكر الله تعالى هذه الحقيقة الناصعة على لسان أهل الجنَّة ـ وهم أهل الصدق وأهل التجربة ـ وقد أعلنوا ذلك في مقام صدق وجد كذلك :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣] وقرنوا هذا الاعتراف والتقرير بقولهم : ﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٤٣] ، فدلَّ على أنَّ الرسل وبعثتهم هي التي تمكنوا بها من معرفة الله تعالى ، وعلم مرضاته ، وأحكامه ، والعمل بها ؛ الذي تمكنوا به من الدخول في الجنَّة ، والوصول إلى دار النعيم ، وقد ختم الله تعالى سورةً جليلةً من سور القرآن (وهي سورة الصافات) بهذه الحقيقة ، فقد نفى فيه ضلال المشركين وسـوء اعتقادهم ، ونسبتهم إلى الله مـا هو منه بريء ، ثم قال في آخر السورة : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢] .

والآيات الثلاث حلقات متَّصلة بعضها ببعض ، فلما نزه الله نفسه العلية عمَّا يتفوَّه به المشركون ، ذكر المرسلين الذين جاؤوا بالتنزيه والتقديس الكاملين ، والوصف الصحيح البليغ ، وسلَّم ، وأثنى عليهم ؛ لأنَّهم هم أهل الفضل في تعريف الخلق بالخالق ، وفي الوصف الصحيح الصادق ، وكانت بعثتهم منةً على الخلق ، ونعمةً على الإنسانية ، ومن مقتضيات الربوبية

= عن التمسك بالحق ، هو إخفاء جهلنا الشخصي ، الذي يرافقه التظاهر بالعمل البراق الخادع » (Roger Bacon- Opus Majustrans R. S. Burke 1928) .

الرحيمة الحكيمة ، فختم كلَّ ذلك بقوله : ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨٢][١] .

أساس للعقائد والأعمال والأخلاق والمدنية :

وكان هذا العلم الذي جاء به الأنبياء أجلَّ علمٍ تتوقف عليه سعادة البشر ؛ إذ هو الأساس للعقائد ، والأعمال ، والأخلاق ، والمدنية ، وهو الذي يعرف به الإنسان نفسه ، ويفكُّ به لغز الكون ، ويكشف عن سرِّ الحياة ، وبه يعيِّن الإنسان مركزه في هذا العالم ، وينظم علاقاته واتصالاته من بين بني جنسه ، ويضع منهاج حياته ، ويحدِّد غاياته في ثقةٍ وبصيرةٍ ، ووضوحٍ ويقين .

ثم إنَّ النبوات ـ وعلى رأسها وفي خاتمتها النبوّة المحمَّدية تربط العلم دائماً بالعمل ، والقول بالتطبيق ، والإيمان والاقتناع بالحقائق ، بالسلوك الفردي والجماعي ، فيقول القرآن : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : ٢ ـ ٣] ويقول في وصف العلماء الراسخين : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وقد ضرب الله مثلاً للذين يعلمون ولا يعملون بما يعلمون بالحمار الذي يحمل وقراً من الكتب والأسفار على ظهره ، ولا ينتفع به ، فقال : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة : ٥][٢] ، وتلك غاية في الذم ، والاحتقار ، والتبكيت ، والتقريع .

---

(١) مقتبس من كتاب صاحب المقال « النبوة والأنبياء في ضوء القرآن » ص٢٦ ـ ٢٧ ، (دار القلم ، الطبعة الرابعة) .

(٢) قال العلامة شهاب الدين محمود الآلوسي في تفسيره « روح المعاني » في تفسير كلمة « أسفار » : « كتباً كباراً على ما يشعر به التنكير ، وإيثار لفظ السفر وما فيه من معنى الكشف من العلم يتعب بحملها ولا ينتفع بها . . وفي الآية دليل على سوء حال العالم الذي لا يعمل بعلمه ، وتخصيص الحمار بالتشبيه به لأنه كالعلم في الجهل » (روح المعاني ، ج٢٨ ، ص٩٥) .

النبوة وتهذيب الأخلاق وتزكية النفوس :

ومهمة تهذيب الأخلاق وتزكية النفوس ؛ تشغل مكاناً كبيراً في دائرة الدعوات النبوية ، ومقاصد البعثة ، والقرآن قد أطلق لفظ الحكمة على الأخلاق والآداب بعد ما ذكر رؤوسها وأصولها في سورة الإسراء ، فقال : ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾ [الإسراء : ٣٩] ، وقال قبل أن يذكر تعاليم لقمان الخلقية ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان : ١٢] وقال بعد ما ذكر الإنفاق في سبيل الله من غير منٍّ ولا أذى ، والتوكل على الله في عدم الخوف من الفقر : ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

وقد ذكر النبيُّ ﷺ هذا الغرض العظيم الذي جاءت من أجله البعثة النبوية بكلمة الحصر ، فقال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[1] وقد كان خير مثال له وأفضل أسوة فيه ، فقد قال القرآن : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

لمحة عن الجيل الذي نشأ في أحضان النبوة المحمدية :

وقد نشأ في أحضان آخر الرسل ﷺ جيلٌ تحلَّى بأفضل الأخلاق ، وأكرم الصفات ، وتجرَّد عن رذائل الأخلاق ، ومهلكات العادات ، وذمائم الصفات ، وغوائل النفوس ، وبقايا الجاهلية ، ومغالطات الشيطان ، وقد شهد القرآن باستقامة قلوبهم ، وصلاح نفوسهم ، ووصولهم إلى ذروة تهذيب الأخلاق ، وتزكية النفوس ، فقال :

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات : ٧ ـ ٨] .

---

(١) رواه مالك في الموطأ .

ويحلو لي أن أنقل هنا ما سبق أن قلته في الحديث عن « مأثرة النبوة المحمدية » في كتابي النبوة والأنبياء في ضوء القرآن :

« إنَّ كلَّ فردٍ من هؤلاء الأفراد معجزةٌ مستقلةٌ ، وآيةٌ من آيات النبوة ، ومأثرةٌ من مآثرها الخالدة ، وبرهانٌ ساطع على أشرفية النوع الإنساني ، إنَّ مصوراً لم يصور بريشته البارعة ومخيلته السخيَّة صورةً أجمل وأبدع مما كان عليه هؤلاء الأفراد في عالم الحقيقة والواقع ، وفي شهادة التاريخ ، وإنَّ شاعراً لم يتخيل بخياله الخصيب ، وقريحته الفياضة ، ومقدرته الشعرية أوصافاً أجمل ، وسيرةً أعطر ، وجمالًا أكمل مما وجد في هؤلاء الأفراد ، ولو اجتمع أدباء العالم في صعيدٍ واحدٍ ، فعرضوا نموذجاً إنسانياً رفيعاً لم يصل بهم الخيال إلى ما وصل إليه الواقع في حياة هؤلاء الأفراد ، الذين نشؤوا في حجرة النبوة وحضانتها ، وتخرجوا في مدرستها ، إنَّ إيمانهم الراسخ وعلمهم العميق ، وقلبهم البار ، وحياتهم البعيدة عن كل تكلف وصناعة ، وعن كل رياءٍ ونفاق ، وتجردهم من الأنانية ، وخشيتهم لله ، وعفَّتهم ، ونزاهتهم ، وعطفهم على الإنسان ، ورقة مشاعرهم ، وشجاعتهم ، وجلدهم ، وصبرهم ، وحرصهم على العبادة ، وحنينهم إلى الشهادة ، وفروسيتهم ، وفتوتهم ، وإحياءهم الليل ، وزهدهم في حطام الدنيا وزخارف الحياة ، وعدلهم ، وسهرهم على مصالح الرعية وإيثار راحتها على راحتهم ، كلُّ ذلك لا يوجد له نظير في الأمم ، ولا سوالف في التاريخ »[١] .

« أبرز رسول الله ﷺ برسالته ودعوته الفرد الصالح المؤمن بالله ، الخائف من عقاب الله ، الخاشع الأمين ، المؤثر للآخرة على الدنيا ، المستهين بالمادة ، المتغلِّب عليها بإيمانه ، وقوته الروحية ، يؤمن بأنَّ الدنيا خلقت له ، وأنه خلق للآخرة ، فإذا كان هذا الفرد تاجراً ؛ فهو التاجر الصدوق الأمين ، وإذا كان فقيراً ؛ فهو الرجل الشريف الكادح ، وإذا كان غنياً ؛ فهو الغني السخيُّ المواسي ، وإذا كان قاضياً ؛ فهو القاضي العادل الفهم ، وإذا كان

(١) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ص١٥٣ ـ ١٥٥ .

ولياً ؛ فهو الوالي المخلص الأمين ، وإذا كان سيداً رئيساً ؛ فهو الرئيس المتواضع الرحيم ، وإذا كان خادماً أو أجيراً ؛ فهو الرجل القويُّ الأمين ، وإذا كان أميناً للأموال العامة ، فهو الخازن الحفيظ العليم » .

وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الإسلاميُّ ، وتأسست الحكومة الإسلامية في دورها »[١] .

يقول العالم الألماني كاتاني (Caetani) في كتابه « حوليَّات الإسلام » :

« لقد كان هؤلاء الصحابة الكرام ممثلين صادقين لتراث رسول الله الخلقي ، ودعاة الإسلام في المستقبل ، وحملة تعاليم محمد ﷺ ؛ التي بلَّغها إلى أهل التقوى والورع ، لقد رفع بهم اتصالهم المستمر برسول الله ، وحبهم الخالص له إلى عالمٍ من الفكر والعواطف لم يشهد محيط أسمى منه وأرقى مدنية واجتماعاً ، والواقع أنَّ هؤلاء الصحابة حدثت فيهم تحوُّلاتٌ ذات قيمةٍ كبيرةٍ من كل زاوية ، وأثبتوا فيما بعد في أصعب مناسبات الحروب أنَّ مبادىء محمد ﷺ إنما بذرت في أخصب أرض أنبتت نباتاً حسناً ، وذلك عن طريق أناس ذوي كفاياتٍ عاليةٍ جداً ، كانوا حفظة الصحيفة المقدسة ، وأمناءها ، كانوا محافظين على كل ما تلقوه من رسول الله من كلام أو أمر ، لقد كان هؤلاء قادة الإسلام السابقين الكرام الذين أنجبوا فقهاء المجتمع الإسلامي وعلماءه ومحدثيه الأولين »[٢] .

الطريق الوحيد إلى الوحدة والتوحيد :

والأثر العقلي الذي يترتب على أثر عقيدة التوحيد على الإنسان ، هو أنَّ العالم كلَّه تابع لمركزٍ ونظامٍ واحدٍ ، ويرى الإنسان في أجزائه المنتشرة ترابطاً ظاهراً ، ووحدةً في القانون ، يستطيع الإنسان بفضله أن يأتي بتفسيرٍ كاملٍ للحياةِ ، وأن يقوم فكره وعمله في هذا الكون على حكمةٍ ، وبصيرةٍ ، وعلى

---

(١) أيضاً ص١٥٣ ـ ١٥٥ .

(٢) (1) Caetani (Annali Bell Islam) Vci.IIp, 429. T. W. Arnold: Preaching in is Iam, London-1935.

تعاونٍ على البرِّ والتقوى ، وإسعاد الإنسانية ، وتنظيم المجتمع ، وتوجيه المدنية ، والجمع بين الدِّين والدنيا ، وتوحيد الصفوف المتنافرة ، والمعسكرات المتحاربة .

لقد كانت وحدات العلم مبعثرةً ـ كما سبق في الحديث عن اليونان ـ بل كانت في أغلب الأحيان متناقضةً ، فعلم الطبيعة يخالف الدين ، وعلم الحكمة يحارب الدين ، حتى علوم الرياضة والطب البريئة كان يخرج منها أصحاب الاختصاص فيها أحياناً بنتائج سلبيةٍ إلحاديةٍ ، فكان في اليونان كما قدَّمنا علماء إما مشركون ، وإما ملحدون ، وقد ظلَّت علومها ومدارسها الفكرية في الشرق قروناً عديدةً خطاً على الدين ، ومدخلاً للتشكيك والنفاق ، واهتزاز العقائد في العاكفين عليها دراسة وتدريساً ، والمؤمنين بها المجلين لها ، ولها حكاياتٌ طويلةٌ ليس هذا محلُّها .

العثور على الوحدة في الظواهر الكونية :

وكان من أكبر معطيات النبوات في الزمن السابق ، وأكبر حسنات الإسلام في الأخير ، أنَّه دلَّ على الوحدة التي تربط بين وحدات العلم ، فقد تيسَّر له ذلك ، لأنَّه بدأ رحلته في مجال العلم والمعرفة بدايةً صحيحةً ، بدأها بالإيمان بالله ، والاستعانة به والاعتماد عليه ، عملاً بقوله تعالى لرسوله : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] وصحة البداية ـ في غالب الأحيان ـ كافلة بصحة النهاية ، فاستطاع بفضل القرآن والإيمان أن يكتشف الوحدة التي تربط الوحدات بعضها ببعض ، وهي معرفة الله تبارك وتعالى ، وذلك الذي مدح الله به عباده المؤمنين ، فقال : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩١] .

وكذلك كانت تبدو الوحدات الكونية ـ من الظواهر والحوادث والتغيُّرات ـ متناقضةً مضادة ، توقع الإنسان في حيرةٍ واضطرابٍ ، وقد تؤدي إلى الكفر والإلحاد ـ كما كان الشأن في اليونان ، وكما كان في أوساط الفلسفة اليونانية ومدارسها في الشرق الإسلامي ، وكما هو في الغرب اليوم ـ كما تؤدي إلى

الطعن والاعتراض على الخالق ومدبِّر الكون ، فدلَّ العلم الإنسانيُّ المؤسس على الإيمان والقرآن على الوحدة التي تجمع بين هذه الوحدات الكونية ، وهي إرادة الله الغلاَّبة ، وحكمته الباهرة .

أثر عقيدة التوحيد في الحياة وفهم الكون :

وقد أشار عالم غربي كبير هو « هيرالد هوفدنج » الألماني (Harold Hoffding) إلى أهمية العثور على هذه الوحدة ودورها الفعال في حياة الإنسان ومسيرة العلم والأخلاق .

يقول :

« إنَّ فكرة كلِّ دين قائمةٌ على التوحيد ، وهي تقوم على أن علَّة الوجود لجميع ما في الكون واحدة ـ وبغضِّ النظر عن المشاكل التي تحدث بهذه الفكرة بصورة لازمة ـ يخلِّف ذلك الاعتقاد أثراً نافعاً ومهماً على الطبيعة الإنسانية ، وهو أن أتباع هذا الدين يسهل عليهم الاعتقاد بأنَّ جميع الأشياء في العالم مرتبطةٌ حسب قانونٍ واحدٍ بغضِّ النظر عن الخلافات والتفاصيل ، فيلزم لكون العلَّة واحدة أن يكون القانون واحداً ، وقد غرست فلسفة الأزمنة المتوسطة الدينية فكرة وجود هذه الوحدة في كثرة المشاهدة في العالم في أذهان الناس ، إنَّها الفكرة التي كان الإنسان غير المثقف بمعزلٍ عنها بتأثير وجود الكثرة في المظاهر الطبيعية التي كان يتيه ، ويغوص فيها ، فيفلت من يده حبل الوحدة الذي يربط هذه الكثرة »[١] .

الدعوة إلى التفكُّر في الأنفس والآفاق وماضي الأمم والمجتمعات ، وفائدته :

وقد نوَّع القرآن وسائل العلم ، ومصادر الدراسة والتأمل ، ودعا إلى التفكُّر في الأنفس والآفاق ، وفي ماضي الأمم والمجتمعات (الذي يسميه القرآن بأيام الله وسننه في خلقه ، ويسميه العلم الحديث بالتاريخ) والتوصُّل

---

(١) History of Modern Philosophy, p, 5.

بكلٍّ ذلك إلى نتائج ذات قيمةٍ عميقة الأثرة، بعيدة المدى في المصير الإنساني.

يقول العلامة الدكتور محمد إقبال ، وهو يذكر دور الإسلام في توجيه العقل البشري ووسائل العلم ومصادره إلى ميدان أوسع وأكثر إنتاجاً ، يقول في محاضرته المشهورة : « تجديد الفكر الديني في الإسلام » (Reconstruction of Religious Thought in Islam) :

لقد عدَّ القرآن الكريم مصدرين آخرين للعلم ، أحدهما عالم الطبيعة ، وآخرهما عالم التاريخ ، وبالاستفادة منهما ظهرت الروح الطيبة للعالم الإسلامي . إنَّ الشمس والقمر ، وامتداد الظل ، واختلاف الليل والنهار ، واختلاف الألسنة والألوان ، وتداول الأيام بين الناس ، واختلاف السعادة والشقاء ، وبالجملة عالم الطبيعة كله ، الذي نعيش فيه ، ونلمسه بالحواس ، كلُّها في نظر القرآن آياتٌ للحقيقة المطلقة ، ولذلك من واجب كلِّ مسلم أن يتفكَّر ويتدبَّر في آيات الله ، وليس أن يصدَّ عنها صُمّاً وبكماً ؛ لأنَّ كلَّ من يغض بصره عن هذه الآيات في الحياة يحشر أعمى .

فلما أدرك المسلمون تدريجياً هذه الحقيقة ، وهي أنَّ الكون متحركٌ وسائرٌ ومتناهٍ ، وقابلٌ للتجديد والإضافة ؛ انصرفوا في النهاية إلى رفض الفلسفة اليونانية التي كانوا قد درسوها بشغف في مستهل حياتهم الذهنية ، وقد فاتهم أول الأمر أنَّ روح القرآن الكريم تتنافى مع الفلسفة اليونانية ، فدرسوا القرآن الكريم في ضوء الاعتقاد بالفلسفة اليونانية ، وبما أنَّ القرآن الكريم يؤكد على حقائق ثابتةٍ وأصيلةٍ ، وتقوم الحكمة اليونانية على مجرَّد النظريات ، لا الحقائق ؛ كان لا بدَّ من أن تخفق هذه الجهود يوماً من الأيام ، وهذا ما حدث ، وإلى مثل تلك الجهود يرجع ظهور روح الحقيقة للحضارة الإسلامية ، والثقافة الإسلامية ، وإذا ألقينا نظرةً عميقةً على أهم جوانب الحضارة الحديثة : وجدنا أنَّها هي الأخرى تدين إلى حدٍّ كبيرٍ لتلك الروح التي كانت مصدر الحضارة الإسلامية »[1] .

---

(١) Reconstruction Religius thought in Islam p,179.

ويقول في موضع آخر :

« عبَّر القرآن الكريم عن التاريخ بأيام الله ، وجعله مصدراً من مصادر العلم ، ومن تعاليمه الأخرى : أن الأمم والأقوام تحاسب بطريقين ، انفرادياً واجتماعياً ، وأنَّها تعاقب على سوء أعمالها في هذه الدنيا أيضاً ، واستشهد القرآن على ذلك بحوادث كثيرة من التاريخ ، كما أنَّ القرآن حثَّ قرّاءه على أن يفكِّروا في أحوال الإنسان الحالية والماضية » .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم : ٥] .

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٨١ ـ ١٨٣] .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧] .

﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ [يونس : ٤٩] .

إنَّ الآية الأخيرة تحمل طابع التعميم التاريخي ، كأنَّها توضح بطريقٍ حكيمٍ للغاية أن نفكر في الأمم الإنسانية كالأجسام النامية بمنهج علمي »(١) .

الحركة العلمية العالمية الفريدة التي أنشأتها تعاليم الإسلام :

ومن هذا التنويه بشأن العلم والحثِّ عليه انبثق ذلك النشاط ، وبكلمة أصح : الحماس العلمي ، والتفاني في سبيل العلم في تاريخ الإسلام ،

---

(١) ص٢١٢ ـ ٢١٣ ، والقطع من كتاب إقبال ، نقلها إلى العربية الأستاذ واضح رشيد الندوي .

وانطلقت هذه الحركة العلمية العالمية الخالدة التي تعدُّ مساحتها الزمنية من أكبر المساحات الزمنية ومساحتها المكانية من أكبر المساحات المكانية ، وتعدُّ المساحة المعنوية أوسع من كلتا المساحتين .

وتكفي هنا شهادةٌ لباحث غربيٍّ كبيرٍ ومؤرخٍ فرنسيٍّ شهير وهو الدكتور « غوستاف لوبون » الذي يقول في كتابه المشهور « حضارة العرب » :

« والإنسان يقضي العجب من الهمَّة التي أقدم بها العرب على البحث ، وإذا كانت هنالك أممٌ تساوت هي والعرب في ذلك ؛ فإنك لا تجد أمةً فاقت العرب على ما يحتمل ، والعرب كانوا إذا ما استولوا على مدينةٍ صرفوا همهم إلى إنشاء مسجدٍ وإقامة مدرسةٍ فيها وإذا ما كانت تلك المدينة كبيرة ، أسسوا فيها مدارس كثيرةً ، ومنها المدارس العشرون التي روى « بنيامين التُّطِيلِيُّ » المتوفى سنة ١١٧٣م أنه شاهدها في الإسكندرية ، وهذا عدا عن اشتمال المدن الكبرى ، كبغداد ، والقاهرة ، وطليطلة ، وقرطبة على جامعات مشتملة على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية ، وكل ما يساعد على البحث العلمي ، وكان للعرب في إسبانية وحدها سبعون مكتبةً عامَّة ، وكان في مكتبة الخليفة الحكم الثاني بقرطبة ستمئة ألف كتاب ، منها أربعة وأربعون مجلداً من الفهارس ، كما روى مؤرخو العرب ، وقد قيل بسبب ذلك : إنَّ « شارل الحكيم » لم يستطع بعد أربعمئة سنة أن يجمع في مكتبة فرنسا الملكية أكثر من تسعمئة (٩٠٠) مجلد يكاد ثلثها يكون خاصاً بعلم اللاَّهوت »[١] .

أكبر انحراف وقع في خط التقدم العلمي في أوربة :

إنَّ أكبر انحراف وقع في خط التقدم العلمي الذي سار عليه الغرب منذ استيقظ من سباته العميق ، وتحرر من هيمنة الكنيسة ومحاكم التفتيش في أوربة في القرون الوسطى ، واستأنف رحلته في دنيا العلم والاكتشاف ، وفي طريق تسخير الطاقات الطبيعية والكون لمآربه الفردية والجماعية أنَّ الغرب

---

(١) « حضارة العرب » ص٤٣٤ ، تأليف الدكتور غوستاف لوبون ، ترجمة الأستاذ عادل زعيتر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

واصل هذا العلم الذي أحدث انقلاباً هائلاً في الحضارة ، ككائنٍ مستقلٍّ حرٍّ يحقُّ له أن يحكم هذا الكون ويسخره لأغراضه الشخصية أو الوطنية ، أو القومية ، ويتصرَّف فيه كما يشاء ، وهو غير مسؤول أمام ربه ، يعمل ما يشاء بالأصالة ، لا بالخلافة والرسالة ، وهذا هو الخط الذي جرَّ على العلم وعلى الأمم التي لم تبلغ هذا الشأو البعيد من العلم والمدنية ، أو وقعت تحت رحمته وحكمه شقاءً طويلاً ، وعذاباً أليماً .

تعليم الأسماء لآدم كخليفة ومعناه العميق البعيد :

وبالعكس ، يصف القرآن الإنسان بأنَّه خليفة الله في أرضه ينفذ أوامره ، ويسير في ضوء تعاليمه ورسالته ، وهو مستخلف مفوض ، متقيِّد بأحكام ربه ، مسؤول أمامه ، مجزي على عمله ، محاسبٌ على سوء تصرُّفه وأنانيته ، معاقبٌ على تفريطه وإفراطه ، وعلى انخداعه بالقوة المحدودة ، والحكم الزائل ، والحياة العابرة ، والدنيا الفانية ، ومعاقب على استعباده لبني جنسه ، واستبداده فيهم ، فقد ذكر القرآن الحوار العميق المعنى ، بعيد المدى الذي جرى بينه تبارك وتعالى وبين الملائكة عند خلق آدم : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] وقد جاء فيه : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] فدلَّ ذلك على أن كلَّ ما اتصف به النسل الإنساني من صلاحيته للعلم الذي يحتاج إليه في هذا الكون ويستخدمه لصالحه ، وكل ما يربطه من صلة بهذا العالم الماديِّ ، وكلَّ ما وهب من طاقةٍ وإمكانيةٍ للانتفاع بهذا الكون والطبيعة والحياة ، إنما مصدره هو « الخلافة الإلهية » وإنَّ كل ذلك بالنيابة لا بالأصالة ، وكلَّ ذلك خاضع لمنصب الاستخلاف الذي خصَّ به دون الملائكة ، وفي القرآن إشارات غير ذلك تؤكد هذه المعاني . . منها قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد : ٧] ، وقوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ١٤] .

ويدلُّ القرآن على أنَّ خلافة الله تعالى مسؤوليةٌ عظيمةٌ تطلب العدل ، والرحمة ، والدقَّة ، والمحاسبة الدقيقة ، يقول الله تعالى مخاطباً نبيَّه داود عليه السلام ، وكان يحكم مملكةً واسعةً : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ

فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص : ٢٦] .

أعظم جهالة ظهرت على مسرح التاريخ :

وشتَّان بين الخلافة والأصالة ، فالخليفة دائماً مرتبطٌ بمن استخلفه ، خاضع ، خاشعٌ أمامه ، أمينٌ في خلقه ، رفيقٌ بمن نصب له ، شاكر لفضل مستخلفه ، رادٌّ لكلِّ فضلٍ ونعمةٍ إليه ، لا يأخذه الصَّلف والغرور ، ولا تستخفُّه القوَّة والسلطان ، وقد تناسى الغرب هذه الحقيقة فكانت أكبر عثرةٍ في تاريخ العلم والاكتشاف وفي تاريخ البشرية ، ولم يكن ذلك ذهول فرد ، أو أفرادٍ معدودين ، أو مدرسةٍ فكريةٍ ، أو فلسفةٍ ، بل كان ذهول العلم والقيادات العالمية ، التي أصبحت تتحكَّم في مصاير الأمم واتجاهات العالم ، فكان أشقى ذهول ، وأعظم غفلةٍ ، أو جهالة ، ظهرت على مسرح التاريخ ، وكانت غلطةً أنتجت عصراً وأجيالاً من الغلطات ، وقد قال بعض الحكماء : (ما رأيت ولوداً مثل الغلطة الواحدة) ولا يزال العالم يرزح تحت هذا الانحراف عن الخط المستقيم الذي رسمه الله ، وبيَّنه القرآن عن موقف الإنسان العاقل العليم الذي استخلفه الله على هذا الكوكب ، وخوَّله العلم والطاقة ، وسلَّحه بما يحتاج إليه في القيام بعبء هذه المسؤولية العظيمة الدقيقة .

الحركة العلمية الإسلامية وخصائصها[١] :

ومن خصائص الحركة العلمية التي انبثقت عن تعاليم الإسلام ، وقامت على أكتاف علماء المسلمين خمس خصائص ، نشير إليها على سبيل الاختيار والاختصار :

العالمية والإنسانية :

١ ـ عالمية هذه الحركة وإنسانيتها ، فالعلم في الإسلام حقٌّ مشاعٌ ، وثروةٌ

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الرابع والخامس ، المجلد الثالث والثلاثون ، عام ١٩٨٨م .

مشتركةٌ لجميع الأمم والشعوب ، والعناصر والأجناس ، والأسر والبيوتات ، والبلاد والأوطان ، ليس فيه احتكار مثل احتكار (بني لاوي) من اليهود أو (البراهمة) من الهنود ، ولا يتميَّز فيه شعبٌ عن شعب ، ولا نسلٌ عن نسلٍ ، وليس الاعتماد فيه على العرق والدم ، بل الاعتماد فيه على الحرص والشوق ، وحسن التلقِّي ، وزيادة التقدير ، والتفوُّق في الجهاد والاجتهاد ، وقد روى الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن النبي ﷺ ، أنه قال : « لو كان العلم بالثريا لتناوله أناسٌ من أبناء فارس » .

وكفى شهادةً تاريخية لذلك ، ما قاله نابغة العرب عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨هـ) في مقدمته المشهورة :

« من الغريب الواقع أنَّ حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم ، سواء في العلوم الشرعية أو العلوم العقلية ، إلا في القليل النادر ، مع أنَّ الملة عربيةٌ ، وصاحب شريعتها عربيٌّ »[١] .

الشعبية :

٢ ـ شعبية هذه الحركة ، فقد قامت على مجهودات شعبية ، وعلى تقدير المسلمين للعلم والشعور بالحاجة إليه ، وما ورد في الكتاب والسنة من فضله ، وما وعد من الأجر والثواب عليه ، والذم للجهل ، والنعي عليه ، وتنافس فيه المتنافسون من المسلمين في كلِّ عصرٍ وجيل ، وقام أكثر المدارس ، وحلقات التعليم في العالم الإسلامي الواسع على تقدير المسلمين وتمويلهم ، عدا مدارس معدودة (كالنظامية في بغداد ، ونيسابور) وما احتضنته الحكومات الإسلامية في عواصمها ومدنها الرئيسية من مدارس وجامعات .

وقد انتشر العلم انتشاراً واسعاً بفضل العلماء المتطوعين والأساتذة

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، المطبعة البهية ، ص٤٠١ ، وراجع للتفصيل والأمثلة الكثيرة على هذه الدعوى كتابنا : « الإسلام وأثره في الحضارة ، وفضله على الإنسانية » .

الزاهدين المتقشفين ، الذين زهدوا في مناصب الحكومة ووظائفها ، وتقدير الأغنياء والأمراء ، وقنعوا بالكفاف ، وما يقيم الصلب ، ويسد الرَّمق ، وقد روى التاريخ الأمين حكايات من هذا القبيل ، ليس من السهل تصديقها لولا الرواة الثقات والاستفاضة والتواتر ، والعلم بقوة الإيمان والاحتساب ، وروح التطوع والإيثار ، المتغلغلة في أحشاء العلماء الراسخين(١) .

ويكفي لذلك مثالاً ما وقع بين إمام الهجرة مالك بن أنس والخليفة العباسي هارون الرشيد ـ وهو خليفة المسلمين ، وأكبر حاكمٍ في عصره ـ فقد طلبه الرشيد ليقرأ عليه الموطأ ، فقال مالك : « إنَّ العلم يُؤتى ولا يأتي » وقام الرشيد يمشي مع مالك إلى منزله يسمع منه الموطأ ، فأجلسه معه على المنصَّة ، وأراد أن يقرأ على مالك ، فقال : ليخرج الناس عنِّي حتى أقرأه أنا عليك ، فقال : « إنَّ العلم إذا منع من العامة لأجل الخاصة لم ينفع الله به الخاصة » . وقال مالك لهارون : « يا أمير المؤمنين! أدركت أهل العلم ببلدنا وإنهم ليحبون التواضع ، فنزل هارون عن المنصَّة وجلس بين يديه وسمعه »(٢) .

وقد كانت الحركة العلمية في المسلمين حركةً شعبيةً عمَّت جميع الطبقات والمستويات ، وأصبحت الدراسة هوايةً للجميع ، يتظرَّف بها حتى أهل الحرف والمهن ، يقول A. J. Hammerton في كتابه « التاريخ العام للعالم » (Universal History of the World) :

« لقد أصبح كلُّ مسلمٍ ـ من الخليفة إلى الصناع ـ ولوعاً نهماً بالعلم والسياحة ، وكان ذلك أجلَّ خدمةٍ قام بها الإسلام نحو الحضارة العالمية ، وقد تقاطر رواد العلم من كل صقع على مركز ثقافي كبغداد ، وكذلك كان

---

(١) اقرأ في ذلك كتب تراجم العلماء ، وتاريخ الثقافة الإسلامية في مختلف الأمصار ، وخاصة كتاب « صفحات من صبر العلماء » لفضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (بيروت ، دار البشائر الإسلامية) وكتاب « نزهة الخواطر » (١ ـ ٨) بالعربية للعلامة عبد الحي الحسني (طبع دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ـ الهند) .

(٢) شذرات الذهب ١/ ٢٩١ .

الشأن مع مراكز أخرى للعلم والأدب ، وكان ذلك يشبه تهافت فضلاء الغرب على الجامعات ، ولكنَّ الأول كان أكثر إثارةً للحيرة والإعجاب » .

غصَّت المساجد التي كانت جامعات إسلامية (ولا تزال كذلك) بحشود من طلبة العلم الذين كانوا يقصدون هذه المساجد لتلقي العلوم الدينية ، والفلسفة ، والطب ، والرياضيات ، من العلماء الكبار ، كان هؤلاء الأساتذة ينتمون إلى الأقطار التي تتكلم العربية ، وكانوا يلقون دروسهم محتسبين متطوعين ، لا تهمهم الشهادات ، ولا تستهويهم الرواتب والأجور ، ليس عليهم إشرافٌ من أحدٍ ، ولا رئاسةٌ ومراقبةٌ ، فإذا كانوا بارعين متفوقين في موادهم الدراسية انهالت عليهم جموعٌ من التلاميذ ، وكانوا يقدِّرون ، ويعظَّمون بمقياس براعتهم واختصاصهم في موضوعاتهم ، وينالون ما يقوتهم متطوِّعين متقللين[1] .

وقد كان الإيمان والاحتساب ، وما روي واستفاض في فضل التعليم من الثواب الجزيل والقرب عند الله ، والتطوُّع في سبيله ، وإيثار حياة الزهد والتقشف لأجله ، وإيثاره على حياة الرخاء والثراء والرواتب الضَّخمة التي يتقاضاها المعلمون المحترفون والمرتزقة من الماهرين في الفنون من الحكومات ، هو الرائد الحافز لهؤلاء العلماء المحتسبين ، حتى رويت عنهم حكاياتٌ يصعب تصديقها لولا رواية الثقات ، والتواتر ، وما عرف وتحقق من معرفة نفسية هؤلاء العلماء الأفذاذ ، ورئاستهم .

ونكتفي في ذلك بحكايةٍ لعالمٍ عاش في أواسط القرن الثالث عشر الهجري ، أوائل القرن التاسع عشر المسيحي ، وهو الشيخ عبد الرحمن الرامفوري :

كان الشيخ عبد الرحيم(ت ١٢٣٤هـ) يدرس في رامبور ، وعرض عليه والي منطقة روهيل كهند ، الإنجليزي المستر هاكنس منصب التدريس في كلية

---

(١) Universal History of The World, A. J. Hammerton, London, Vol. 1v, p.2533.

بريلي ، براتب شهري يبلغ مئتين وخمسين روبية (تقدر قيمته الآن بأكثر من ألفي روبية) ووعده بأن راتبه سيزاد فيه ، ويرفع مستواه ، فاعتذر قائلاً بأن إمارته تدفع إليه عشر روبيات ، وستوقف هذه المنحة ، فقال له هاكنس : إنَّه عرض عليه أضعاف هذا القدر ، وما عشر روبيات أمام مئتين وخمسين روبية ، فقال : إنَّ في بيتي شجرةَ سدرٍ حلوةً وهي محببةٌ إليَّ كثيراً ، فكيف السبيل إليها في بريلي ، ولم يتطرق ذهن هذا الإنكليزي إلى حقيقة الأمر الذي كان يدور بخلد الشيخ ، فقال له : إني سأرتب لإيصال ثمرة هذه الشجرة إليك في بريلي ، فقال : إنَّ لي تلاميذ في رامبور ، فكيف أتركهم ، وسأُحرم فرصة خدمتهم ، وحاول الإنكليزي إقناعه ، فقال : إني سأقدم إليهم المنح الدراسية ، وسيواصلون دراستهم في بريلي ، ولم يبق في جعبة الشيخ إلا سهمه الأخير ، فأطلقه ، وقال : صحيح ما تقول ، ولكن ما يكون جوابي يوم القيامة على الارتزاق بالتدريس[١] ؟!!

الحركية :

٣ ـ ومما امتازت به الحركة العلمية في تاريخ الإسلام وفي عالم الإسلام الحركيةُ ؛ التي تجلَّت في تحمُّل المشقات ، وقطع المسافات للحصول على العلم ، والتوسع ، والاختصاص في الدراسة ، وفي سبيل رواية الحديث الصحيح ، والإسناد العالي ، والتحقيق العلمي ، والفحص اللغوي ، ثم في سبيل تبليغ الأحكام الشرعية ، ونشر العلم الديني في البلدان المختلفة ، والمسافات البعيدة ، وكتب التاريخ والتراجم مشحونةٌ بالأمثلة الرائعة ، والنماذج المحيِّرة ، خصوصاً ما أُلِّف في سير المحدثين ، وفي تاريخ تدوين الحديث وجمعه وحفظه[٢] ويكفي في ذلك ما ذكره العلامة ابن خلدون

---

(١) « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للمؤلف نقلاً من « نزهة الخواطر » ص٣٢٤ .

(٢) راجع « تذكرة الحفاظ » للعلامة الذهبي ، و « السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي » للدكتور مصطفى السباعي ، و « رجال الفكر والدعوة » الجزء الأول ، عنوان « حركة=

(م٨٠٨هـ) من فوائد الرحلة في طلب العلم في مقدمته الشهيرة ، يقول رحمه الله :

« إنَّ الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمالٍ في التعليم ، والسبب في ذلك : أنَّ البشر يأخذون معارفهم ، وأخلاقهم ، وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل ، تارةً علماً وتعليماً وإلقاءً ، وتارةً محاكاةً وتلقياً بالمباشرة ، إلا أنَّ حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشدُّ استحكاماً ، وأقوى رسوخاً ، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها ، والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مختلطة على المتعلم ، حتى لقد يظنُّ كثيرٌ منهم أنَّها جزء من العلم ، ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين ، فلقاء أهل العلوم ، وتعدد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها ، فيجرد العلم عنها ويعلم أنَّها مناحي تعليم ، وطرق توصل وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في المكان ، وتصحِّح معارفه وتميِّزها عن سواها ، مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين ، وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم ، هذا لمن يسَّر الله عليهم طرق العلم والهداية ، فالرحلة لا بدَّ منها في طلب العلم ؛ لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ، ومباشرة الرجال ، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم[(١)] .

الفتوة والعمل بالعزيمة :

٤ ـ وقد امتاز علماء المسلمين بعلو الهمة ، والشهامة والفتوَّة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكلمة الحق عند السلطان الجائر ، والصمود في وجه الانحرافات والمؤمرات المحبوكة في دائرة الحكومات ، أو المجتمعات الإسلامية ، والكفاح والنضال ، وقيادة حركة الجهاد ، وتحرير

= الجمع والتدوين في القرن الأول والثاني » و « المحدثون وعلو همتهم » ص٩٩ ، ١٠٢ .

(١) مقدمة ابن خلدون ، طبع مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ص٧١٢ .

البلاد ، ومطاردة القوى الأجنبية ، والحكومات المعادية للإسلام إذا احتيج إلى ذلك ، وإنَّ الدارس لتاريخ الجهاد والحركات الإصلاحية التجديدية من العصر الإسلامي الأول إلى عصرنا هذا لا يمرُّ بصفحة من صفحاتها ، وفصلٍ من فصول تاريخها الطويل الذي يكاد يكون متصلاً ، إلا ويرى على رأسها ، وفي مركز القيادة منها عالماً من علماء الدين ، أو مربياً من الشيوخ الربَّانيين ، هو منبع هذه الفكرة ، ومصدر هذه الحركة ، منها تبتدىء ، وإليها تنتهي(١) .

إنَّها لظاهرةٌ مشتركةٌ بين الأقطار الإسلامية والعربية التي تحررت من نير الاحتلال الأجنبي الذي يسمَّى بالاستعمار الأوربي الذي سيطر على العالم الإسلامي من الرباط ومراكش في الشمال الغربي إلى إندونيسيا ، وماليزيا في الجنوب الشرقي ، وحتى الجزائر بلد المليون شهيد ، وشبه القارة الهندية وغيرهما ، كلها تشترك في هذا الجانب ، فقد قاد حركة التحرير دائماً علماء الدين الراسخون في العلم المعترف بمكانتهم العلمية والدينية ، حتى وإن سرق الشيوعيون والملاحدة بعض ثمار جهادهم !!

التركيز على العلم النافع :

٥ ـ التركيز على العلم النافع ، الحامل للهداية والكافل للنجاة ، والمفيد في الآخرة ، وهو العلم الذي لا سعادة للإنسان ولا نجاة له بغيره ، ويعرف به خالقه وفاطر هذا الكون ، ومدبر هذا العالم ، وصفاته العالية ، والصِّلة التي بينه وبين عبده وما يرضيه تبارك وتعالى وما يسخطه ، وما يشقي الإنسان في الدار الآخرة وما يسعده ، يقول الله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم : ٧] ، ويقول : ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل : ٦٦] . ويقول : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ

(١) والموضوع واسع مترامي الأطراف ينتظر مؤرخاً واسع النظر ، صبوراً في الدراسة والتحقيق ، وفي كتابنا « ربانية لا رهبانية » بعض أضواء على بعض شخصيات قيادية في عدد من الأقطار الإسلامية العربية ، راجع « بطولة وكفاح ، لا بطالة واستسلام » ص١١٣ ـ ١٣١ ، الطبعة الثامنة ، طبع مؤسسة الرسالة .

أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٥] .

وقد جاء في الحديث : « اللهم إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع ، ومن قلبٍ لا يخشع ، ومن نفسٍ لا تشبع ، ومن دعوةٍ لا يستجاب لها »[١] .

حين لا تنفع العلوم والآداب ، وينفع علمٌ يستطيع به الإنسان أن ينال النجاة والسلامة :

ونختم هذا البحث بقصة خفيفةٍ مسلِّيةٍ تصور الفرق بين العلم النافع الذي تتحقق به السلامة وتحصل به النجاة ، والعلوم التي لا تتوقف على معرفتها السلامة والنجاة ـ على ما فيها من منافع ومصالح ـ وقديماً استعان العلماء والأدباء بالقصص ، ولعلها ـ على ما فيها من حكمةٍ وموعظةٍ ـ تخفف شيئاً من ثقل هذا البحث العلمي ، وتزيل السآمة :

« يحكى : أنَّ فريقاً من تلاميذ المدارس ركبوا سفينةً للنُّزهة في البحر أو الوصول إلى البر ، وكان في النفس نشاطٌ وفي الوقت سعةٌ ، وكان الملاَّح المجدف الأميُّ خير موضوعٍ للدعابة والتنادر ، وخير وسيلةٍ للتلهِّي وترويح النفس ، فخاطبه تلميذ ذكيٌّ جريء ، وقال : يا عم ! ماذا درست من العلوم ؟ قال : ولا شيء يا عزيزي ! قال : أما درست العلوم الطبيعية يا عم ؟! قال : كلا ولا سمعت بها ، وتكلم أحد زملائه ، وقال : ولكنَّك لا بدَّ درست علم الإقليدس ، والجبر ، والمقابلة ! قال : وهذا أغرب ، وتصدقون أنِّي أول مرة أسمع هذه الأسماء الهائلة الغريبة ، وتكلم ثالث « شاطر » فقال : ولكني متأكد بأنَّك درست الجغرافية والتاريخ ؟ فقال : وهل هما اسمان لبلدين ، أو علمان لشخصين ؟ وهنا لم يملك الشباب نفوسهم المرحة ، وعلا صوتهم بالقهقهة ، وقالوا : ما سنك يا عم ؟ قال : أنا في الأربعين من سنِّي ! قالوا : لقد ضيعت نصف عمرك ! وسكت الملاح الأميُّ على غصصٍ ومضضٍ ، وبقي

(١) رواه مسلم .

ينتظر دوره ، والزمان دوّار .

وهاج البحر ، وماج ، وارتفعت الأمواج ، وبدأت السفينة تضطرب والأمواج فاغرةٌ أفواهها لتبتلعها ، واضطرب الشباب في السفينة ـ وكانت أول تجربتهم في البحر ـ وأشرفت السفينة على الغرق ، وجاء دور الملاح الأميِّ ، فقال في هدوء ووقار : ما هي العلوم التي درستموها يا شباب ؟ وبدأ الشباب يتلون قائمةً طويلةً للعلوم والآداب التي درسوها في المدرسة ، وتوسعوا فيها في الجامعة من غير أن يفطنوا لغرض الملاَّح الجاهل الحكيم ، ولما انتهوا من عد العلوم المرعبة أسماؤها ، قال في وقار تمزجه نشوة الانتصار : لقد درستم يا أبنائي هذه العلوم الكثيرة ! فهل درستم علم السباحة ؟ وهل تعرفون إذا انقلبت هذه السفينة ـ لا قدَّر الله ـ كيف تسبحون ، وتصلون إلى الشاطىء بسلام ؟ قالوا : لا والله يا عم ! إنَّه العلم الوحيد الذي فاتتنا دراسته ، والإلمام به ! هنالك ضحك الملاَّح ، وقال : إذا كنت قد ضيعت نصف عمري ، فقد أتلفتم عمركم كلَّه ؛ لأنَّ هذه العلوم لا تغني عنكم في هذا الطوفان ، إنَّما كان ينجدكم العلم الوحيد ، هو علم السباحة ؛ الذي تجهلونه !!

* * *

التوجيه الإسلامي للعلوم

مفهومه وأهدافه وأسسه العامة(١)

الحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد : فإذا كانت في التاريخ البشري شخصيةٌ جديرةٌ بأن يقال عنها بتأكدٍ وثقةٍ أنَّها غيَّرت مجرى التاريخ ، ومنحت العالم حياةً جديدةً ، أو صاغها صياغةً جديدةً ، وفتحت أبواب العلم ، ودفعت الإنسانية إلى كسب المعرفة ، وحملتها على الاهتمام بتحصيل العلم ، والتعمق في الدراسة بدلًا من أن تتسكَّع في ظلمات الجهل ، وتقع في الأوهام والأباطيل والخرافات ، وحرضتها على تنمية العقل ، وتوسيع آفاق المعرفة ، وفتح منافذ الذهن ، بدلًا من أن تكون خاضعةً للتقاليد البالية العتيقة ، وعودتها على استخدام الذكاء ، والتدبُّر في الأمور ، بدلًا من التقليد الأعمى للآباء والأجداد .

إذا كانت في تاريخ العالم شخصيةٌ بهذه الصفة ؛ فهي شخصية نبينا محمَّد ﷺ الوحيدة التي نراها على مفترق طريقين للتاريخ . ينفصل طريق يلمع بنور الأدلة والبراهين ، عن طريقٍ تغشاه سحبٌ كثيفةٌ من التقليد والجمود .

جاء نبينا محمد ﷺ بتعاليم تقوم بتنوير عقول الناس ، وصقل صلاحيتهم وكفاءتهم ، وجلاء أذهانهم وقوة إدراكهم ، ويدلُّ على ذلك الوحي الأول الذي أنزله الله تعالى على رسوله الكريم ، وذكر فيه أنَّه أنعم على الإنسانية

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها العاشر المجلد الثامن والثلاثون عام ١٩٩٣ ـ ١٩٩٤م .

بإعطاء ثورة العلم ، واعتبر فيه القلم الذي يقود هذه الرحلة العلمية التاريخية ، ويقوم بحركةٍ عالميةٍ للتأليف والتدريس ، وينقل العلم من فردٍ إلى فردٍ ، ومن أمةٍ إلى أمةٍ ، ومن عهدٍ إلى عهدٍ ، ومن جيلٍ إلى جيل وسيلةً له ، ويفتخر بأنه نشر العلم وأشاعه حسب حاجات الإنسان ، وعمرت المدارس والجامعات بحركته ، ونشأت المعاهد والمكتبات .

ما كانت التنبؤات والتكهنات البشرية مهما تعمقت في التفكير تستطيع أن تتصوَّر بأن الوحي الأول يشيد بالقلم ؛ لأنَّ هذا الوحي كان ينزل على إنسانٍ أمِّيٍّ ، وفي منطقةٍ متخلِّفةٍ ، وفي قوم فشا فيهم الجهل ، وعمَّت فيهم الأمية ، وكان القلم عندهم شيئاً نادراً مستطرفاً ، ولذلك لقب العرب بالأميين .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] .

بداية لا تتوقع :

نزل هذا الوحي على رجل لقب بأمي ، وذلك في غار حراء ، فكان المتوقع أنه يبدأ بالإيمان بالله ، والعبادة له ، وينهى عن عبادة الأصنام ، ويستنكر العادات الجاهلية ، والتقاليد الوثنية ، رغم أنَّ هذه الأشياء كلّها كانت ذات أهمية قصوى في هذا الدين ، وقد ذكرت في مواضع كثيرةٍ مختلفةٍ بإيضاحٍ وتفصيلٍ ، لكنَّ هذا الوحي الأول بدأ بكلمة : ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ .

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق : ١ ـ ٢] .

وهكذا حدثت تلك الحادثة التاريخية التي منحت للمفكرين والمؤرخين جوانب التفكير الجديدة ، وفتحت لهم آفاقاً واسعةً حديثةً ، وتشير هذه الحادثة إلى بدء عهدٍ جديد في تاريخ الإنسانية والديانات ، بيد نبيٍّ أميٍّ ، وتدلُّ على أن هذا العهد سيكون عهداً راقياً ذهبياً ، ينتشر فيه العلم ، وتعمُّ فيه القراءة ، وتتبدَّد فيه سحب الجهل ، وتكمل فيه الإنسانية ، ويكوِّنها العلم والدين تكويناً جديداً .

بلغة القرآن نظر القارىء إلى الأشياء التي يجب أن تدرس للحصول على

العلم والمعرفة ، ويسترعي الانتباه إلى الأنفس ، والأرواح ، والآفاق ، وأحوال الأمم السابقة التي عبر عنها القرآن بأيام الله ، وسنة الله ، ونحن نسميه بالتاريخ ، وذلك لكي يفكر الإنسان فيه ، ويستنتج منه نتائج نافعةً ، ويصل إلى نتائج مفيدةٍ بعيدة المدى ، وتؤثر في مستقبله تأثيراً عميقاً .

يقول الدكتور محمد إقبال ـ رحمه الله ـ في خطبته الشهيرة[1] وهو يذكر ما قام به الإسلام من دورٍ فعال في تنمية العقل ، وتوسيع المدارك ، وتوفير الوسائل والمصادر للعلم ، فيقول : « لكنَّ مشاهدات الباطن وسيلةٌ لا غير للعلم الإنساني ، ويبين كتاب الله تعالى مصدرين له ، أحدهما عالم الطبيعة ، وآخرهما عالم التاريخ ، ظهرت روحٌ خيرةٌ للعالم الإسلامي في الاستفادة منهما » .

إنَّ الشمس والقمر ، وامتداد السنين والأعوام ، واختلاف الليل والنهار ، وفوارق اللون واللغة ، والفوز في حياة الأقوام والفشل فيها ، وكل ما ندركه ونعرفه بالحواس ، كل ذلك آيات للحقيقة المطلقة في تصور القرآن الكريم ، ولذلك يجب على كلِّ مسلمٍ أن يفكِّر فيها ويتدبَّر ، بدلًا من أن يعرض عنها ، شأن الأصم ، والأبكم ، والأعمى . لأنَّ الإنسان إذا أعمش عينيه ، وحول نظره عن هذه الأشياء ، وأعرض عنها ، يبقى على حاله من العمي في مراحل حياته الأخرى .

إنَّ المسلمين عندما وصلوا بدراسة القرآن الجادَّة إلى حقيقة أنَّ الكون يتحرك ، ويدور ، ويتصاعد ، ويستمرُّ في حركته ودورانه ، بالإضافة إلى ما علمه الله من دعوةٍ إلى لفت النظر إلى الحقائق والمحسوسات الثابتة الصلبة ، انصرفوا عن الفلسفة اليونانية ، وأنكروها ، وقد كانوا قبل ذلك مفتونين بها ، وكانوا يدرسونها بشغفٍ ونهامةٍ .

إنهم لم يشعروا في بداية أمرهم بأنَّ كتاب الله وآياته تتعارض مع روح

---

(١) Reconstruction of religius Thought in Islam.

الفلسفة اليونانية ، ولذلك درسوا القرآن أيضاً في ضوء الفكر اليوناني والفلسفة اليونانية ، ثقةً واعتماداً على حكمة اليونان .

لكنَّ القرآن الكريم يؤكد على الحقائق المحسوسة الثابتة المحكمة ، وحكمة اليونان تدور حول الأفكار ، والنظريات ، والمفاهيم ، بدلًا من الحقائق والمحسوسات ، فكان من الطبيعي أن تفشل هذه المحاولات في يومٍ من الأيام ، وهكذا حدث ، فتغلَّبت الروح الأصيلة للحضارة الإسلامية ، والثقافة الإسلامية ، حتى بعض جوانب الحضارة الغربية المهمة أيضاً مدينةٌ للحضارة الإسلامية ، واستطرد يقول :

أطلق القرآن الكريم على التاريخ اسم أيام الله ، واعتبر التاريخ مصدراً مهماً للعلم والمعرفة ، وذكر أنَّ محاسبة الأقوام والأمم تجري على المستوى الفردي والجماعي كليهما ، وإنها تعاقب في هذه الدنيا أيضاً على أعمالها السيئة ، وهذا هو الذي أثبته القرآن بالحوادث التاريخية في مواضع كثيرة .

وبالإضافة إلى ذلك دعا القارىء إلى أن يفكر في أحوال الأمم الماضية ، والأحوال الراهنة .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم : ٥] .

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨١ ـ ١٨٢] .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧] .

﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٤] .

الربط بين الوحدات العلمية المفرقة :

إنَّ ما مثلته البعثة المحمدية ـ على صاحبها ألف ألف تحيةٍ وسلام ـ من دورٍ رائدٍ في توجيه الناس إلى هدف العلم الأصيل ، وفي جعله نافعاً إيجابياً ، وبنَّاءً ووسيلةً لليقين ، هو أهم من دورها الذي قامت به في توسيع آفاق العلم ، وتنشيط الحركة العلمية .

كان العلم عبارة عن معلومات مفرقة ، بل كانت أجزاءً مضادةً متباينة ، كان علم الطبيعةِ يحارب علم الدين ، وكان الأطباء والرياضيون يأتون بنتائج سلبيةٍ إلحاديةٍ في بعض الأحيان .

ولذلك نجد علماء اليونان الذي كانت لهم اليد الطولى في الفلسفة والعلوم الرياضية إلى قرونٍ طويلة ، إما مشركين ، وإما ملحدين ، وكانت المدارس اليونانية وعلومها تشكل خطراً على الدين وتعاليمه ، وتقدم شهادةً ونموذجاً للملحدين والمشركين .

كانت منة الإسلام الكبرى في هذه الظروف أنَّه أنشأ وحدة بين العلوم المتنوعة ، وربط الوحدات العلمية بعضها ببعض ، وهان عليه ذلك العمل ، لأنَّ الرحلة العلمية كانت قد بدأت من منطلقٍ أصيل ، ومن مبدأ حقيقي ، وبدأ الإسلام هذه الرحلة اعتماداً على الإيمان بالله ، وعلى الاستعانة به ، والثقة بتأييده ، وعلى العمل بالآية الكريمة : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ إذا كانت البداية طيبةً فتكون العاقبة طيبة في معظم الأحيان .

كشف الإسلام القناع عن الوحدة التي تربط الوحدات كلها بفضل الإيمان ، وهذه الوحدة هي المعرفة بالله ، ومدح الله تعالى عباده المؤمنين من أجلها ، فقال : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩١] .

كان الإنسان يرى الوحدات العلمية مضادةً في الزمن الماضي ، وتدهشه ، وتذهله ، وتوقعه في القلق والاضطراب ، وحينما تضطره وتبلغه إلى أن جعل يلوم ربه ، ويدينه ، وينال من مجده ، فنظراً إلى ذلك منح العلم الإسلامي

الذي ينبثق من الإيمان والقرآن ، ويقوم عليهما الإنسان وحدة علمية ربطت الوحدات كلها ، وهي إرادة الله الغالبة ، وحكمته الكاملة .

يقول العالم الألماني هيرالد هوفدنغ (Herald Hoffding) وهو يذكر اكتشاف الوحدة ، وتأثيرها على الحياة الإنسانية ، وعلى الرحلة العلمية والخلقية والتاريخية ، فيقول : « إنَّ كلَّ دينٍ يقوم على أساس عقيدة التوحيد التي تقول إنَّ علة وجود كلِّ شيءٍ في هذا الكون واحدةٌ فريدةٌ ، ويؤثر ذلك الاعتقاد على الإيمان والاعتقادات والطبيعة الإنسانية تأثيراً حسناً ومهماً ، بصرف النظر عن المشاكل التي تحدث بهذا الفكر وجوباً ، ويسهل ذلك على جميع من يحمل هذه العقيدة الاعتقاد بأنَّ أشياء العالم كلها ـ بغَضِّ النظر عن الخلافات الفرعية وتفاصيلها ـ تنخرط في سلك وحدةٍ قانونيةٍ واحدةٍ ؛ لأنَّ وحدة العلَّة تقتضي أيضاً وحدة القانون .

رسخت الفلسفة الدينية في القرون الوسطى تصور الوحدة في الكثرة في أذهان كثيرٍ من الناس ، الذي كان يجعله الإنسان غير المثقف لكثرة المظاهر الطبيعية ، وكان حائراً بمشاهدة هذه الكثرة ، ولم يكن يعرف الطريق إلى إيجاد صلةٍ ذاتية بينها »[١] .

نهضة أوربة وإسهام الإسلام في عهد العلم والحضارة المعاصرة :

يقول رابرت بريفارت (Robert Briffault) في كتابه : (The Making of Humanity) : « ليس هناك جانب من رقي أوربة إلا وعليه منة المدنية الإسلامية ، وطبعها العميق » .

وأضاف قائلاً : « ليست العلوم الطبيعية وحدها (التي لا تنكر منَّة الإسلام عليها) مسؤولة عن حياة أوربة الجديدة ، ووجود روح جديدة فيها ، بل خلفت المدنية الإسلامية آثاراً عميقةً على حياة أوربة ، ويبدأ ذلك العهد من العهد الذي بدأت فيه الأشعة الأولى للمدنيَّة الإسلاميَّة والحضارة الإسلامية » .

---

(١) History of Modern Philosophy P. S.

يقال كثيراً : إن النشأة الثانية لأوربة هي ثمرةٌ لإحياء الفكر اليوناني ، لكن المؤرخ الشهير (H. G. Vells) يرفض أنَّ القوة والعلم قد حصل عليهما العالم عن طريق اليونان ، فيقول : « إن العلم الذي كان بدأه اليونانيون ، ثم ودعوه ، وتخلوا عنه ، أقبل عليه العرب ، بحماسٍ جديدٍ ، وعاطفةٍ جديدةٍ ، وجعلوه موضوعاً لهم ، وتبنَّوه ، وقاموا بتهذيبه وتنقيحه .

إذا كان اليونانيون مبتكرين للاكتشاف العلمي للحقيقة ، كان العرب مهذبين ؛ لأنَّهم قاموا بتسهيله ، وشرحوه شرحاً سائغاً ، وحلوه بألفاظٍ وكلماتٍ موزونةٍ وملائمةٍ ، ونقدٍ إيجابيٍّ ، إنَّهم كانوا العرب لا اللاتينيين ؛ الذين منحوا العالم الجديد هديةً غاليةً ثمينة للعلم والقوة »[١] .

تفوق المسلمين العلمي الماضي ودورهم الرائد في العلوم النافعة والتجريبية :

إنني أستطيع أن أدعي في ضوء دراستي للتاريخ أنَّ المسلمين لم يقوموا بتأسيس دولٍ واسعةٍ كبيرةٍ فحسب ، بل كانوا يمتازون أيضاً عن الأمم الأخرى بالعناية والبراعة في الفنون ، وكانوا يتفوقون عليها من كل جانب ، وقد أنجبت الأمة الإسلامية في جميع العصور نبغاء ذاع صيتهم ، وطبقت الآفاق شهرتهم في التعمق في الدراسة ، والرغبة في العلم ، والتأليف فيه بإخلاص .

وبرز في القرن الأول عددٌ كبير من أئمة الفكر من المسلمين بالإضافة إلى المفسرين والمحدثين ، والفقهاء الذين لا يوجد لهم نظيرٌ في التاريخ العلمي الإنساني ، كان لا يدانيهم أحدٌ من علماء الأمم الأخرى .

لم يحصر المسلمون دائرة علومهم في العلوم الدينية من التفسير ، والحديث ، والفقه ، وأصول الفقه ، والدراسة المقارنة للأديان والمذاهب فحسب ، بل أبدوا براعتهم في علومٍ حديثةٍ كثيرةٍ ، وخدموها خدمةً جليلةً ، كالجغرافية ، والطبيعة ، والهندسة ، والطب ، والكيمياء ، والتاريخ ،

---

(١) The Making of Humanity P.202.

والنباتات ، والمدنية ، وقاد معظمهم العالم في هذه العلوم والفنون إلى قرونٍ طويلةٍ ، وخلفوا آثاراً ورسوماً لا تطمس أبداً .

نذكر هنا بعض هؤلاء العلماء المسلمين ، لأنَّ استقصاء جهود جميع هؤلاء العلماء يحتاج إلى مجلداتٍ ضخمةٍ ، ويستغرق وقتاً طويلاً .

أئمة العلوم وواضعو العلوم من المسلمين :

الخوارزمي (م٨٥٠/ ٢٢٦) هو أول من ألف كتاباً عن الجغرافية العالمية ، ويليه محمد بن محمد الإدريسي (م١١٥٣/ ٥٦٠) الذي بيَّن في كتابه : « الممالك والمسالك » : الطرق التجارية للعالم الإسلامي مع عرض خريطتها الجغرافية .

ألف ابن الهيثم (م١٠٣٩/ ٤٣١) حوالي مئتي كتاب ، سبعة وأربعون منها ألفت حول موضوع العلم الرياضي ، وثمانية وخمسون عن الهندسة ، وهو أول من قدم اقتراحاً لبناء سدٍّ أسوان ، واكتشف اكتشافاتٍ مفيدةً في علم البصارة ، وعرض في كتابه : « المناظر » : نظرية عن الإدراك البصري ، فقال : « إنَّ البصارة تنحصر على الأشعة التي تعود بعد الاصطدام بها » .

« محمد بن موسى الخوارزمي (م٨٥٠/ ٢٢٦) هو أول من أضاف الصفر في العدد ، وقام بتعيين مكانة الأعداد ، وهو الذي اخترع الجبر .

وكان البتاني (م٩٢٩/ ٣١٧) الذي سماه الغرب بالبتيني (Albategni) أو الباطنيوس (Albatenus) كان بارعاً في الفلكيات ، وهو الذي قام بتقدير عوج الخسوف تقديراً صحيحاً ، وقام باكتشاف مدَّة السنة الشمسية ، والفوارق في الموسم ، ومحور الشمس الأوسط ، ورفض اعتقاد بطليموس أنَّ محور الشمس لا يتحرك .

أبو بكر محمد الرازي (م٩٣٧/ ٣١١) الذي دعاه الغرب بـ ريزز (Rhazes) كان أكبر طبيب بالإضافة إلى أنَّه كان فيلسوفاً عظيماً ، وكيمياوياً أريباً ، وقدَّم في كتابه الشهير : « الحاوي » استعراضاً للطبِّ اليوناني ، والمصري ، والعربي القديم ، والهندي .

كانت لابن البيطار (م١٢٤٨/ ٦٤٦) اليد الطولى في الأدوية في عصره ، وذكر في كتابيه « المغني في الأدوية » و « الجامع لمفردات الأدوية » علاماتٍ للأمراض المختلفة ، وذكر أربعمئة من الحيوانات ، والنباتات والمعادن بإطنابٍ وتفصيلٍ من قبل نفسه ، أو على أساس مشاهدة ١٥٠ من البارعين .

أبو علي بن سينا (م١٠٢٧/ ٤٢٨) الذي عرفه الغرب بـ آوى سينا (Avicena) ألف على موضوع الفلسفة كتابه الشهير « النجاة » و « الشفاء » . وعلى موضوع الطب كتابه : « القانون في الطب » وعلى علم النفس « أحوال النفس » وقد اشتهر بمئتين وواحدٍ وثلاثين كتاباً ، ويقال : إنَّ مئةً وعشرة كتب أخرى تنسب إلى غيره هي من تأليفه ، وتقدَّر مكانته في الطب أنَّ كتابه في الطب ظلَّ كتاباً منقطع النظير مدة خمسة قرون ، أي : إلى أواخر القرن السابع عشر للميلاد ، وكان حجةً في موضوعه .

ومن هؤلاء الأعلام ، أو نجوم العلم اللامعة ابن خلدون (م١٤٠٦/ ٨٠٨) الذي كان أكبر عالم للعلوم الاجتماعية ، والذي لفت الانتباه إلى البحث عن القوانين التي توجه الإنسانية ، ولفت الاهتمام إلى العلوم الاجتماعية قبل الفيلسوف الغربي كومتي (Comate) بخمسين سنة .

ولمع في هذه السلسلة العلمية اسم أبي ريحان البيروني (م١٠٥/ ٤٤٣) لسعيه المشكور ، الذي كانت له اليد الطولى في الطبيعة وما بعد الطبيعة ، والأدوية ، والكيمياء ، والجغرافية ، والتاريخ بصفةٍ خاصَّة ، وهو والعالم المسلم الآخر ابن الهيثم أساس البحوث العلمية لأوربة المعاصرة .

كارثة علمية تاريخية :

قبل أن أنتهي من هذا البحث أريد أن ألفت نظركم إلى هذه الحقيقة الثابتة الأساسية ، ينبغي لنا ألا ينسى الإنسان أنَّه خليفة الله في الأرض ، وليس بذاته مصدراً للعلم ومنبعاً له ، إنَّما هو خليفة الله في الأرض ، يعمل بما يرضيه ، ويمتثل أوامره ، وينتهي عن نواهيه ، وذكر القرآن الكريم تعليم الأسماء لآدم ـ عليه السلام ـ بعد أن ذكر تمكينه في الأرض ، واستخلافه فيها ، وذلك يدلُّ

على أنَّه كان مأموراً باستخدام علمه كخليفة الله في الأرض .

كانت المأساة الكبرى لتاريخ العلم بل لتاريخ العالم أن نسي الإنسان أنَّه كان خليفة الله ، وكانت مسؤولية العالم تقع على كاهله ، ولم يبعث إلى هذه الدنيا سيداً ومالكاً يستخدم خزائن الأرض داخلها وخارجها للمصلحة الذاتية والقومية ، والعنصرية ، والطبقية ، أو لإحراز التفوق السياسي .

كان يوماً سيئاً مشؤوماً اختار فيه الإنسان هذا الطريق المؤدي إلى الدَّمار والهلاك .

يستطيع هذا الشعور بأنَّ الإنسان خليفة الله في الأرض ، ولم يكن خالقها ، ومالكها أن يسيِّره على الصراط المستقيم ؛ لأنَّ المعرفة بهذه الحقيقة هي التي تستطيع أن تردعه من الحرية المطلقة .

انقطاع صلة العلم عن مالكه فتنة عظيمة في الحقيقة ، وقد نال الإنسان العلم وبرع فيه ، لكنه نسي خالق العلم .

أقول لكم بكل صراحة وأنا أعتذر إلى العلماء والقادة السياسيين في أوربة وأمريكا ، وإلى كلِّ من يفتخر بحضارة الغرب : إنَّ الإنسان وقع في خطأ كبيرٍ عندما اعتبر نفسه مالكاً أصيلاً للعلم ، ومستقلاً وحراً ، لمّا نسي بداية أمره ؛ نسي غاية حياته ، وهدفها الحقيقي .

وأقول لكم بكل شعور بالمسؤولية : إن الإنسان لا ينجح في تغيير ظروف العالم وإصلاحها إذا لم يعترف بأنه مخلوقٌ محض ، يقدم إلى خالقه ، ويسأل عن أعماله ، وعليه أن يعتقد بأنه يقوم على جانب علمه ، والله سبحانه وتعالى خالق العلم يقوم على جانبه الآخر .

فإذا انقطعت هذه الصلة نسي الإنسان هدف خلقه ، وتحوَّلت الدنيا إلى ساحة قتال ، ومجزرةٍ للإنسانية ، وتكون فيها سيطرةٌ لإهانة الإنسانية ، وغلبةٌ لأصناف الظلم والعبودية .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

كيف توجّه المعارف في البلاد الإسلامية

لقد كثر الحديث عن المعارف في كلِّ بلاد الإسلام ، وأصبح الشغل الشاغل للناس ، وأقرأ كلَّ يومٍ حديثاً عن المعارف لا يخلو من القيمة والفائدة ، وألاحظ نشاطاً وحياةً في قسم المعارف ، وعنايةً زائدةً بكلِّ ما يقال في هذا الموضوع ، وذلك يبشر بمستقبلٍ حسن ، فإنَّ المعارف مركز الأعصاب في البلاد ، وبيدها وحدها توجيه الأمة التوجيه العقليَّ ، والخلقيَّ ، والدينيَّ .

قصور المعارف في مهمتها :

ولكنِّي مع الأسف أرى أنَّ النظر إلى المعارف في الأقطار الإسلامية وتناول المتحدثين عنه قاصرٌ ومحدودٌ جدّاً ، فالمعارف عند من يتكلَّم عنها كلمة بسيطة لا تجاوز فنَّ القراءة والكتابة ، مع أن المعارف في العصر الحاضر قد انتقلت من هذا الطور منذ زمنٍ ، وأصبحت الشعوب غير مقتنعةٍ بمحاربة الأميَّة فقط ، ونشر فنِّ القراءة والكتابة ، وقد رأى رجال الفكر والقائمون على البلاد أنَّ وجود طبقةٍ تحسن القراءة والكتابة لا يغني عنهم شيئاً ، ولا يحلُّ مشاكل حياتهم ، ولا يكوِّن العنصر الصَّالح للمدنية سواء من جهة الأخلاق والتربية ومبادىء الإنسانية ، أو من جهة المعاش والاكتفاء الذاتي .

الجهة الخلقية :

أمَّا من الجهة الأولى فقد رأوا أنَّه وُجد نوعٌ من الناس يستحقُّ أن يسمَّى « الحيوان المتعلم » لا يمتاز عن سائر الحيوانات ـ فضلاً عن غير المتعلمين ـ في أخلاقه ، ونزعاته ، وتصرفاته ، وعبادة الذات ، وتهالكِ على الشهوات ، وتجاوز حدود القانون والفطرة في بعض الأحيان في قضاء مآرب النفس ، والمكر ، والزور ، وغير ذلك مما ينافي العلم والشرف .

الجهة الاقتصادية :

وأمَّا من الجهة الثانية وهي الجهة الاقتصادية ؛ فقد زاد التعليم في البطالة ، والعَطلة ، وزاد إلى مشاكل الشعب القديمة مشكلةً جديدةً ، وهي مشكلة وجود فوجٍ من العاطلين الذين لا يجدون لهم حرفةً ما ، ذلك لأنَّهم لا يحسنون غير القراءة والكتابة البسيطتين أحياناً ، والراقيتين أحياناً أخرى ، والحكومة عندها كميةٌ محدودة من الوظائف لا تستطيع طبعاً أن توظف كلَّ متخرج ، أو تشغل كلَّ متعلمٍ ، وأصبحت مسألة بطالة المتعلمين في أكثر البلاد الراقية أزمةً شديدةً لا تجد لها حلًّا .

وبهذين السببين اضطرت هذه البلاد إلى أن تنظر في مسألة التعليم من جديدٍ ، فخصَّصت لذلك لجاناً من كبار رجال التعليم ، وقادة الفكر ، تدرس المسألة دراسةً واسعةً عميقةً ، وتنظر فيها من وجهاتٍ مختلفةٍ ، من وجهة التعليم ، ومن وجهة الحياة والاجتماع ، ومن وجهة الاقتصاد ، وأصبح ما خرجت به هذه اللجان من النتائج ، وما رفعت من تقارير مكتبةً ضخمةً تضاهي ما كتب عن فنِّ التعليم .

وكان حلُّهم للمشكلة الأولى وهي مشكلة التفاوت بين الأخلاق والعلم حلًّا ضعيفاً جداً ، ليس بالعلاج الحاسم للداء ، ذلك أنَّ المشكلة التي كانوا يواجهونها ، ويطلبون لها حلًّا هي مشكلةٌ طريفةٌ معقدة ، وهي أنَّهم لاحظوا أنَّ المعلومات لا تزال تتضخَّم وتتَّسع عند الطلبة والمتعلمين عن طريق التعليم ، وعن طريق المجلات ، والصحف ، ووسائل الثقافة الأخرى ، حتى أصبحت كميةً فائضةً من المعلومات قد لا يحتاج إليها الطالب مدَّة حياته ، ولا ينتفع بها الشعب في حاجاته ، وبالعكس من ذلك : لا تزال الدوافع والبواعث النفسية التي تدفع بصاحبها إلى العمل بما يعلم ، والقيام بالواجب ، وعمل البرِّ ، والاجتناب عن الإثم ، ولا تزال هذه الدوافع تضعف وتضمحل حتى فقدت بتاتاً ، وأصبح الإنسان المثقف يعلم كلَّ شيءٍ ولا يعمل بشيءٍ ، يعلم البرَّ ، ولا يعمل به ، ويعلم الإثم ، ولا ينتهي عنه ، يعلم أنَّ الرشوة قبيحةٌ عرفاً ،

وخلقاً، وديناً، وهو يتعاطاها، ويعلم أنَّ الخمرة مضرةٌ طبعاً، وممقوتةٌ عرفاً، ومحرَّمةٌ شرعاً، وهو يسرف فيها، ويعلم أنَّ الاحتكار، أو المعاملة في السوق السوداء جريمةٌ وخيانةٌ للشَّعب، ومخالفةٌ للقانون، ثم يلج بها، ولا يتركها.

ويعلم أنَّ الاعتدال في كلِّ شيءٍ خيرٌ، وهو أبعد الرِّجال عن الاعتدال، يسرف في النوم، وفي الأكل، والشرب، واللهو، واللعب، والإنفاق، وغير ذلك، وكان أمره فرطاً.

هذه هي أزمة التعليم الحاضر في البلاد الراقية المثقفة؛ التي فشا فيها التعليم فشواً غريباً، وارتفع مستوى العلم فيها، وأصبح رجال التعليم في حيرةٍ عظيمةٍ شديدةٍ، وزاد في مشكلتهم أنَّهم لا يملكون القوَّة الرُّوحيَّة والوسيلة التي يوجهون بها القلوب ـ وهي مصدر الإيمان والإذعان ـ كما ملكوا الوسيلة التي يوجهون ـ زعموا ـ بها العقول، وأخيراً انتهوا إلى أنَّ تعليم القراءة والكتابة، ونقل الفرد، أو الشعب من الأميَّة إلى التعليم لا يكفي، ولا ينجح حتى يكون معه شعور بالمدنية والمبادىء الإنسانية، أو الوعي المدني بالاختصار ووجَّهوا بعض عنايتهم إلى ذلك عن طريق الدروس، والمحاضرات، والتمثيل، والروايات، إلا أنَّهم لم ينجحوا في مهمَّتهم حتى الآن، بل لا يزال الوعي المدني يضعف، ويخمد في أرقى البلاد المتمدِّنة، يظهر ذلك من زيادة عدد الجنايات وازدحام القضايا الجنائية، وشغل المحاكم والتقارير عن الجنايات السنوية، والنصيب الأكبر فيها للمتعلمين، والتبعة الكبرى فيها على السينما، والروايات الغرامية، والبوليسية، والأدب المكشوف.

أما المشكلة الثانية، وهي مشكلة البطالة، وعطلة المتعلمين؛ فقد نجحوا في حلِّها نجاحاً ما، وقد عملوا لذلك في دائرة التعليم وفي خارجها.

أما في دائرة التعليم فقد سبكوا التعليم سبكاً جديداً يؤهل المتعلِّم لكسب قوته، وكفالة نفسه، ويمنعه من أن يكون عضواً عاطلاً في المجتمع، وكلاًّ على الشعب، فأدخلوا الصناعات في مناهج التعليم، وألزموا تعليم كثيرٍ من

الحرف ، وتقدَّموا خطوةً أخرى هي خطوةٌ جريئةٌ حقّاً ، وبدعةٌ في نظام التعليم ، وهو أنَّهم جعلوا الصناعة مركزاً للتعليم ، وجعلوا بعض الصنائع ، أو حاصلات البلاد محوراً يدور حوله رحى التعليم ، فمثلاً : جعلوا القطن مركزاً للتعليم في دورة تعليمية تدور حولها دراسة التاريخ ، والجغرافيا ، واللغة ، واجتهدوا أن تكون منتجات هذه المدرسة هي التي تقوم بنفقات هذه المدرسة ، فتكون هذه المدرسة مكتفيةً بذاتها ، تكفل نفسها . وهذه التجربة جاريةٌ في البلاد ، ولا يمكنني أن أتكهَّن عن مستقبل هذا الأسلوب التعليمي ومقدار نجاحِهِ ، إلا أنَّه إذا نجح يساعد كثيراً في حل مشكلة البطالة .

أمَّا خارج دائرة التعليم ؛ فقد أوجدوا وظائف كثيرةً ، وجعلوا للمتعلمين من الاستحقاق أكثر مما كانوا يتمتَّعون به ، ولا يزالون في حاجةٍ إلى حلِّ مشكلة البطالة ، وصرف عناية المتعلمين في قسم الأدب ، والفلسفة ، والتاريخ ، والعلوم النظرية الأخرى ، إلى قسم الصنائع ، والعلوم الطبيعية ، وتعليم العلوم العملية ؛ التي يعيشون بها ، وكذلك صرف المتعلمين من الاهتمام الزائد بالتعليم العالي ، والتهالك على التعليم الجامعي ، فإنَّ في البلاد أهليةً محدودةً لشغل المتخرجين من الجامعة خلافاً للمتوسطين في التعليم ، فإنَّ لهم مجالاً أوسع ، ودائرةً أفسح ، ووجود عددٍ هائلٍ من الجامعيين ، ولو كان رمزاً لتقدُّم البلاد في الثقافة والتعليم العالي ، ولكنه مشكلةٌ اقتصاديةٌ كبيرةٌ لا يسهل حلُّها ! . .

مسألة التعليم في الأقطار الإسلامية :

هنا تنتهي مسألة التعليم في البلاد التي ليست لها صيغة خاصَّةٌ دينيةٌ ، أو تاريخيةٌ ، فهذه مسألتها ، وهذه مشاكلها ، وهذه حلولها ، وأينما تنتهي مسألة التعليم في البلاد العامة تبتدىء مسألة التعليم في البلاد الإسلاميَّة ، فنهاية التعليم في البلاد العامة بداية التعليم في البلاد الإسلامية ، ومسألة التعليم في البلاد الإسلامية مسألةٌ مستقلةٌ قائمةٌ بذاتها ؛ لأنَّ الأمَّة الإسلامية أمةٌ خاصَّةٌ في طبيعتها ، ووضعها ، هي أمَّةٌ ذات مبدأ ، وعقيدةٍ ، ورسالةٍ ، ودعوةٍ ، فيجب أن يكون تعليمها خاضعاً لهذا المبدأ والعقيدة ، وهذه الرسالة والدعوة تكون

أداةً لإنشاء الأجيال التي تؤمن بهذا المبدأ ، وتدين بهذه العقيدة ، وتحمل هذه الرسالة ، وتؤدي هذه الدعوة ، وكلُّ تعليمٍ لا يؤدي هذا الواجب ، أو يغدر بذمَّته ، ويخون في أمانته ، فليس هو التعليم الإسلامي ، بل هو التعليم الأجنبيُّ ، وليس هو البناء والتعمير ، بل هو الهدم والتخريب ، وأولى للبلاد الإسلاميَّة أن تتجرَّد منه ، وتحرم من ثمراته المادية ، فالأميَّة خيرٌ لها من هذا التعليم الذي يرزؤها في طبيعتها ، وعقيدتها ، وروحها .

إذاً فمهمة التعليم في البلاد الإسلامية مهمَّةٌ عسيرةٌ معقَّدةٌ ، ليست من السهولة بالمكان الذي تصوره رجال التعليم في بلادنا . إنَّه ليس مجرد تعليم العلوم والفنون ، ولغاتٍ وطنيةٍ ، وأجنبيةٍ ، وآداب أهليةٍ ، وأوروبية ، بل هو إنشاء جيلٍ جديدٍ إنشاءً فكرياً خلقياً ممتازاً ، وذلك لا يتمُّ بترجمة الكتب ، وجلب الأساتذة من الخارج ، وإنشاء عددٍ كبيرٍ من الكليات والجامعات ، وإرسال بعثات من الطلبة إلى أوروبة ، وأمريكة ، إنَّما يحتاج إلى شيءٍ كثيرٍ من النبوغ ، والابتكار ، وشيءٍ كثيرٍ من التأليف ، والإنتاج ، فإنَّ هذا التعليم يطلب منهاجاً دراسياً خاصّاً لا يوجد الآن كاملاً في أيِّ بلدٍ من بلاد الإسلام فضلاً عن بلاد الأجانب .

وكلما استعير منهاجٌ من بلادٍ غير إسلاميَّةٍ ، أو اختيرت كتبٌ وضعت في بلاد غير مسلمة ، وبناشئةٍ غير مسلمةٍ كان هذا المنهاج ، وكانت هذه الكتب قلقةً نابيةً لا تفي ، ولا تساعد في المطلوب ، ويكون الصِّراع مستمراً بين الفكر الإسلاميِّ ، والرُّوح الإسلاميِّ ، وبين العقلية الجديدة ، والنفسية الجديدة ؛ التي تنشأ بتأثير هذه الكتب ، ومفعول هذا النظام التعليمي ، وهذا الصراع ليس أقل شؤماً لهذه الأمَّة ، ولا أقلَّ جنايةً على حياتها ، وسلامتها من صراع الدين والسياسة والعقل والديانة في أوربة في قرونها الوسطى ، وقد تجلَّى هذا الصراع ، والعنف ، واستفحل في جميع الأقطار الإسلامية التي أخذت العلوم الغربية برمتها ، والكتب المقررة في البلاد الأجنبية ، أو الكتب الخالية من روح الدِّين على علاتها ، وطبقت نظام أوربة أو بلاد أخرى في التعليم في بلادها ، أو أدخلت عليه شيئاً من التعديل ، وقد دفعت لهذا التعليم وما جنت

منه من فوائد مادية قيِّمةٍ عاليةٍ جداً في الأخلاق ، والروح ، والعقيدة ، وقد اتفقت كلمة العقلاء وأهل التجربة على أن خسارة الأمة والبلاد في هذا النظام التعليمي ، وفي هذه المعاهد ، ودور التعليم الحديث ؛ التي نسميها في بلادنا الهندية ـ الكليات الإسلامية ـ و ـ الجامعات الإسلامية ـ كانت أكبر من ربحها ، فقد استنفد دعاة التعليم العصري الحديث جهودهم ، وأموال المسلمين في إنشاء هذه المدارس وإقامتها ، واستخلصوا لها أفلاذ أكباد المسلمين ، وخيرة شبابهم ، فكان غاية ذلك بعد مدَّةٍ قليلةٍ فوضى فكريةٌ هائلةٌ ، واضطرابٌ ، وتناقضٌ في الأفكار والآراء ، وشكٌّ وارتيابٌ في الدين ، واستخفافٌ بفرائضه وواجباته ، وثورةٌ على الآداب والأخلاق ، وضعفٌ وانحطاطٌ في الأخلاق والسيرة ، وتقليد للأجانب في القشور والظواهر ، وتبذيرٌ للأموال ، إلى غير ذلك مما أصبح به هذا الجيل كلاًّ على الآباء ، وعلى الأمة ، وجرثومةَ الفساد في جسمها ونقطة الضعف في مركزها .

منهاج التعليم الإسلامي :

يعلم المطلعون على حقائق العلوم وفلسفة التعليم أنَّ للعلوم والكتب روحاً وضميراً كالكائنات الحيَّة ، وهو باطن هذه العلوم والروح السارية في الكتب والعلوم التي أنشأها الإسلام ، وصاغها في قالبه ، قد سرت فيها روح الإيمان بالله ، والتقوى ، والخشية لله ، والفضيلة ، والإيمان بالآخرة ، والعلوم التي وضعها اليونان ، أو رتبوها ، اشتملت على خرافاتهم ، وعلى روحهم الجاهلية ، وكذلك العلوم التي دوَّنتها أمم أوروبة الملحدة ، والكتب التي ألفها أدباؤها ، وفلاسفتها قد سرى فيها الإلحاد والجحود ، والإيمان بالماديات والمحسوسات فقط ، وقلة التقدير مما لا يأتي تحت الحسِّ ، والوزن ، والعدِّ ، والتجربة ، ومن الأخلاق ما لا يحصل له لذةٌ ، أو نفعٌ محسوسٌ ، وسرت هذه الروح في علومهم ، وفلسفتهم ، وأدبهم ، وشعرهم ، وقصصهم ، وتمثيلهم ، فلا يكون من الحكمة التعليمية ، ومن النصح للمسلمين نقل هذه العلوم والكتب المؤلفة فيها إلى النشء المسلم بروحها وضميرها ، بل يجب أن تدوَّن هذه العلوم من جديدٍ تدويناً إسلامياً ،

وتؤلَّف فيها كتبٌ مبتكرةٌ ، وتشبع بالروح الدينية ، وتستخرج منها نتائج لا تعارض الدِّين ، بل تؤيده ، وتبعث اليقين والإيمان ، وهكذا يجب أن تعمل مع التاريخ ، والجغرافية ، والعلوم الطبيعية ، فلكلٍّ منها اتِّصال بالدِّين ، وكلٌّ منها مؤثرٌ في الدِّين .

والحاصل أنَّنا في البلاد الإسلامية في حاجةٍ ملحةٍ إلى نظامٍ تعليميٍّ إسلاميٍّ في الروح ، والوضع ، والسبك ، والترتيب ، لا يخلو كتابٌ من الكتب التي تعلم مبادىء اللغة إلى آخر كتابٍ يدرس في العلوم الطبيعية ، أو الآداب الإنجليزية من روح الدين والإيمان ، هذا إذا أردنا أن ينشأ جيلٌ جديدٌ يفكر بالعقل الإسلامي ، ويكتب بقلم مسلم ، ويعمل بروح مسلم ، ويدير دفة البلاد بسيرة مسلمٍ ، وخلقه ، ويدير سياسة التعليم والمالية بمقدرة مسلمٍ ، وبصيرة مسلمٍ ، وتكون البلاد الإسلاميَّة إسلاميةً حقاً في عقلها ، وتفكيرها ، وسياستها ، وماليتها ، وتعليمها .

إذاً فوضع هذا المنهاج التعليمي من حاجات البلاد الإسلامية الأولى ؛ التي لا يسعها التغافل عنها ، والتساهل فيها ، وهو عملٌ شاقٌ وواسعٌ ، يأخذ وقتاً طويلاً ، وليس عمل فرد من الأفراد ، أو حفنةٍ من الناس ، إنما هو عملٌ تقوم به جماعاتٌ ، ولجانٌ ، ومجامع علميَّةٌ بمساعدة الحكومات الإسلامية ، وتشجيعها ، ويسند كلُّ جزء من هذا الإنتاج العلمي إلى جماعةٍ تتوفَّر فيها مؤهلاته ، فمثلاً تقوم جماعةٌ بتأليف سلسلة كتب تعلم مبادىء اللغة ، وكتب تعلم اللغة والأدب ، ومهمتها أن تضع كتباً تجمع بين المادة اللغوية والمعلومات اللازمة ، ولا يخلو درسٌ أو مجموع الكتاب من روح الدين ، وهكذا في تعليم اللغة والأدب إلى أن يصل الطالب إلى دراسة المصادر الأدبية ، وكتب الأولين ، فيكون تعليم اللغة والأدب في مرحلته الأولى والوسطى مساعداً ومتسقاً مع نظام التعليم في تكوين العقلية الإسلاميَّة ، والذوق الإسلاميِّ ، وتعليم اللغة والأدب له تأثيرٌ كبيرٌ في تكوين العقليات ، وتقويم الأخلاق كما يعرفه العارفون .

وهكذا يجب أن تخصَّص لجانٌ للتأليف في الجغرافية ، والتاريخ ،

والعلوم الطبيعية ، فتضع كتباً تشتمل على أحدث المعلومات مع الروح الدِّينيَّة ، والنتائج الدِّينيَّة ، فيخرج الطالب من كتب الجغرافية مؤمناً بأنَّ هذه الأرض التي ولد عليها ، والكون الذي يعيش فيه منتظمٌ متَّسقٌ ، وأنَّ خالقه حكيمٌ خبيرٌ ، ويهتدي من المخلوقات إلى الخالق ، ومن المعلومات إلى التفكير ومعرفة الله ، وذكره ، والتسبيح بحمده .

وكذلك التاريخ يعرف أنَّ لله سنناً لا تتغير ، وأياماً في خلقه ، وأنَّ لحياة الأمم تقدّمها ، وتأخرها ، وعثارها ، ونهوضها قانوناً معقولاً ، وأنَّ كلَّ أمَّةٍ حادت عن السبيل ، وثارت على القوانين الإلهية التي ذكرها القرآن والأخلاق الفاضلة والنواميس العادلة عوقبت عقوباتٍ في الحياة الدُّنيا ، ومحيت من الوجود .

وكذلك العلوم الطبيعية ترتبها ترتيباً جديداً ، وتستنتج منها نتائج دينيةٍ مهمَّة جداً ، وتستخدمها لإثبات الدِّين ، وتعزيز العقيدة الإسلامية ، وخدمة المجتمع الإسلاميِّ ، كما اتخذها الملحدون والمفسدون في الأرض أداةَ إلحادٍ ، وإفسادٍ ، وهذا ميسور للعلماء الذين يجمعون بين معرفة روح الإسلام والتعمُّق في هذه العلوم ، والتوسع في دراستها ، والابتكار .

المواد الدراسية العامة

القرآن الكريم :

ولا بدَّ هنا من الإرشادات إلى بعض المواد الدراسية التي يقلُّ الاعتناء بها في نظامنا التعليمي وهي في المكانة الأولى من الأهمية والتأثير في النفوس :

أولها : القرآن الكريم فهو أقوى شيء في تكوين العقول ، والأخلاق ، والنفوس ، وهو الكتاب المعجز ؛ الذي أحدث أكبر انقلابٍ في تاريخ البشر ، وهو الكتاب الخالد ، الذي لم تخلق جدته ، ولم تبل نضارته ، وهو الكتاب المدهش ؛ الذي يستطيع أن يحدث انقلاباً جديداً في المجتمع والحياة إن وجد طريقاً إلى القلوب ، فليكن له القسط الوافر ، والنصيب الأكبر في دراستنا ،

ولتكن هذه الدراسة مجردةً بقدر الإمكان ، فيدرس متنه درساً لا يغلبه النقاش والبحث ، ولا يشرَّح تشريحاً كتشريح الأجسام ، بحيث يحتجب جماله ، وتتوارى قوَّته ، ولا ينبغي للمعلم أن يحول بين الطالب وبين القرآن ، ويقف بينهما كرجلٍ يقف بين المِرْآة والمطالع فيها ، بل يدعه يتذوَّق القرآن تذوقاً ، وتتلذَّذ به روحه ، وتملأ به نفسه ، ويشير إلى مواضع العبرة والتفكير ، ويساعده مساعدةً لغويةً فقط .

السيرة النبوية :

والمادة الأخرى التي هي في الدرجة الثانية من الأهمية والقوَّة هي : السيرة النبوية ، على صاحبها الصَّلاة والسَّلام ، وهي أجمل شيءٍ في الوجود ، وهي التي تشقُّ طريقها إلى القلوب بغير شفيعٍ ، ووسيطٍ ، وتلتصق بالنفس ، فيحبُّ الرجل هذه الحياة الفريدة ، ويحبُّ صاحب هذه الحياة ـ بأبي هو وأمِّي ﷺ ـ الذي كان أروع آيات الله تعالى في جمال الخُلُقِ والخَلْقِ ، معجزةٌ كاملةٌ تشتمل على المعجزات بقدر أيام حياته ، وأخلاقه ، وكلماته ، فيحبُّ الإسلام لأجله ، ولما رآه في شخصيته وسيرته من العدل ، والعقل ، والفضل ، والجمال ، فليكثر من درس السيرة ، مهما أمكن ، ولا أعني من كتب السيرة هذه الفهارس العقيمة التي وضعت للطلبة ، وطلب منهم حفظها ، واستحضارها ، ولا تشتمل إلا على السنين ، والأعداد ، وأسماء الغزوات ، والحوادث المهمَّة ، إنَّما أعني كتب السيرة التي تملأ القلب مهابةً ، وجلالةً ، ومحبَّةً ، وإيماناً ، فينبغي ألا يخلو معظم الفصول من درس كتابٍ مؤثر في السيرة .

تاريخ الصحابة :

والذي يلي السيرة النبوية في التأثير والقوَّة هو : تاريخ الخلفاء الراشدين ، والصحابة رضوان الله عليهم ، تاريخ إيمانهم ، ومحنتهم ، وحسن بلائهم ، وتاريخ جهادهم ، وفتحهم ، وزهدهم ، واستقامتهم ، وهو تاريخ يملأ القلوب إيماناً ، وحماسةً ، ويبعث على التقليد ؛ لأنهم كانوا من عامة

البشر ، وكانوا نتيجة الإيمان بالدِّين واتباع الرسول فقط ، ويرفع مستوى الإنسانية من المادة والأغراض إلى التجرُّد من الأنانية ، والتفاني في حبِّ الرسول ﷺ ، والتضحية ، والإيثار ، والوفاء ، ليس فوقها درجة ، فليكثر من تدريس كتب التاريخ ، وليكثر من دراسة الحوادث والحكايات ، فإنَّ للحوادث والحكايات تأثيراً ليس للمنطق والبرهان والمقالات العلمية .

التربية المعنوية :

هذا ما أردت أن أقوله في منهاج التعليم والمواد الدراسية ، وهنا كلمة عن التربية : إنَّ التربية لا تقلُّ أهميَّةً عن التعليم ، وإذا خلا التعليم عن التربية ؛ أصبح بلا نتيجةٍ في أكثر الأحيان ، ونقصاً في ناحية التربية ليس بأقل من نقصنا وفقرنا في ناحية التعليم ، ومنهاج دراسته .

وموضوع التربية موضوعٌ واسعٌ طويلُ الذَّيل ، وكثير الشُّعب والنواحي ، وإنما أشير هنا إلى نقطةٍ مهمَّةٍ :

رسالة المسلمين وسيادتهم :

فيجب أن يفهم طلبتنا غايتهم، ورسالتهم، وليعرفوا أنَّهم يتعلمون ليستحقوا سعادة الدنيا والآخرة ، وينقذوا أنفسهم وأهليهم من النار ، وسخط الخالق ، والحياة الجاهلية ، ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وأنهم ورثة الأرض إذا صلحوا ، خُلقت لأجلهم الدنيا ، وكُتب لهم العلوُّ والسِّيادة ، والناس لهم تبعٌ ، وأنَّهم في الأرض مسلمون عاملون دعاة إلى الله ، وإلى دار الإسلام ، وكلُّ شيء في حياتهم فرعٌ ، ووسيلةٌ ، وآلةٌ ، وليست غايتهم الوظائف (وإن كانوا يشغلونها بأهلية ، ويقومون بها بأمانةٍ ونشاطٍ) ولا المهن ، والحرف (وإن كانوا يباشرونها بيقظةٍ وكفاءةٍ) ولا الراحة ، والدَّعة ، والمجد (وإن كانوا يتمتَّعون به في حلٍّ ، وفي اعتدال) وإنَّما غايتهم حسن العمل إلى الله ، يستعملون لذلك جميع مواهبهم ، ويركزون فيه قواهم ، وجهودهم ، ويعملون لذلك على اختلاف أذواقهم ، وفنونهم ، ومهنهم ، وفرصهم .

ثم ليعرفوا كرامتهم ، وقيمة علمهم ، ولا يهينوا أنفسهم ، ولا يبيعوها بيع السلع ، وبيع المناداة (بالمزاد العلني) فيبيعوا أنفسهم بكلٍّ من يقوِّمها ، ولكل من يزيد في الثمن ، كائناً من كان ، وليحاربوا مركَّب النَّقص في نفوسهم ، وليذكروا قول الشاعر العربي حاتم الطائي :

ونفسُك أكرِمْها فإنَّك إنْ تَهُنْ ... عليك فلن تلقى من الناس مكرما

وقول الطغرائي :

غالى بنفسي عِرفاني بقيمتها ... فَصِنْتُها عن رخيصِ القدرِ مبتذلِ

فلا يضعوا أنفسهم إلا في أشرف موضع يقدرون عليه من غير تكبُّرٍ ، ولا أنانيَّةٍ ، ولا يستعملوا مواهبهم إلا في الوجه الذي يليق بها ، ويعتزوا بدينهم ، ولا يخجلوا من الظهور به ، والانتساب إليه ، والقيام بواجباته ، ولهم عبرةٌ في كثيرٍ من كبار رجال العصر الذين فاقوا الأوروبيين في ثقافتهم ، وأدبهم ، ودراستهم ، وجاهدوا بالدِّين ، وانتقدوا الحضارة الغربية في شجاعةٍ ، وصراحةٍ ، وظهروا في مظاهر الدِّين .

التشبع بروح الدعوة والاختلاط بالشعب :

ثانياً ـ إنَّ النقطة المهمة الثانية : التشبُّع بروح الدَّعوة ، والاختلاط بالشعب ، وقد ظهر أنَّ أمَّةً ، أو جماعةً ليس فيها روح الدَّعوة ، والتقدُّم ، والهجوم لا تحافظ على وجودها ، وعلى مبادئها ، وعقيدتها ، وإنَّ موقف المدافع موقف الضَّعيف المعرَّض للخطر ، وكل من لا يكون داعياً يكون هدفاً لدعوةٍ أخرى ، وقد ثبت بالتجربة : أنَّ خير وسيلةٍ للإيمان بالمبدأ ، والثبات عليه ، ومتانة العقيدة ، والاستماتة في سبيلها هي الدَّعوة إليها ، فالداعي دائماً قوي الإيمان بمبدئه ، متحمِّسٌ في عقيدته ، ونشيطٌ في عمله ، مستهينٌ بغيره ، فإذا أردنا أن نخلق في طلبتنا هذه الصفات ، وأن يخرجوا من الخطر على دينهم ، ونأمن عليهم الاندماج في غيرهم ، والوقوف في المعسكر المخالف ؛ فينبغي لنا أن نجعلهم دعاةً ، فإذا أردنا أن نجعلهم متديِّنين ؛ فينبغي لنا أن نجعلهم دعاةً إلى الدين ، وقد جرَّبنا ذلك في الهند ، فنجحنا

نجاحاً باهراً ، فطلبة كليات الحكومة والكليات المختلطة لما خرجوا في القرى والضواحي يدعون إلى الله ، ويلقِّنون المسلمين مبادىء الإسلام ، ويوقظون فيهم روح الدين ؛ رأينا الحماسة الدِّينيَّة فيهم تزداد اشتعالاً كلَّ يومٍ ، وروحهم تقوى ، وهم في مطردٍ في الديانة والصلاح ، حتى فاقوا في حماستهم الدينية ، ونشاطهم ، وإيمانهم بالدِّين بل في الجرأة على أبناء المدارس الدينية العربية التي لا يختلط طلبتها بغير المسلمين ، ولا يقرؤون العلوم العصرية ، والسرُّ في ذلك هو الدعوة التي تجعل من الرجل غير الرجل، ومن القلب غير القلب.

وبهذه الدَّعوة ، والرحلات في سبيلها ، والاختلاط بالشعب على اختلاف طبقاته نتمكن من محاربة داءٍ شديدٍ حلَّ جديداً بدور التعليم ورجالها ، وهو العزلة عن العالم الذي يعيشون فيه ، والانقطاع عن الأمَّة التي هم من أفرادها ، فقد أصبحت المدارس في حياتنا جزراً صغيرةً منفصلةً عن الخارج ، والناس الذين يتخرَّجون منها يكوِّنون جزراً صغيرةً أخرى ، فكلُّ فردٍ منهم جزيرةٌ مستقلةٌ ، يعيش في عالم الخيال ، ويسبح في فلكه الخاصِّ ، وله دائرة من الأصدقاء والإخوان لا يتجاوزها ، ولا يعرف من آلام الأمَّة وآمالها شيئاً ، حتى أصبح العالم في وادٍ وهو في وادٍ ، وأصبحت الفجوة والهوّة تتسعان على مرِّ الأيام ، حتى أصبح المتعلمون أمةً مستقلةً لها لغتها ، وثقافتها ، ونفسيتها ، لا يفهمها الشعب ، ولا يعرفها ، وأخاف أن يحتاجوا بعد أيامٍ إلى ترجمان على وحدة اللغة ، والجنسية ، والوطنية ، والمدنية .

وأصبح الناس ينظرون إليهم كأجانب ، وحقَّ لهم أن ينظروا ، وأصبحوا ينظرون إلى الناس كأمِّيين ، ومنحطين في العقل ، والثقافة ، والحضارة .

وهكذا تتسع الهوَّة بين الطبقة المثقفة ودهماء الناس ، وليس ذلك من مصلحة أحدٍ منهم ، ولا تنهض أمَّةٌ ، ولا تعيش على مثل هذه الحال من الفرقة والانفصال . وبكثرة اختلاط الطلبة بالشعب في طريق الدَّعوة الدِّينيَّة ، والتعليميَّة ، والإصلاحيَّة ، وبكثرة تردُّدهم إلى القرى ، والضواحي ، والمدن عصاباتٍ وجماعاتٍ بشكلٍ منظَّمٍ ، وتحت إشراف الأساتذة تنشأ في الطلبة روح الدين ، والجهاد ، والكفاح في سبيل الحياة .

ويتعوَّدون على الشدَّة ، والغلظة في العيش ، وتنشأ فيهم كذلك روح الأخوَّة الصادقة ، والمحبَّة المخلصة ، وروح الخدمة ، والإيثار ، ويعرف بعضهم بعضاً ، ويخدم بعضهم بعضاً ، ويعرفون الحياة العامَّة ، وحياة القرى ، والبادية ، ويعرف الطلبة الحقل الذي سيعملون فيه ، ويعرف أهل البلاد دعاتهم ، ومرشديهم ، ومعلميهم الذين سيساعدونهم ، ويأخذون بأيديهم ، إلى غير ذلك من الفوائد التي لا تُعرف إلا بالاختيار ، والتجربة .

التربية البدنية :

وكلمةٌ موجزةٌ عن التربية البدنية ، والرياضة التي أهملها التعليم والتربية في بلادنا ، حتى نشأ شباب مخنَّثٌ ، رقيقٌ ، ضعيفٌ لا صبر عنده ، ولا جلد ، ولا تماسك ، ولا ثبات ، ولا غلظة ، ولا قوَّة ، وقد انحطت الشعوب الإسلامية في العهد الأخير في فروسيتها ، وأجسامها انحطاطاً مفزعاً ، يهدد بخطرٍ عظيم .

وقد قلدنا الغربيين ـ أو حاولنا أن نقلِّدهم ـ في كلِّ شيءٍ إلا في الاهتمام بالجسم ، والرياضة البدنية ، وتربية الفروسية ، والبطولة ، هؤلاء الإنجليز والأمريكان عندهم اهتمامٌ زائد بالرياضة البدنية ، والجري ، والسباق ، وركوب الخيل ، والسِّباحة ، والمصارعة ، والملاكمة .

أما نحن فلم نأخذ منهم إلا كرة القدم ، والألعاب ، فعلى المعارف في البلاد الإسلامية أن تعير الرياضة البدنية وتربية الأجسام والفروسية قسطاً لائقاً من عنايتها ، واهتمامها ، وتقيِّد المدارس والكليات بالاعتناء بهذا الشأن ، حتى ينشأ جيلٌ متوفِّر العلم ، سليم العقل ، قويُّ الجسم ، قويُّ الإيمان ، وهو الذي يستطيع وحده أن يؤدِّي رسالة الإسلام ، والعلم ، والفضيلة ، ويشقَّ طريقه في الأشواك ، والأخطار ، فالحياة ليست روضةً من الرياض ، ولا نوعاً من العبث ، إنما هي جدٌّ ، وكفاحٌ ، لا يثبت فيه إلا الشديد القوي .

وقد فطنت الجمهورية العربية المتحدة إلى قيمة هذه التربية ، وتقدَّمت في طريقها شوطاً ملحوظاً ، وزادت عنايتها بالدِّين ، فجعلته مادةً أساسيَّة يرسب

فيه الطالب في جميع سني الدراسة ، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك في أنَّها رغَّبت طلاب الجامعات في حفظ القرآن الكريم ، وأقرَّت جوائز على ذلك ، عدا ما اتخذته من خططٍ مغريةٍ لأئمة المساجد وغيرهم نظير قيامهم بتحفيظ القرآن لعامَّة الشعب .

مسألة المتعلمين :

ولكن كما قلنا في أن التعليم والتربية يتوقف على وجود معلمين يؤمنون بهذه المبادىء ، والعقائد ، والغايات ، ويخلصون لها كلَّ الإخلاص ، ويدعون إليها بإيمانٍ ، وحكمةٍ ، وتكون حياتهم خير مثالٍ لما يدْعون إليه .

ووجود مسلمٍ يعارض هذا النظام بفكره ، وعمله ، أو غير مؤمنٍ به ، غير مخلصٍ له ، كوجود لوحةٍ نخرةٍ في سفينةٍ في عرض البحر ، ومعولٍ هدَّام في بناءٍ شامخٍ ، ولا ينجح نظامٌ تعليميٌّ ولا يؤتي أُكُلَه مهما كان كاملاً محكماً إذا كان المعلِّمون مذبذبين ، متناقضي الفكرة ، لا تتفق حياتهم مع رسالة الدين والعلم .

إذاً فمسألة اختيار المعلمين ليست بسيطةً سهلةً كما يظنُّ كثيرٌ من رجال المعارف ، ليس أساسه العلم وحده ، والمقدرة التعليمية ، والمؤهلات العلمية فحسب ، بل يجب أن تكون للسيرة ، والخلق ، والمبدأ ، والغاية ، والإيمان ، والعقيدة المكانة الأولى ، والأهمِّيَّة الكبرى في اختيار العلم .

ويجب أن تكون هذه العقيدة متغلغلةً في الأحشاء ، قد ملكت عليه فكره ، ومشاعره ، وجعلت منه داعيةً لا يملُّ ، ولا يكلُّ ، ومؤمناً لا يرتاب ، ولا يتشكَّك ، وذلك مثل المعلم الكامل ؛ الذي يسعد به نظام التعليم ، ويؤدي مهمَّته بنجاحٍ وسهولة .

أما بعد : فإنِّي لا أعرف أمانةً أكبر مسؤولية ، وأشدَّ خطراً ، وأعمق أثراً في مستقبل الأمَّة وحياتها من المعارف ، فزلةٌ من زلَّاتها قد تردي أمَّةً بأسرها في هاويةً ، وقد تودي بها إلى الاضمحلال ، والتفسُّخ ، والفوضى في الأخلاق ، والاجتماع ، والسياسة ، والتعليم ، واللادينيَّة ، والإلحاد ، كذلك

يمكنها وحدها أن توجِّه العقول والنفوس توجيهاً صالحاً ، وتنشىء الأمة نشأةً جديدةً ، وتبني لها مستقبلاً باهراً ، وليس من الشرف والرُّجولة الفرارُ من هذه المسؤولية المشرِّفة ، بل الشرف والرجولة وعلوُّ الهمَّة الاضطلاعُ بهذا العبء ؛ الذي ألقته الأمة على كاهلها ، وأن تُساهم في نهضة الأمَّة بالقسط الأكبر ، بل تضع أساسها الذي سيقوم عليها بناءُ المجتمع .

* * *

هستريا عصبية اللغة والثقافة(١)

إنَّ المأساة التي وقعت في باكستان الشرقية في شهر مارس ١٩٧١م مأساةٌ فريدةٌ من نوعها ، وقد بذَّت المآسي السابقة التي سجلها التاريخ من جوانب عديدةٍ ، أهمُّها : أنَّ المآسي الماضية والمجازر السابقة كانت صراعاً بين أمَّةٍ وأمَّةٍ ، وديانةٍ وديانةٍ ، ودولةٍ ودولةٍ ، أو بين وحشيةٍ وحضارةٍ .

وكانت أسباب العزاء والسلوى فيها كثيرةً . ولم يزل الحقُّ ممتحناً ، ولم يزل أهله في بلاءٍ وشقاءٍ من الذين لا يقرُّون بهذا الدين .

ولكن المأساة التي تتحدَّث عنها مسرحيةٌ دموية كان أبطالها مسلمين ، وهدفها مسلمين ، وقد مثلت على مسرح هو أكبر مسرح إسلامي ، رنت إليه العيون ، وهفت إليه القلوب ، ولم تكن الرواية القديمة التي تكررت عشرات من المرات ، رواية الصراع بين الحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والتوحيد والوثنية ، وبين أمَّةٍ وحشية كالمغول ، والتتر ، وبين متدينين راقين متحضرين كالمسلمين من العرب والعجم ، بل كانت روايةً طريفةً مبتكرةً لم يألفها تاريخ الإسلام ، ولا الفكر الإسلاميُّ ، رواية الصراع بين لغة ولغة ، وثقافةٍ وثقافةٍ ، وعنصرٍ وعنصرٍ ، فإن كانت الروايات الأولى نتيجة « هستريا » العقائد الجاهلية والهمجية والوحشية ، فكانت الرواية الأخيرة نتيجة « هستريا » الحمية الجاهلية ، والعصبية اللغوية ، والثقافية ، وقد بلغت الذروة من القسوة ، والتطرف ، والجنون ، وفعل المسلمون مع المسلمين ـ وهم يدينون بدينٍ واحد ـ ما فعله المغول والتتر الكفار مع المسلمين من انتهاك الحرمات ،

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الرابع ، المجلد السادس عشر ، عام ١٩٧١م .

ودوس الكرامات ، وقتل الأطفال ، والنساء ، والضعفاء ، والأبرياء ، والولوغ في الدماء ، والتمثيل بالأموات وإحراق الأحياء مما يشيب لهوله الولدان ، ويشمئزُّ منه الوجدان ؛ فكانت روايةً دخيلةً طارئةً على تاريخ الإسلام ، لم تحدث في الزمن الماضي .

لقد كانت لغاتٌ وثقافاتٌ ، وحضاراتٌ ومدنياتٌ منذ كان الإنسان ، ومنذ كان العلم ، وكانت الأمم ، وقد سعدت بها الإنسانية ، وطابت بها الحياة ، ولذَّ بها العيش ، وتوسَّعت بها ثروة الإنسانية ، ومنَّ الله بها على بني آدم ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، وقال : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم : ٢٢] .

وما عرفنا في تاريخ الإنسان الطويل المليء بالأحداث والمآسي والمهازل حرباً بين لغةٍ ولغةٍ ؛ وثقافةٍ وثقافةٍ ، وقد عُرف العرب بشدَّة اعتزازهم بلغتهم ، وقوة بيانهم ، حتى سموا غيرهم « العجم » ولكن لم يحك لنا التاريخ قصةً واحدةً لغزو العرب للعجم على أساس لغتهم ، في الجاهلية فضلاً عن الإسلام ؛ الذي حرَّم هذه العصبية ، وسماها « حمية الجاهلية » ، وتقذَّرها ، واستبشعها أشدَّ الاستبشاع ، وعدَّها من بقايا الجاهلية الأولى ، ورمزاً للكفر والوثنية ، وحرباً على الله ورسوله ، واعتبر من يموت تحت هذه الراية يموت ميتةً جاهليةً ، وعلى غير الإسلام .

ولكن جاءت أوربة والقومية المتطرفة ، فأسبغتا على اللغات والثقافات ثوب القدس والطهر ، وجعلتاها إلهاً يعبد ، تذبح له الذبائح ، وتقرَّب له القرابين ، ويحارب في سبيله ، ونشأت في أكثر البلاد حركةُ إحياء الحضارات القديمة ، والتعصُّب للغة ، والتفاني في سبيلها ، وعرف الناس نوعاً من « الصليبية اللغوية » لم يكن لهم عهد بها ، وغزت هذه الدعاية البعيدة المدى العميقة الجذور شعوباً إسلامية ، سليمة العقيدة ، سليمة الصدر ، قوية العاطفة الدينية ، كان من المنتظر بل كان من المضمون أن تكون أبعد أمم

الأرض ـ بفضل إسلامها وسلامة صدرها ـ عن هذه الوثنية اللغوية ؛ التي ما أنزل الله بها من سلطان ، وليس لها وزن حبة خردلٍ في الميزان .

ولكن فوجىء العالم الإسلامي وفوجىء كلُّ معنيٍّ بالإسلام والجامعة الإسلامية بانفجار هذا البركان الجهنمي ، وانطلاق هذه الموجة العارمة في قلب بلدٍ إسلاميٍّ ، موجة ما أريد بها وجه الله ، وما قصد بها إرضاء الرحمن ، وإرغام الشيطان ، ونشر الفضيلة ، وبث الإخاء والسلام ، ولم يكن إلا أن كان هذا الشعب ألعوبةً في يد الداهية الأوربي ، وغلاة القوميين ، ووقع فريسةً لمؤامرةً أريد بها إضعاف مجتمعٍ إسلاميٍّ ، والتدليل على عدم صلاحية الإسلام لبناء مجتمعٍ قويٍّ يقوم على أساس العقيدة والهدف ، وقد أدَّت السذاجة ، وضعف الوعي ، وتقصير قادة الفكر في هذا البلد ، وعلماء المسلمين في تنمية الشعور الإسلامي ، والوعي الديني في هذا الشعب البريء الوادع الرقيق العاطفة ، وإضاعة فرصة عقدين من السنين ؛ أدَّى كلُّ ذلك إلى أن تحول هذا الشعب الوادع الذي امتاز في الماضي بحبِّه العميق للدِّين ، واحترامه الشديد للإسلام ، وبطولته النادرة[١] في سبيل الدعوة الإسلامية ، والدفاع عنها إلى شعبٍ تنكر لجميع القيم الإسلاميَّة ، وتناسى ـ ولو في وقتٍ قصير ـ كلَّ ما للمسلم من حقٍّ على أخيه المسلم ، ووقع باسم لغةٍ ، وباسم خطٍّ وحروفٍ ، وباسم ثقافةٍ واجتماعٍ ما يندى له جبين الإنسانية ، ويحمرُّ له وجه الأدب والخلق .

وقد علق الكتَّاب ، والصحافيون ، وقادة الفكر على هذه المأساة من وجهات نظرهم ، وتناولوا الجانب السياسي بالبحث والنقاش ، ولكن جانباً واحداً لم ينل حقه من العناية ، والتألم ، والتوجع ، والرثاء ، وهو الجانب الديني ، جانب انتصار الجاهلية على الإسلام ، جانب انتصار الوثنية ـ بأوسع

---

(١) اقرأ قصص هذه البطولات وأمثال الوفاء للدعوة الرائعة في سيرة الإمام أحمد الشهيد ، أو تاريخ دعوة التوحيد والجهاد ، واقرأ اعترافات « السير وليم هنتر » بحسن بلاء البنغاليين في سبيل الإسلام في كتابه « مسلمو الهند » (Indian Muslamans W. W. Hunter) .

معانيها ـ على التوحيد بأصحِّ معانيه ، جانب الردَّة ـ وإن كانت من غير شعورٍ وقصد ـ على جانب الوفاء للإسلام ، والصدق لله ولرسوله ، وهنالك يفيض على لسان كلٍّ من يعيش للإسلام وبالإسلام ، إذا رأى الناس يرثون قتلاهم ، ويندبون موتاهم ما فاض على لسان سيد الوجود : (ولكن حمزة لا بواكي له) .

وفي هذه العجالة التي تقدَّمها مجموعة مقالين لزميلين عزيزين ؛ إثارةٌ لهذا الجانب المهمل ، وتعزيةٌ للإسلام والمسلمين ، وعرضٌ لهذه الرواية الأليمة المخجلة في صورتها الحقيقية ، ما أردنا بها إرضاء طائفةٍ ، أو إغضاب طائفةٍ ، ولا شفاء من غيظٍ ، وإنما أردنا بها وجه الله ، وقديماً قال الشاعر العربي :

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ وليتك ترضى والأنام غضابُ

* * *

مكانة الهند الدينية والعلمية وعواملها التاريخية(١)

كلُّ من له علم بالتاريخ الإسلامي يعرف حقَّ المعرفة أن الهند تحمل مكانةً مرموقةً في العالم الإسلاميِّ ، وهي حلقةٌ مهمَّةٌ من سلسلته الذهبية ، وأنها لعبت دوراً هاماً في نشر الأفكار الإسلاميَّة والعلوم الدينية ، وحسبنا شهادة على هذه الحقيقة كتاب « الثقافة الإسلامية في الهند » للعلامة الشريف عبد الحي الحسني ـ رحمه الله تعالى ـ مدير ندوة العلماء الأسبق ، توفي في عام ١٣٤١هـ ـ الموافق ١٩٢٣م ، لقد صدرت لهذا الكتاب طبعتان من مجمع اللغة العربية بدمشق ، كما قامت دار المصنفين بأعظم جراه (الهند) بطبع ترجمته الأردية ، وهي لغة المسلمين في الهند ، إنَّ هذا الكتاب كدليلٍ على مؤلفات علماء الهند الذين قاموا بخدماتهم في مجال العلوم الإسلامية والعربية ، وإنَّه فريد في موضوعه ، وإذا ألقينا نظرةً خاطفةً على كتاب « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » تكشَّفت لنا هذه الحقيقة كوضوح الشمس في رائعة النهار ، وهي أنَّ الهند قد قامت بأعمالٍ مجيدةٍ في مجال العلوم الإنسانية وفنونها ، ولها دورٌ كبيرٌ في إحياء هذه العلوم الإنسانية ، وهي بذلك فتحت باباً جديداً أمام العالم دون أن تكون متخلفة في هذا المجال ، وقامت بدورٍ هامٍّ فيه ، بل فاقت على كثيرٍ من البلاد الإسلامية الأخرى .

لقد بدأ قدوم الشعوب الإسلامية إلى الهند من خلال القرن الأول ، ولكن تصاعدت نشاطات الهجرة وممارساتها للرحيل إلى الهند في فجر القرن السابع بعد غارات التتر على الدول الإسلامية ، وكانت تعرف الهند آنذاك كمركزٍ قويٍّ

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثاني ، المجلد الأربعون ، عام ١٩٩٥م .

للإسلام وحكومته ، وقلعة متينة من القلاع الإسلامية لوقوعها على حرف من البلاد الإسلامية ، فازدادت تيارات الهجرة إلى الهند في إيران ، وتركستان ، وما وراء النهر ، وكانت هذه النزعة في هذه الدول الإسلامية شديدةً ؛ لأنَّ التتار قد شن عليها الغارة الشديدة في فجر القرن السابع ، وبعد هجمات التتار قامت الهند الإسلامية بالترحيب بتلك القوافل التي حملت إليها العلوم ، والفنون الإسلامية أعظم ترحيب ، وهي تفسح صدرها وأرضها لأهل الفضل والتقوى ، وكانت القوة التتارية لا تخضع أمام أحدٍ ولا لأيٍّ قوة ، حتى فرضت الهيبة على جميع الأقطار الإسلامية وغيرها ، ولكن لما هجم التتار على الهند واجهوا هزيمةً فاحشةً حتى تفرقت قوتهم ، وتمزقت وحدتهم التي كانت تحملهم على الكبرياء .

فإنَّ التاريخ يشهد لنا أنَّ التتار قد غزوا على الهند خمس مرات في عهد السلطان علاء الدين الخلجي ما بين ٦٩٦ ـ ٧١٦م ، وعلى الرغم من ذلك كله فإنَّ قوات علاء الدين الخلجي قد هزمتهم شرَّ هزيمةٍ حتى فترت عزيمتهم ، وتثبَّطت هممهم إلى الأبد .

وكذلك وجد العلماء فرصةً سانحةً في هذه البقعة المباركة للتدريس ، والتأليف ، ونشر العلوم الإسلامية وفنونها حتى أصبحوا عاكفين عليها زاهدين عن الدنيا وزخارفها ، وتوفرت الإمكانيات والتسهيلات اللازمة لهم لاستثمار طاقاتهم في مجال العلم والدين ، حينما ثارت على العالم الإسلامي كلِّه عاصفةٌ شديدة من كلِّ جانبٍ ، وساد الانحطاط ، والتدهور في مجال العلم والأدب ، والفكر والفن في العالم كله ، وأصيب العالم الإسلامي كله بالخريف ، حتى انقلبت في ذلك العصر صفحة الإسلام وعلومه بسرعة ، وتحوّل العالم الإسلامي رأساً على عقب ، كان للعجم سلطانٌ على بقعةٍ كبيرةٍ من العالم العربي ، وكذلك كان الأتراك يسودون مصر والشام ، حيث كان الانهيار العلمي شائعاً ، وأصبح للتقليد جولة في كلِّ مكان ، وأما تصورات الإبداع والابتكار فقد انقطعت تماماً ، وفي هذا العصر أورقت شجرة الإسلام أوراقاً جديدةً ، وجاءت بثمارٍ جنيَّة في الهند من جديد ، وكانت القرى والمدن

والبوادي عامرةً بحلقات العلماء ، وبمجالس أهل العلم والنظر ، وأصبح الكتَّاب والمؤرخون عاكفين على خدماتهم العلمية في كلِّ مجالٍ من مجالات الحياة الإسلامية بكلِّ هدوء ، ولذلك كانت زوايا العلم والتربية عامرةً بالعلماء والمشايخ ؛ الذين كانوا يعيشون حياة زهدٍ وقناعةٍ ، ولم يكن لهم شغل إلا العبادة ، والإفادة ، والإرشاد ، حتى إن من يدرس تاريخ ذلك العصر يظنُّ أنَّ التدريس ، والتأليف ، وتنشئة القلوب في عبادة الله ، وتزكية النفوس ، كان شغلهم الشاغل بكثرة أهل العلم والدين في الهند آنذاك ، ولا يسكن فيها أحدٌ سوى العلماء ، والزهاد ، وأهل العلم والدين .

عدم اعتناء المؤرخين العرب بتاريخ الهند وبمشاهير رجالها :

كانت الهند مغمورةً عن أعين المؤرخين العرب لأسباب وعوامل عديدة ، وكان السبب الرئيسي في ذلك أنَّها كانت منعزلةً عن الشوارع العالمية التي تمر عليها قوافل العلوم والفنون ، وكانت اللغة الفارسية لغةً رسمية في الهند حتى أصبحت اللغة الفارسية لغة التأليف والتصنيف ، ومن حسن حظ علماء الهند أنَّهم كانوا يجدون الفرص للخروج إلى العرب لأداء فريضة الحج ، ويسوقهم الحنين إلى هذه الأرض المباركة وإلى أرض الحجاز المقدسة مرَّةً بعد أخرى ، وكثيرٌ منهم كانوا يتلقون العلوم الإسلامية ويتتلمذون على أيدي علمائها الكبار ، فنهلوا من علومهم ما شاء الله أن ينهلوا ، حتى بلغوا فيها مبلغاً عالياً خلال مكثهم الطويل في هذه الأرض المقدسة ، ولا سيما علوم الحديث النبوي الشريف ، فلولا الحجُّ لكان العالم العربي يحتاج إلى كولمبس الذي يكشف الغطاء عن هذه الدنيا البديعة .

وتظهر هذه الحقيقة بغايةٍ من الوضوح بكتاب « الضوء اللامع » للحافظ السَّخاوي (مشتمل على ١٢جزءاً) ويحتوي على تراجم علماء القرن التاسع ، فكتب فيه عن سيرة ١١٦١١ شخصاً مع تراجم ٣٨ من علماء الهند ، وكذلك الشوكاني اليمني ما ذكر في كتابه المشهور « البدر الطالع » الذي يحتوي على علماء القرن السابع إلى القرن الثاني عشر إلا سبعة أشخاص من علماء الهند ،

حيث إنَّه كان قريباً من الهند ، وذكر المحبي في كتابه المشهور « خلاصة الأثر » ١٤عالماً من علماء الهند من القرن الثاني عشر ، حيث إنَّه فسح نطاق التراجم التي تبلغ إلى ١٢٩٠ ترجمة ، وأخيراً سلك العلامة المرادي مسلك متقدميه في كتابه المشهور « سلك الدرر » فلم يذكر فيه إلا سبعةً من علماء الهند من القرن الثاني عشر .

« ميزة نزهة الخواطر » :

إنَّ هذا الكتاب « نزهة الخواطر » للعلامة الشريف السيد عبد الحي الحسني ـ رحمه الله تعالى ـ أكبر كتاب من هذه الناحية في مجال تراجم الرجال ، لذلك فإذا قلنا : إنَّه موسوعةٌ إسلاميةٌ كبيرةٌ في هذا العصر لم نكن مبالغين ، لأنها تشتمل على تراجم العلماء ، والأدباء ، والسلاطين ، والأمراء ، والمشايخ ، والشعراء ، وعلى كل نوع من أرباب العلوم والفنون ، ولا تتعلق بطبقةٍ خاصَّةٍ ، بل يحتوي على كلِّ طبقةٍ من الطبقات ، وكذلك فإنها لا تختصُّ بعصرٍ تاريخيٍّ دون عصر ، بل نجد فيها ذكر الأعيان والمشاهير للهند من أول عهد المسلمين فيها إلى القرن الرابع عشر ، ولا تتعلق بمنطقة أو بولاية خاصة ، ولا ببقعة من بقاع الهند ، بل إنَّها تمتد من ممرّ خيبر إلى خليج بنغال ، وإلى شاطىء بحيرة العرب ، وكذلك من قمة كشمير إلى « كنيا كماري » آخر ثغور الهند ، ومما يجدر بالذكر أنَّ هذا الكتاب من تصانيف أحد علماء الهند ، وهو العلامة الشريف السيد عبد الحي الحسني ـ رحمه الله تعالى ـ .

الواقع أنَّ الهند واسعةٌ جداً ، لذلك تسمى بشبه القارة الهندية ـ إذا صح هذا التعبير ـ وإنَّ الإحاطة بعلمائها البارعين ، وبأهل العلم والفضل ، وبالشخصيات البارزة ، وبيان تراجمها حيث إنَّ كثيراً منها تتعلق بالحياة الخاملة ، وعدداً كبيراً يسكن في الأرياف والبوادي ، ويعيشون معيشة ضنكاً ، حتى أصبحوا بعيدين عن متناول أيدي المؤرخين الذين يعيشون النعيم والترف ، ويسكنون في المدن المشهورة ، وفي المراكز الحكومية ، يحتاج ذلك إلى همَّةٍ عاليةٍ لا يستطيع أحدٌ أن يقوم باستيعاب أخبارهم ،

واستقصاء تراجمهم إلا بشقِّ الأنفس ، وبمجرد توفيق الله تعالى .

وإنَّ المكتبات الإسلامية من تركية إلى مراكش ، ومن إندونيسيا إلى ماليزيا ، ينقصها مثل هذا الكتاب الذي يحيط بجميع الشخصيات الممتازة من القرن الأول إلى عصر المؤلف زماناً ، ومن الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب مكاناً ، وقد تناول المؤلف فيه النبغاء ومشاهير العلوم والفنون ، وأعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه .

وكلُّ من له إلمامٌ بالتاريخ ، ويتذوّق بدراسته لا يخفى عليه أن الكتب التي ألفت عن التراجم والسير في العالم الإسلامي ، وخرَّجت الشخصيات البارزة إلى حيز الظهور بواسطة هذه الكتب ، فهي إمَّا تتعلق بزمنٍ خاصٍّ ، أو أنها ألفت حول موضوع فنٍّ خاصٍّ ، مثلاً :

١ ـ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، للعلامة ابن حجر ، إنَّ هذا الكتاب يحتوي على أحوال نبغاء القرن الثامن .

٢ ـ الضوء اللامع في رجال القرن التاسع ، للأستاذ السَّخاوي ، إنَّه يحتوي على ذكر شخصيات القرن التاسع .

٣ ـ النور السافر في رجال القرن العاشر ، للحضرمي ، يشتمل على ذكر الشخصيات الممتازة في القرن العاشر .

٤ ـ خلاصة الأثر في رجال القرن الحادي عشر ، للمحبِّي ، يحتوي على رجال القرن الحادي عشر .

٥ ـ سلك الدرر ، للمرادي ؛ يحتوي على أحوال مشاهير القرن الثاني عشر .

٦ ـ البدر الطالع لمحاسن من بعد القرن السابع ، للعلامة الشوكاني يشتمل على أحوال شخصيات من بعد القرن السابع .

والكتب التي ألفت في ذكر الشخصيات البارزة في فنٍّ خاصٍّ أو في مذهبٍ من المذاهب الأربعة ، هي كما يلي :

١ ـ طبقات الأطباء . ٢ ـ طبقات النحاة . ٣ ـ طبقات الأدباء . ٤ ـ طبقات الشافعية الكبرى . ٥ ـ طبقات الحنابلة .

ولكن الكتاب الذي نحن بصدد ذكره « نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر » للعلامة الشريف عبد الحي الحسني ـ رحمه الله تعالى ـ ، فريدٌ في موضوعه ، لا يختصُّ بزمنٍ خاصٍّ ، ولا يعتني بشخصياتٍ فنيَّةٍ ، ولا بمشاهير مذهب فقهي ولا بنبغاء عهدٍ خاص ، بل إنَّه شاملٌ جميع الطبقات ، وجامع للمذاهب والمسالك الإسلامية كلها ، ولا شكَّ أنَّ هذا الكتاب كاملٌ وشاملٌ يفوق ما كتب حول الموضوع من حيث الزمان والمكان والموضوع كذلك ، ولا يوجد أيُّ فرق فيه بين مذاهب الفقهاء ، وأصحاب الرأي والفكر .

لقد بذل العلامة قصارى جهوده العلمية وكفاءاته الكتابية في تأليف هذا الكتاب ، فإنَّه عصارة نبوغ المؤلف ومظهر لرحابة صدره ، ودقَّة نظره وبراعته ، وتصويرٌ صادقٌ لإخلاصه ، فإنَّه لم يسلك فيه طرائق قدداً من العصبية أو القومية ، بل إنَّه كتب كلَّ ما في حياة المترجم من فضلٍ وميِّزةٍ بدون أيِّ تكلف ، وكذلك أشار إلى ضعف المؤرخين والمصنفين ، وإلى إفراطهم وتفريطهم مع وجود شفافية الوجدان والشعور ، وكما نجد في هذه الموسوعة سيل قلم المؤلف في بيان الأوصاف الجمالية والكمالية للشخصيات الممتازة بدون أيِّ تردُّدٍ ، كذلك اعترف بالفضل والنبوغ لكل من ترجم له بدون أيِّ تلعثم ، فإنَّه اختار لنفسه في تأليف هذا الكتاب طريق الاعتدال في المدح والثناء مع الإشارة إلى مواضع الضعف في النقد لا يكاد يُعزل عنه أيُّ فرد من أفراد البشرية ، مع ما يوجد فيه من حلاوة الفصاحة والبلاغة لتنوع عناوينه ، بحيث لا يسأم القارىء من قراءته ولا يثقل عليه ، لأنَّه يجد فيه حلاوة القصص والحكاية التي يحكيها الأصدقاء ، لا شكَّ فإنَّه كقصةٍ طريفةٍ توجد فيها الموعظة ، والنصيحة ، والدروس ، والعبر ، هذا هو السبب الأكبر الذي حمل المؤلف على تسمية هذا الكتاب باسم « نزهة الخواطر ، وبهجة المسامع ، والنواظر » .

انطباعات العلامة السيد سليمان الندوي :

نكتفي هنا بنقل انطباعات العلامة السيد سليمان الندوي . فقد كتب في جريدة « معارف » الشهرية في عددها الصادر عام ١٩٢٣م التي تصدر من دار المصنفين بأعظم جراه الولاية الشمالية (الهند) في اللغة الأردية « لقد أُلفت كتبٌ كثيرةٌ عن السير والتراجم ، وسجِّلت التواريخ للشعراء ، والمشايخ ، والملوك ، والسلاطين في الهند الإسلامية عبر ألف سنة ، وعلى الرغم من ذلك كله فإننا لم نجد أيَّ رسالةٍ ، أو أيَّ كتابٍ مستقلٍ ما عدا مصنفات آزاد بلجرامي التي ألفت حول تراجم المشايخ ، والعلماء الراسخين في الهند ، ولكن ما شعر أحد من علماء الهند بهذا الفراغ والنقص ، بل شعر به العلامة الشريف السيد عبد الحي الحسني ـ رحمه الله تعالى ـ ، حتى استغرق هذا العمل الجبار وهذا التحقيق الفريد عشرين عاماً ، فما من مكتبة من المكتبات الإسلامية من أقصى الهند إلى أقصاها ومن شرقها إلى غربها إلا وقد طار المؤلف إليها على جناح الشوق والطلب ، وساقه إليها التجسس والتفحُّص ، حتى خرج منها فائزاً بمرامه ، وأخرج الكتاب في ثمانية مجلدات ضخمة في هذا الموضوع باسم « نزهة الخواطر » وجمع فيها تراجم وسير علماء الهند كلها ، وقد تحلَّى هذا الكتاب القيم بمقدمة قيمة بقلم المؤلف زادت في قيمته ، مشتملةً على تاريخ العلوم الإسلامية وفنونها ، وبعد ذلك طبعت هذه المقدمة في دمشق بعنوان « الثقافة الإسلامية في الهند » وكذلك فإنَّه ألَّف كتاباً مستقلاً باللغة العربية ، ورتَّب هذا الكتاب على تاريخ الهند الإسلامي ، وسلاطين الإسلام فيها ، وحضارة الهند الإسلامية ، وتاريخ المسجد ، والمدارس ، والمباني الأثرية ، والمستشفيات فيها ، وعلى المزايا الأخرى ، وقد طبعت هذا الكتاب دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ـ الهند بعنوان « الهند في العهد الإسلامي » .

انطباعات العلامة السيد مناظر أحسن الكيلاني :

وقد كتب الأستاذ الجليل السيد مناظر أحسن الكيلاني في رسالة له بعث

بهـا إلى كاتب هذه السطور كتبهـا في ١/١١/١٩٤٥م ، وعبَّر فيها عما في نفسه من سرورٍ وبهجةٍ بوجود هذا الكتاب في المكتبات الإسلامية جاء فيها :
« الواقع أنَّني كنت أتمتَّع بصفةٍ خاصَّةٍ بإنتاجات والدكم المرحوم القيمة ، ويثلج صدري ، وتقرُّ عيني بقراءة مؤلفاته الثمينة بقلمه الرشيق ، مع ذلك أنا أشعر بدون أيِّ تكلف بأنَّني مـا كنت عارفـاً من قبل أهمية كتابـه المشهور « نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر » كما عرفت حينما بدأت تأليف كتابي بعنوان « نظام التعليم والتربية للمسلمين في الهند » ولا شكَّ فإنَّ هذا العبد المخلص لوجه الله تبارك وتعالى مثَّل دوراً هاماً في مجال التراجم والسير ، إنَّه نتيجة جهوده المباركة الطيبة ، وخدماته الضَّخمة للجيل الإسلامي الناشىء الذي هو متعطش إلى معرفة سير تلك الشخصيات الإسلامية ، فليس أجره فيها إلا على الله تبارك وتعالى ، فسوف ينتفع بهذه الموسوعة الإسلامية جمٌّ غفيرٌ من الطلاب والأساتذة خاصَّةً ، ومن الناس عامَّة ـ إن شاء الله تعالى ـ » .

مساحة الكتاب التاريخية وعدد تراجمه :

إنَّ هذا الكتاب مشتمل على ثماني مجلدات :

١ ـ المجلد الأول : يحتوي على تراجم الشخصيات البارزة من القرن الأول إلى القرن السابع .

٢ ـ المجلد الثاني : مشتمل على أحوال رجال القرن الثامن .

٣ ـ المجلد الثالث : مشتمل على رجال القرن التاسع .

٤ ـ المجلد الرابع : يحتوي على أخبار رجال القرن العاشر .

٥ ـ المجلد الخامس : مشتمل على ذكر الشخصيات المشهورة للقرن الحادي عشر .

٦ ـ المجلد السادس : يعتني بذكر رجال القرن الثاني عشر .

٧ ـ المجلد السابع : يحتوي على ذكر رجال القرن الثالث عشر .

٨ ـ المجلد الثامن الأخير : يحتوي على ذكر رجال القرن الرابع عشر وعلى رجال معاصري المؤلف .

وأما عدد التراجم والسير فيبلغ إلى ٤٥١٤ ، وهذه المجلدات كلها مشتملةٌ على ٣٢٤٠ صفحة .

طبعة جديدة لهذا الكتاب باسم جديد :

ولما وضع المؤلف هذا الكتاب القيِّم من أول يومه سمَّاه « نزهة الخواطر ، وبهجة المسامع والنواظر » فقد خرج إلى حيز الوجود بهذا الاسم ، وقامت دائرة المعارف الإسلامية بحيدر آباد بالطبعة الأولى والثانية ، فتلقاه الناس بالقبول والإعجاب ، حتى أصبحت شهرته ذائعةً في كلِّ مكان ، وذاع صيته في العالم الإسلامي كلِّه ، وعرف اسم هذا الكتاب كل من يعيش في شبه القارة الهندية وخارجها من الصغار إلى الكبار ومن الطلاب إلى الأساتذة ، ولا شكَّ أنَّ هذا العمل العظيم مأثرةٌ من مآثر دائرة المعارف العثمانية وخدماتها العلمية ، ومننها التاريخية التي عُرفت بين أهل العلم والفضل ، ثم قامت دار عرفات بطبعته الجديدة الممتازة تلبيةً لنداء بعض المحبِّين والمخلصين ولسدِّ حاجات الباحثين ، ولتزويد المكتبات الإسلامية والعربية في الدول الإسلامية وخارجها بهذا الكتاب باسم : « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » .

وسوف يقوم ناشر كبير من البلاد العربية بطبعته الخاصَّة لسدِّ حاجات المكتبات العربية ، وجامعاتها الإسلامية ، ومعاهدها العلمية لكي يستطيع أن يستفيد منه الباحثون بكلِّ سهولة عند الضرورة ، ويملؤوا خزائن مكاتبهم العامة مع مكاتبهم الشخصية ، وأن يزينوها بهذا الكتاب ، حتى يكون الباحثون مطلعين على أصحاب الفضل والكمال وعلى الشخصيات الممتازة في شبه القارة الهندية وعلى خدماتهم الدينية والعلمية .

لا شكَّ أنَّ المكتبات ناقصةٌ إذا لم يوجد هذا الكتاب فيها ، ذاك أنَّه ليس كتاب علم فحسب ، بل إنَّه مكتبةٌ مستقلةٌ ، وخزينةٌ علميةٌ لا يستطيع أحدٌ أن يستغني عنها نظراً إلى مكانته المرموقة في مجال العلم والتحقيق .

ولأجل ذلك نحن ننشر هذا الموضوع بالنظر إلى أهمية هذا الكتاب ، حتى يكون المحققون والباحثون وأصحاب المكتبات العلمية والجامعات الإسلامية مطلعين على هذا العمل الضخم ، والمشروع العلمي والتاريخي الجليل ، ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٦] .

* * *

موقف المسلمين في الهند من التعليم والتربية ودورهم في إثراء التاريخ الإسلامي(١)

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النبيين محمد النبي الأمين ، وآله وأصحابه الطاهرين الطيبين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ، من خلفاء الرسل وأئمة الدين ، الذين ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

أما بعد ! فحضرة الرئيس الجليل والسادة الأجلاء ، والضيوف الأعزاء !

أحييكم : أصالةً مني ، ونيابةً عن زملائي وعن مسلمي الهند وعلمائهم بتحية الإسلام ، وبتحية العلم ، تحية الزملاء الصغار للزملاء الكبار ، وتحية الرفاق للرفاق ، فكلنا نسير في ركب الإسلام السيَّار ، وفي موكب العلوم الإسلامية الحافل ، إذا فرقت بيننا الأستاذية والتتلمذ ، والأصالة والتطفل ، والقيادة والتبعية ، فقد جمعنا ظلُّ الإسلام الوارف ، ووسعتنا وشيجة العلم الجامعة ، وكلنا أبناء الإسلام ، وزرع النبوَّة ، وغرس القرآن ، وتلاميذ مدرسة الإيمان .

أرحِّب بكم أيها السادة ! على أرضٍ قامت عليها تجربةٌ من نوعٍ فريدٍ في تاريخ الديانات ، والحضارات ، والثقافات ، نجحت نجاحاً منقطعَ النظير ، تجربة دخول دين يواكبه العلم ، والحضارة ، ومنهج خاص للحياة ، لا تربطها

(١) ألقى العلامة الندوي هذا البحث القيم في المهرجان التعليمي الذي أقامته دار العلوم ندوة العلماء بمناسبة مرور خمسة وثمانين عاماً على تأسيسها ، نُشر هذا البحث في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الأول المجلد العشرون ، عام ١٩٧٥م .

به لغةٌ ، ولا آدابٌ ، ولا حضارةٌ ، ولا قوميَّةٌ ، ولا عنصريَّةٌ ، ولا عاداتٌ ، ولا طبائع ، فبرهنت هذه التجربة على القوَّة المودعة في طبيعة الإسلام ، وقدرته على إشعال المواهب ، وتفتيق القرائح ، وإثارة الدفائن ، واستخدام الطاقات البشرية في صالح الإنسانية ، وعلى استجابة الفطرة البشرية السليمة له ، كأنَّما كانت منه على موعدٍ واشتياق ، ومعه على تفاهمٍ واتفاق ، وبرهنت كذلك على خصب التربة ، وكرم المنبت ، وعلى أنَّ العلوم الإسلامية تورق وتثمر في كل بيئةٍ ومناخٍ ، وقد تكون أكثر ازدهاراً ، وأفضل ثماراً إذا غرست في أرضٍ بكر ، وتناولها عمل التلقيح الحكيم ، و « التأبير » السليم ، وعلى أنَّ الشعور بالغربة ، والبعد عن مصدر هذه الهداية ، ومنطلق هذه القافلة ، واليأس من وصول الميرة والمدد ، والاعتماد على نصر الله وحده ، ثم الاعتماد على الرسالة التي تحملها هذه الجالية ، وصلاحيتها للبقاء ، ونفعها للإنسانية المعذبة ، والشعور بكونها على ثغرةٍ بعيدةٍ من ثغور الإسلام ، كلَّفها الله حراستها ، والذود عنها ، يثير في هذه الجالية قوةً تصنع العجائب وتأتي بالمعجزات ، وتتغلب على كلِّ مقاومةٍ ومحاربةٍ ، ومؤامرةٍ ومعاكسةٍ ، وتكذب تجارب الأمم ، وتبطل المنطق الماديَّ الذي يؤمن بالرياضيات ، وفلسفة الأعداد والعدد ، وخضوع النتائج للمقدِّمات ، والمسببات للأسباب .

تدخل هذه الجالية في البلاد غريبةً ، فلا تلبث أن تتخذها داراً وقراراً ، يحبُّها أبناؤها ، وتحبهم ، ويرون فيها الأخ الكريم ، والأب الرحيم ، والأستاذ الشفيق ، والحاكم الرقيق ، والصانع الحاذق ، والإداريَّ الحازم ، وتصبُّ على هذه التربة أفضل ما عندها من طاقات وكفايات ، وعلومٍ وتجارب ، وتعاليم وآداب ، وإبداعٍ وابتكار ، ونشاطٍ وحماسٍ ، وقوَّة عملٍ وقوة إرادة ، وحسن تنظيم ، وقدرة إدارة ، وتلتقي الفروسية التركية ، وقوة الإرادة المغولية ، والنخوة الأفغانية ، والطبيعة الإيرانية المرحة القلقة ، الهائمة بالجمال والخيال ، ورقة العجم ، وخفة روحهم مع جدية العرب ، وسلامة ذوقهم ، مع طبيعة البلاد وأبنائها الرقيقة الوادعة ، الولوع بالفلسفة والتصوُّف ، يسيطر على جميع هذه العناصر والعوامل عقيدة التوحيد النقيَّة ،

وتعاليم الشريعة الإسلامية السمحة ، وتصهرها في بوتقتها ، فتنشأ من كل ذلك حضارةٌ جديدةٌ تستحق أن تسمى : « الحضارة الإسلامية الهندية » .

وقامت في الهند مدرسةٌ حضاريةٌ فكريةٌ علميةٌ ، ذات شخصيةٍ خاصَّةٍ وطابعٍ خاصٍّ ، أنجبت عدداً كبيراً من النوابغ ، وأئمة الفنون الإسلامية ، وأصحاب الإبداع والابتكار ، والأصالة العلمية ، كانوا أصحاب مدارس خاصَّة ، وفاتحي آفاق جديدةً ، ليس في العلوم الدينية كالتفسير والحديث ، والفقه والعقائد ، فحسب ، بل في علوم اللغة والآداب العربية ، أقرَّ لهم علماء العرب بالإمامة والزَّعامة فيها ، وعدت كتبهم من المراجع الرئيسية في هذه العلوم ، وبعضها فريدٌ لا نظير له في المكتبة الإسلامية العالمية[1] ، ومدَّت هذه المدرسة الحركة العلمية والتأليفية في العالم الإسلامي والعربي التي أصابها الفتور ، وغشيها الإعياء الفكري في بعض الفترات بعد القرن الثامن الهجري ، بدمٍ جديدٍ ، ونشاطٍ جديدٍ ، وأصبحت معقلاً لبعض العلوم الإسلامية بعد الزحف التتاري ، وصارت أكبر مركزٍ لعلم الحديث الشريف في الزمن الأخير ، ومصدر إشعاعٍ وتصديرٍ بعد ما كانت مركز استفادةٍ واستيرادٍ ، ونبغ فيها أكبر علماء هذا الفن ، وألف فيها أحسن الكتب في هذا الموضوع ، وقاد بعض رجالها في مختلف العهود حركات الإصلاح والتجديد ، والبعث الجديد ، سمع صداها العالي ، ورُئيت آثارها الطيبة المباركة ، في نواحي العالم الإسلامي البعيدة .

ثم أراد الله أن تخوض هذه البلاد أكبر معركة حضاريَّةٍ ، ثقافيَّةٍ ، فكريَّةٍ ، شهدها التاريخ المعاصر ، وأن تواجه أعنف صراعٍ بين المبادىء والعقائد ، والقيم والمفاهيم ، والمعايير والموازين ، معركة قامت بين الحضارة الغربية والفلسفة الغربية ، وبين الحضارة الإسلامية والفلسفة الإسلامية ، وصراع بين

---

(١) اقرأ للتفصيل كتاب العلامة الندوي « المسلمون في الهند » طبع دار ابن كثير بدمشق ، ولتفصيل أكثر كتاب « الثقافة الإسلامية في الهند » للعلامة عبد الحي الحسني طبع مجمع اللغة العربية بدمشق .

الفكرة الإسلامية ، والفكرة الغربية بأوسع معانيهما وأدقها ، فكانت معركةً حاميةً داميةً ، وصراعاً عنيفاً قاسياً ، فقد واجه الشعب الهندي المسلم المثخن بالجراح ، المصاب بدهشة الفتح الحضارة الغربية الفتية ، الدافقة بالحيوية والنشاط وجهاً لوجه ، لا حاجز بينهما ، ولا فجوة ، ودام في ربوع الهند الحكم الإنجليزي الثائر الموتور الحانق على هذا الشعب الذي تسلم منه مفاتيح البلاد ، وذاق من جرائه الثورة العارمة والحرب المسعورة قرناً كاملاً ، يحمل الروح الصليبية مع الروح الاستعمارية ، يرى في الشعب المسلم منافسه الحقيقي الدائم في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، ويرى في الإسلام معسكراً يوازي معسكره على طول الخطِّ ، وكي يدَّعي أنه يقود الحياة ، ويصوغ المجتمع ، ويشرِّع ويسنُّ القوانين ، ويملأ الفراغ الذي لا بدَّ أن يملأ ، فكان نصيب الشعب المسلم من لهيب هذه المعركة وخسائرها وغراماتها أكثر من نصيب أيِّ شعبٍ آخر ، وكان أكثر حساسيةً ، وأكثر حساباً لهذه المعركة من جميع الشعوب بطبيعة الحال ، وقد سجّل التاريخ الأمين المنصف : أنَّه كان أكثر صموداً ، وأكثر احتفاظاً بشخصيته ومعنوياته ، وأكثر تمرداً واستعصاءً على حركة الإبادة الدقيقة الشاملة من أكثر الشعوب الإسلامية التي اكتوت بنار الاستعمار الأجنبي ، ووقعت تحت نيره .

هذا عدا حركة « التنصير » التي يسميها أصحابها حركة « التبشير » التى واجهها المسلمون في الهند على إثر استقرار الحكم الإنجليزي ، وقد كادت تكتسح البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وكانت مسلحةً بأقوى الأسلحة ، وأشدِّها تأثيراً في الشعب المفتوح المهان ، وتتمتع بحماية الدولة التي تعتبر هذه البلاد منحةً من السيد المسيح ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ والسيطرة على البلاد ، فرصةً سانحة للدعوة إلى الدين المسيحي ، ترافق حركة التنصير حملةٌ تشكيكيةٌ قوية ، تشكيكٌ في كل ما يتصل بالدين الإسلامي من شريعةٍ وحضارةٍ ، وثقافةٍ وتاريخٍ ، وقد قاوم علماء المسلمين كلتا الحركتين بقوةٍ زائدةٍ ، وقدرةٍ فائقةٍ ، وآثروا سياسة الهجوم والنقد العلمي على سياسة الدِّفاع والتماس العذر ، فانحسرت موجات الدَّعوة التبشيرية ، والحركة

التشكيكية ، وتراجعت إلى الوراء ، وازداد المسلمون إيماناً وثقةً بدينهم ، واعتزازاً بحضارتهم وثقافتهم ، واعتداداً بشخصيتهم وتاريخهم .

وأمَّ عددٌ كبير من الشباب المسلمين مراكز الثقافة الغربية في كبرى العواصم الأوربية ، وتخصَّصوا في علومها العصرية ، وحذقوا اللغة الإنجليزية كأبنائها ، وكان منهم أدباء ، وكتاب ، ومؤلفون ، ومعلمون ، وإداريون ، شهد ببراعتهم وتفوقهم علماء الغرب ، ولكن كان منهم أكبر نقدة ، وأقوى ثائرين على الفلسفة الغربية المادِّيَّة ، والفكرة الغربية المتطرفة المتعصبة للمسيحية أحياناً ، والمتحللة الملحدة أحياناً كثيرةً ، وتناولوا الحضارة الغربية ، والفلسفات الحديثة بنقدٍ علميٍّ عميقٍ ، وتشريحٍ جريءٍ دقيقٍ ، وتهكُّم لاذعٍ رشيق ، كلٌّ على حسب أسلوبه الخاص ، وظروفه الخاصَّة ، وصدرت من أقلامهم أقوى كتابات في عرض المسلمين كدينٍ كاملٍ شاملٍ ومهاجمة الحضارة الغربية في أسلوب مليءٍ بالثقة والاعتزاز ، بعيدٍ عن كلِّ تأويلٍ واعتذار ، وأنشؤوا جبهةً علميةً قويَّةً أمام دعوة الفكرة الغربية والحضارية ، شعارها إنكار إمامة الغرب ، وعصمتُه من كلِّ خطأ ، وبراءتُه من كلِّ ضعف ، والافتخارُ بالإسلام كرسالةٍ إنسانيَّةٍ عالميَّة خالدةٍ ، والإيمان بمحمَّد كخاتم الرسل ، ومنير السبل ، وإمام الكل .

ثم واجه الشعب المسلم الهندي تجربةً جديدةً ، ودخل في فترةٍ كبيرة الأهمية ، هي تجربة ممارسة الحياة الحرَّة الاستقلالية ، التي كان من أوَّل دعاتها ، ومن أكبر أبطالها ، والمضحين في سبيلها ، والتي يساهم فيها كأبناء البلاد وأفراد الشعب المواطن المناضل ، الحرُّ الأبيُّ الكريم ، فترة انتقال من الحكم الأجنبي إلى الحكم الذاتي ، تسنُّ فيه قوانين جديدةٌ ، ويصاغ فيه المجتمع صوغاً جديداً ، ويوضع للتربية والتعليم نظامٌ جديدٌ ، وتتحكم في حياة البلاد اتجاهاتٌ طائفية أحياناً ، عاطفيةٌ وأعصابيةٌ أخرى ، والمسلمون في كلِّ هذه الظروف أقليةٌ عدديَّةٌ ، وطائفةٌ متخلِّفةٌ ، قد حرص الحكم الإنجليزي على إضعافها ، وتأخيرها في ميدان الحياة ، تحيط بها حالاتٌ من رواسب الماضي ، ومن شبهات هي منها بريئةٌ كلَّ البراءة ، ومن تصرفات هي منها بعيدةٌ

كلَّ البعد ، وكلُّ ذلك يضخِّم مسؤوليتها ، ويضعف موقفها ، ويحرج مركزها ، وهي مع كل ذلك مصممةٌ على البقاء في هذه البلاد ، مع الاحتفاظ التامِّ بشعائر دينها ، وخصائص حضارتها وشخصيتها ، لا تتخلَّى عن شيءٍ من ذلك ، فكانت محنة ذكاء ومحنة وفاء ، محنة عقيدة جازمة ، ومحنة وطنيةٍ صادقةٍ ، محنة الشخصية القوية العبقرية ، ومحنة الروح الإيجابية البناءة ، محنة يقلُّ نظيرها في التاريخ الإسلامي القديم ، فلا تمكن الاستنارة به في ذلك ، ويندر الحديث عنه في كتب الفقه والفتاوى ، ومتى وجد ستون مليوناً أو أكثر من المسلمين في أكثرية غير المسلمين ، في بلدٍ يحكمه البرلمان ، ويسيطر عليه الدستور ، واتخذ العالمية له شعاراً ، فلا سبيل إذاً في تخطيط الحياة اللائقة العملية الخاضعة لتعاليم الإسلام والحقائق الراهنة ، إلا الأصول الإسلامية الحكيمة ، الخالدة العالمية ، والذكاء الألمعي ، والشخصية القوية ، والعزم الصادق ، والإيمان الراسخ ، وإيثار حياة الشرف والكرامة على حياة اللؤم والمهانة ، والاستشراف لتبوُّء مكان القيادة الخلقية الذي لا يزال منصبها شاغراً ، والظهور على منصَّة هذه البلاد ومسرحها كداعٍ مخلصٍ رباني ، وقائدٍ خلقيٍّ إنسانيٍّ ، مجردٍ عن كلِّ شهوةٍ وأنانيةٍ ، وأغراضٍ فرديَّة وجماعيَّةٍ ، ينقذ هذه البلاد من الهوَّة السحيقة العميقة من الانحطاط الخلقي ، وتقديس المادة ، والتهالك عليها ، والانتهازية ، ونسيان فاطر الكون ، وذلك هو الطريق الوحيد الذي يرفع هذا الشعب من مستواه الشعبي العام إلى مستوى الرائد ، والقائد الرفيع السامق .

وقد عرف الشعب المسلم الهندي في تاريخه الطويل ـ ولا أزكِّي على الله أحداً إنَّما هو تحدُّثٌ بالنعمة ، وتقرير الواقع التاريخي ـ بقوة عاطفته الدينية ، وحبِّه العميق ، المتغلغل في الأحشاء لرسول الله ﷺ ، وارتباطه بمهد الإسلام ومركزه ، وذلك الذي حماه من أن يذوب ويفقد شخصيته ، كما كان الشأن مع الشعوب التي دخلت في هذه البلاد في فتراتٍ مختلفةٍ ، وأبدى اهتمامه الشديد بقضايا الإسلام والمسلمين في الزمن الأخير ، قد تبنى قضية الدفاع عن الخلافة العثمانية بحماسٍ منقطع النظير ، ولا تزال « حركة الخلافة » التي كان

لها فضلٌ كبير في إثارة الوعي السياسي والوطني في شبه القارة الهندية ، كبرى حركات الهند الشعبية ، وموضع دهشة المستعمرين ، وموضوع المؤرخين والمؤلفين ، وكذلك أبدى اهتمامه الشديد بقضية فلسطين ، والمسجد الأقصى المبارك ، وكان مرهف الحسِّ ، رقيق الشعور ، شديد الانفعالية في كلِّ ما يقلق المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .

وقد تجلَّت قوة عاطفته الإسلاميَّة ، وشدَّة تمسكه بالدين ، وتعاليمه وثقافته ، في شبكة المدارس الدينية ، والكتاتيب الإسلامية الدقيقة الواسعة ؛ التي قلما خلت منها قريةٌ كبيرةٌ فضلاً عن المدن والأمصار ، وقد أسسها المسلمون في طول الهند وعرضها ، بعد استقرار الحكم الإنجليزي ، وتملُّكه لزمام التربية والتعليم في القطر الهندي ، وهي تتجاوز المئات ، وتبلغ إلى الألوف ، ومنها عدد كبير يسمى بالمدارس العربية لعنايتها الزائدة بالعلوم الإسلامية التي ألفت كتبها في اللغة العربية ، وعنايتها بالقرآن والحديث اللذين هما بلغة العرب ، وهي تعنى غالباً بتدريس الجامع الصحيح للبخاري بصفةٍ خاصَّةٍ ، وتدريس صحيح مسلم ، وجامع الترمذي ، وسنن أبي داود بصفةٍ عامَّةٍ ، وتكاد تكون هذه المدارس كلُّها شعبيةً ، يموِّلها ويكفلها الشعب المسلم ، ويعتبر ذلك سعادةً وعبادةً ، ويتنافس فيه ، وذلك سرُّ وجود هذا العدد الكبير من العلماء المحتسبين ، والدُّعاة المتطوعين ، والمعلمين المخلصين في كلِّ زمانٍ ، الذين يعيشون على الكفاف ، وببلغةٍ من العيش يتبلغون بها في نشر العلم ، والدَّعوة إلى الله ، وتعليم الناس دينهم .

ومن سمات العلماء والمتخرجين في هذه المدارس الدينية البارزة ، أنَّهم كانوا في طليعة المناضلين لتحرير البلاد وإجلاء « المستعمرين » ، وفي مركز القيادة في هذه الحركة الشعبية القويَّة ، ومنهم انبثقت فكرة النضال ضدَّ الاحتلال في الحقيقة ، وقد قاد كثير منهم حركات المقاومة الفعالة والثورات المسلحة بمقدرةٍ وشجاعةٍ ، فمنهم من قتل شهيداً ، ومنهم من شنق ، ومنهم من نفي إلى جزائر اندمان ، أو إلى منفى جزيرة مالطا ، ومنهم من قضى شطراً من حياته في السجون والمعتقلات في داخل البلاد ، وتاريخ حركة التحرير

والاستقلال مقترنٌ بتاريخ العلماء والشخصيات الدينية في الهند ، متداخلٌ فيه ، بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر .

ومن سماتهم البارزة أنَّهم قادوا الحركة الأدبية الإنشائية في شبه القارة الهندية ، وكانوا من الدعائم القوية السامقة التي قام عليها قصر الأدب الرفيع والنثر الفني بعد ثورة ١٨٥٧م ، وكان كلُّ واحدٍ منهم مؤسس مدرسةٍ أدبيةٍ خاصَّةٍ ، لا يزال لها أنصارٌ ، وأتباعٌ ، ومقلدون ، وكان كثيرٌ منهم رائد نشاطٍ جديدٍ في الإنشاء والتحرير، والنقد وتاريخ الأدب والشعر ، ولا تزال مؤلفاتهم هي المرجع الأصيل ، والعمدة في هذا الموضوع ، فلم يكن في الهند ذلك الفصام النكد بين علوم الدين والأدب العصري ولغة البلاد ، ولم تكن تلك الفجوة التي وقعت في بعض البلاد بين علماء الدين والشادين بالأدب والشعر ، والهائمين بهما ، الفجوة التي جنت على الدين والأدب في وقتٍ واحد .

وأصبح الشعب المسلم الهندي اليوم مكتفياً بالإسلام ، يستمدُّ قوَّته وصموده من منابع الإسلام الأصيلة ، كالكتاب والسنة ، وسلوك الرَّعيل الأول من المسلمين ، وجهاده ووفائه ، وبطولاته ، وسيرة السلف الصالحين الذين أحسنوا فقه الإسلام ، وأساغوا تعاليمه ، واستقاموا على الطريقة ، قد ربط عقيدته ، ومصيره ، وسلوكه بالإسلام ، ولم يربطه بالمسلمين ، عرباً كانوا أو عجماً ، فليس « إمعة » ، يقول : إن آمن الناس آمنَّا ، وإن كفروا كفرنا ، وإن استقاموا استقمنا ، وإن انحرفوا انحرفنا ، ولا يشترط لوفائه للإسلام وفاء شعب من الشعوب الإسلامية للإسلام ، بل يرى ذلك لزاماً عليه ، وشكراً لنعمة الإيمان التي لا نعمة أعظم منها ، وهو يدعو الله أن يبقى متمسكاً بالجامعة الإسلامية ، معتزاً بحضارة الإسلام وفلسفته ، متمسكاً بالدين الإسلامي كدينٍ كاملٍ يقود الحياة كلَّها والأزمنة والمجتمعات كلَّها ، حين تؤمن شعوبٌ كثيرةٌ بقومياتها وحضارتها البائدة ، وفلسفات عتيقةٍ وحديثةٍ ، منافيةٍ للإسلام أو منافسةٍ له ، وأن يلهم الثبات على المبادىء ، والقيم ، والمثل العليا ، مهما كانت قيمته في الحياة المادية والفرص المواتية ، حتى يستطيع أن يخاطب ربّه وينشد :

فليتك تحلو والحياةُ مريرةٌ وليتك ترضى والأنام غضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني وبين العالمين خرابُ
إذا صحَّ منك الودُّ فالكلُّ هيِّنٌ وكلُّ الذي فوق التراب تراب

لذلك كله ـ أيها السادة ـ كانت هذه الأرض جديرةً كلَّ الجدارة بأن تلتقي عليها هذه الصفوة المختارة من علماء الإسلام ، وقادة الفكر ، وأقطاب التربية والتعليم ، ليطلعوا على مدى النجاح الذي حقَّقه هذا الشعب المحاط بالمحن والمشكلات ـ التي قلما أحيط بها شعب من الشعوب الإسلامية ـ في الاحتفاظ بشخصيته ، وأداء رسالته ، وإثبات جدارته ، وعلى المسافة التي لا تزال أمامه ، وهو يطلب من إخوانه ، في العالم الإسلامي والعربي ، التوجيه الرشيد ، والرأي السديد .

وأرحب بكم ثانيةً في مدينة لكهنؤ التي كانت تلي دلهي ـ عاصمة القطر الهندي ـ في خصب التربة ، وحضانة العلم والعلماء ، وقد آلت إليها زعامة الحضارة ، والآداب ، واللغة ، وانتهت إليها رئاسة التدريس والتأليف في العهد الأخير ، ونبغ فيها علماء ومؤلفون فاقوا أقرانهم في التفنن في العلوم والآداب ، وكثرة التأليف ، وقوَّة التدريس ، وانفجرت منها عيون العلم ، فأروت القريب والبعيد ، وفيه بلغ منهاج الدرس القديم طوره الأخير من التنقيح والتهذيب ، والزيادة والتكميل ، فسمي : « الدرس النظامي » وسيطر على الأوساط العلمية التعليمية في شبه القارة الهندية ، وفي أفغانستان ، وتركستان ، وخدم فيها القرآن حفظاً وتجويداً ، ونشراً وتعليماً في العهد الأخير ، خدمةً لا يوجد لها نظير في كثيرٍ من المدن الإسلامية . ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة : ٤] .

وأرحب بكم ثالثةً ـ أيها السادة ـ في هذه المؤسسة التي تمثِّل فصلاً من أروع فصول تاريخ الوعي الإسلاميِّ ، والقيادة الإسلامية ، والفكرة العلمية ، فهنا تجسم الشعور بالواقع المرير الذي كان يعيشه المسلمون ـ ليس في شبه القارة الهندية فحسب ، بل في العالم الإسلامي ـ في فجر القرن الرابع عشر الهجري ، وأواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، من تمزق الشمل ، وتشتت

الفكر ، وضعف الثقة بصلاحية الرسالة ؛ التي أكرمهم الله بها لمسايرة الزمن ، فضلاً عن قيادة الركب البشري ، والحسبة على العالم ، وصلاحية شريعتهم السماوية لحلِّ المعضلات ، والإرشاد في النوازل والقضايا الجديدة ، وصلاحية علومهم الإسلامية للبقاء والازدهار ، والنموِّ ، والتوسُّع ، وتوزع بين طبقتين متناكرتين متنافرتين أحياناً ، ومتنافستين ومتناحرتين أحياناً كثيرة ، طبقة علماء الدين المتخرجين في المدارس الدينية على النمط القديم ، وطبقة المثقفين بالثقافة الغربية ، المتعلمين في الكليات والجامعات المدنية ، لا تزال الجفوة بينهما تشتدُّ وتحتدُّ ، ولا تزال الفجوة بينهما تتَّسع وتعمَّق على مرِّ الأيام ، والقنطرة التي تصل بينهما مفقودةٌ ، أو مكسورةٌ ، وما أشقى الطبقتين من أمَّةٍ إذا احتاجتا في اللقاء والتعاون إلى جسر يصل بينهما ، أو ترجمان يترجم لهما ، وما أشقى الأمَّة بهما ، وتوزع كذلك بين الطوائف الإسلامية ، والمذاهب الفقهية ، ينظر كل منهما إلى الآخر نظرة ازدراء واحتقار ، ونظرة خوف وإشفاق ، والمناظرات والمطارحات بينها قائمةٌ على قدمٍ وساقٍ ، قد تتحول إلى مضارباتٍ ، وإهاناتٍ ، ومحاكمات ، ومخاصماتٍ ، وقد تجرُّ إلى تضليلٍ ، وتفسيقٍ ، بل إلى تكفيرٍ أحياناً كثيرةً ، والمناهج الدراسية قد ختم عليها بالختم الأخير ، لا تقبل زيادة ولا نقصاً ، وقد غشيت الأوساط العلمية غاشية من العزلة الفكرية ، فلا تفتح نافذة على ما جدَّ في العالم الحديث من علومٍ وأفكارٍ ، وبحوثٍ ودراساتٍ ، ولا تتصل بالحياة السريعة الصَّاخبة إلا عن طريق السياسة أو التبعية ، وهنا أفلت منها زمام القيادة والتوجيه ، والإشراف على المجتمع الإسلاميِّ ، والوصاية عليه ، وصيانته من الغزوات الفكرية والغارات الصليبية ، والانحرافات الخلقية ، ووقعت الطبقات المثقفة تحت رحمة دعاة التغريب ، والردَّة الفكرية والحضارية من المسلمين القوميين وغيرهم .

وفي هذه الساعة العصيبة الدقيقة ، وفي هذا الجو الغائم القاتم التقت (سنة ١٣١١هـ ـ الموافق ١٨٩٢م) مجموعةٌ من أهل الفراسة الإيمانية ، والشعور المرهف ، والتألم بواقع المسلمين ومستقبل علماء الدين والعلوم

الإسلامية ، بل بمستقبل هذا الدين في هذه القارة التي سقيت بأزكى دماء المسلمين ، وغذيت بأذكى عقول علماء الدين ، وسايرت ركب العلم والحضارة الإسلامية ، بل وقادته أحياناً ، والتقى أهل العقول بأهل القلوب ، وكبار علماء الدين بخيار المثقفين المدنيين ، وفقهاء المذهب الحنفي بزعماء أهل الحديث والأثر ، والزهَّاد المتبتلون الذين آثروا العزلة ، وعكفوا على العبادة ، بوجهاء البلد وأعيانه ، وكبار الحقوقيين ورجال التعليم ، فأسسوا جمعية سموها : « ندوة العلماء » لأنَّها نبعت من فكرتهم ، وتأسست على دعوتهم ، وهم الموجهون لها ، والمشرفون عليها ، وبدأت كفاحها في جمع شمل المسلمين ، وتوحيد كلمتهم ، وتنسيق جهودهم في إنهاض المسلمين ، ومحاربة الأخلاق الفاسدة ، والتقاليد الجاهلية ، والعادات القبيحة المضرَّة ، وجمع العلماء من مختلف المذاهب الفقهية ، والطوائف الإسلامية السنية على منصَّةٍ واحدةٍ للاهتمام بأمر المسلمين ، وإصلاح مناهج التعليم الديني وتطويرها وتكييفها مع الزمن ، في نطاق المبادىء الإسلامية ومقاصد الشريعة الإسلامية ، ورفع مستوى العلماء ، وتوسيع آفاق فكرهم ومعلوماتهم ، وإعداد العلماء الذين يتمتَّعون بثقة كلتا الطبقتين ـ القديمة والحديثة ـ وتقديرهما ، ويأخذون مكانهم الطبيعي في قيادة المسلمين الدينيَّة ، والفكرية ، والعلمية ، الذي فقدوه في زمانٍ بضعفهم في العلوم الدينية ، وبعدهم عن الحياة .

ونادوا بإعطاء القرآن الكريم متناً وتفسيراً حقَّه من العناية والدراسة ، والتمييز بين العلوم الآلية والعالية ، والوسائل والمقاصد ، وتقديم كتب المتقدمين المتذوقين للدين والعلم أصالةً على كتب المتأخرين ، والعناية بتعليم العلم أكثر من العناية بتدريس الكتاب ، ونادوا بإحلال اللغة العربية وآدابها محلَّها اللائق في المناهج الدراسية ، والمقررات المدرسية ، فقد كانت بلغت منتهى الضعف في الزمن الأخير ، ووضعت في هامش المناهج والنشاط العلمي التعليمي ، وتعليم اللغة العربية كلغةٍ حيَّة راقيةٍ ، دافقةٍ بالحياة والقوة ، مرنةٍ تساير متطلبات العصر ، وحاجة الدعوة والدعاة ، حتى يستطيع

أبناء هذه الدار أن يتذوقوا جمال القرآن وإعجازه ، وفصاحة الحديث النبوي وقوته ، ويخاطبوا أبناء العرب في لغتهم ، وأساليب كلامهم ، ويقاوموا الفتن العصرية والدعوات المضللة ، وكانت فكرة سابقة للزمن الذي لم تحدث فيه وسائل الاتصال ، ولم تسنح فيه فرص اللقاء التي حدثت في هذه العقود الأخيرة ، حين نالت البلاد الإسلامية والعربية الاستقلال ، وعمَّت الاجتماعات واللقاءات على الصعيد الدولي ، فكان كلُّ ذلك دليلاً على بعد نظر هؤلاء العلماء ، ودعوا إلى ضمٍّ بعض العلوم الحديثة النافعة التي لا يسع العالم جهلها ، ودراسة اللغة الرسمية السائدة إلى مناهج التعليم .

وأسَّسوا لتحقيق هذه المطالب والغايات مدرسةً نموذجيةً سنة ١٣١٦هـ - ١٨٩٨م في مدينة لكهنؤ ، سموها : « دار العلوم ندوة العلماء » ، وتوسَّعت ، واشتهرت حتى غطَّى اسمها في كثيرٍ من الأحيان ، اسم المؤسسة الأمِّ ومصدرها ، وتقرؤون قصةً هذه الجمعية ، وما مرَّت به من أدوار ومراحل ، وقصَّة هذه الدار التي نلتقي في رحابها ، وما قطعته من أشواطٍ مشروحةٍ مفصَّلة في الكتب والرسائل التي تقدَّم إليكم .

في رحاب هذه الدار العلميَّة ، وفي مركز هذه المؤسسة التي هي مدرسةٌ فكريةٌ شاملةٌ ، وحركةٌ إصلاحيةٌ توجيهيةٌ نرحِّب بكم أيها السادة ! ونحييكم بتحية الإسلام والعلم في هذا الملتقى الكريم ، والمشهد العظيم ، الذي ستظلُّ أخباره ومشاهده تذكر ، وتشكر ، وتنقل ، وتروى ، والذي يمثِّل بحول الله تعالى وتوفيقه العالم الإسلاميَّ الواسع ، هذا التمثيل الجامع الرائع ؛ الذي قلما شهدته هذه البلاد في الماضي القريب .

وسيشترك في رواية هذه القصَّة الجميلة الرائعة ونقلها إلى الأجيال القادمة رواةٌ صادقون من الأحياء ، وشهودٌ عادلون من الأعضاء .

فالعين عن قرة ، والكفُّ عن صلة   والقلب عن جابر ، والسَّمع عن حسن

***

ندوة العلماء

مدرسةٌ فكريةٌ شاملة(١)

كانت حركة ندوة العلماء الفكرية التي أسسها مولانا محمد علي المونكيري ، وقادها الأستاذ شبلي النعماني وزملاؤه ودار العلوم التابعة لها جديرةً بإحداث قنطرةٍ تصل بين الثقافتين ، الإسلامية والغربية ، والطبقتين : علماء الدين والمثقفين العصريين ، وإحداث فكرٍ جديدٍ يجمع بين محاسن القديم والجديد ، وبتعبيرٍ أصحاب هذه المدرسة الفكرية « بين القديم الصَّالح والجديد النافع » و« بين التصلُّب في الأصول والغايات ، والتوسُّع والمرونة في الفروع والآلات » كان قادة هذه الفكرة ينظرون إلى مناهج التعليم وبرامجه كأداةٍ للتعليم قابلةٍ للنموِّ والتطور ، خاضعةٍ لحاجة كلِّ عصرٍ ومقتضاه ، ولم يكونوا ينظرون إليها كأداةٍ حديديةٍ لا مرونة فيها (مع الاحتفاظ بالروح ، والأهداف ، والعلوم الأساسية) وهي عندهم حافلةٌ بالحيوية الكامنة والازدهار ، وبتعبيرٍ آخر : إنَّ الدين حقيقةٌ خالدةٌ ليست في حاجةٍ إلى تطويرٍ ، أو تبديلٍ ، ولكنَّ العلم شجرةٌ مزهرةٌ مثمرةٌ تؤتي أكلها كلَّ حينٍ ، ويستمرُّ نموُّها وازدهارها ، والإسلام عندهم دين الإنسانية كلِّها ، ودين العصور كلِّها ، لذلك من الطبيعي أن يمرَّ بمراحل التطوُّر والارتقاء الفكري الإنساني المختلفة ، ويكلف القيادة في بيئاتٍ تتغير فيها الأفكار والمفاهيم ، لذلك يجب أن يوسع نطاق التعليم والثقافة الذي يعدُّ ممثلي الإسلام ومفسريه ، ويبرهن دائماً على صلاحها ، وحيويتها .

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثاني ، المجلد العشرون عام ١٩٧٥م .

وقد رفع مؤسسو ندوة العلماء أصواتهم لإصلاح المناهج ، وتوسيعها ، وتطويرهـا ، وقـد كان هذا الصوت غريبـاً في الهند التي ظلَّت متمسكةً بالمنهاج القديم ، عاضَّةً عليه بالنواجذ ، وكان خافتاً في الأقطار الإسلامية الأخرى كذلك . يقدر ذلك بقطعتين اقتبسنا إحداهما من كتابة مؤسس ندوة العلماء الشيخ محمد علي المونكيري ، والثانية من كتابة العلامة شبلي النعماني :

« قد تغيرت الظروف والأحوال في هذا العصر ، إنَّ الاعتراضات التي شغلت العقول وحلقات الدرس قديماً قد فقدت أهميتها ، وقيمتها ، وانقرضت الفرق التي كانت تثيرها ، وتتشبث بها ، وأصبح العكوف على دراستها ، وتفهمها إضاعةً للوقت ، وجهاداً في غير عدوٍّ ، وقد نشأ عالمٌ جديدٌ وتجدَّدت حاجاته ، قد أثار أعداء الإسلام وخصومه أسئلةً جديدةً في هذا العصر ، لم تكن تخطر على بالٍ ، وذلك في ضوء الفلسفة الجديدة ، ولا يمكن إشباع الردِّ عليها ، والإقناع العلمي بالاعتماد على الفلسفة القديمة فقط ، وإن زعم زاعمٌ ، والسبب في ذلك : أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يحلَّ الشبهة ، ويفحم الخصم إلا إذا عرف ما يؤول إليه الاعتراض ، وعرف الدوافع »[١] .

« إنَّ هذه العلوم اليونانية ليست علومنا الدينية ، ولا يتوقف عليها فهم دينا ومعرفته ، إنَّ الإمام الغزالي في عصره قد ضمَّ هذه المواد الدراسية إلى مناهج التعليم في عصره لكي يطلع العلماء على الأساليب الجدلية اليونانية التي نشطت في نشرها الفرقة الباطنية في ذلك العصر ، ويقاوموا بذلك حركة الإلحاد المتفشي في ذلك العصر ، ولكن الآن لا وجود لأولئك الملاحدة ، ولا نتلك العلوم اليونانية ، ولا يعتقد صدقها وصحتها المتنورون ، ولا مَنْ يدّعي الفطنة ؛ لذلك فقدت تأثيرها ، ولا خطر على الإسلام اليوم منها ، وقد احتلَّت مكانها علومٌ حديثةٌ ، وقضايا جديدةٌ ، ودراساتٌ ، وأبحاثٌ جديدةٌ ، وقد أصبح من الضروري أن يطَّلع علماؤنا على الأبحاث الجديدة ، والعلوم

(١) مكاتب محمدية ـ مجموع رسائل الشيخ محمد علي المونكيري ـ .

العصرية المفيدة ، ليقدموا حلولاً للمعضلات الحديثة ، وليردُّوا على الشبهات رداً علمياً مؤسساً على الدراسة والتحقيق »[١] .

وأخيراً أدرك القائمون على حركة ندوة العلماء : أنَّ هذا الغرض لا يتمُّ إلا إذا أسسوا مدرسةً مثالية ، فأسست « دار العلوم » في لكهنؤ عاصمة الولاية الشمالية ، سنة ١٣١٦هـ ووضعت أساسها على مبدأ الجمع بين الدين الخالد الذي لا يتغيَّر ، وبين العلم النامي الذي لا يتحجَّر ، بين صلابة الحديد في الثبات على العقيدة ، وبين نعومة الحرير في اقتباس العلوم النافعة ، فبينما العالم الديني في عقيدته وعبادته جبلٌ ثابت ؛ إذا هو في علمه ، ودراسته ، وتقدُّمه نهرٌ عذبٌ جارٍ ، وبينما هو في نصوص الدين ، وعزائمه مرابطٌ على الثغر ، وحارسٌ للأمانة ، إذا هو في تفهيمه ، ودعوته جندي مهاجمٌ ، ومسلَّحٌ على أحدث طراز ، وبينما هو في الأول لا يعرف الهوادة ؛ إذا هو الثاني لا يعرف الجمود .

وكانت حركة ندوة العلماء فكرةً ومدرسةً فكريَّةً ، أكثر من حركة إصلاح مناهج التعليم فحسب ، وكانت ـ لو قدَّر الله ـ خطوةً مباركةً ، وفتحاً جديداً يستحقُّ التقليد في الأقطار والمجتمعات الإسلامية ؛ التي خاضت في ذلك العهد معركة الصِّراع بين القديم والجديد ، ولكنَّ هذه الحركة لم تحظ بالتعاون الواسع المتحمِّس الذي كانت تستحقه من كلتا الطبقتين : القديمة والجديدة ، لاتساع الفجوة بينهما ، ولوجود التطرُّف والمغالاة فيهما ، وبعض الخلافات التي حدثت في صفوف العاملين لهذه الفكرة ، وأخيراً لا آخراً لعدم وجود طبقة من الأساتذة والموجهين ؛ الذين قد تبحَّروا في الثقافتين ، وقد أحسنوا هضمهما ، وكوَّنوا من هذه المواد ـ التي قد تبدو متناقضةً ـ رحيقاً صافياً نافعاً ، كما تعمل النحلة من الأزهار والأشجار ، وبقي معظم الشعب يتأرجح بين طبقتين ، طبقةٍ ترى العدول عن القديم ونظمه التعليمية ، والانحراف عنها قيد شعرة ضرباً من التحريف ، أو نوعاً من البدع ، وطبقةٍ

---

(١) حياة شبلي ص٦٠ ، للعلامة السيد سليمان الندوي .

تقدِّس كلَّ ما جاء من الغرب وتبرئه من كلِّ عيبٍ ونقصٍ ، وتعتقد بأصحابه العظمة والعبقرية في جميع الآراء والمذاهب الفكرية .

ورغم ذلك كلِّه لا تزال فكرة ندوة العلماء الفكرةَ الوسط الحقيقية التي تستطيع أن تنقذ نظام التعليم الديني من الانهيار ، وتتفادى بها الأمة الصراع بين القديم والجديد ، ووجود طبقتين متناوئتين متنافستين ، طبقة علماء الدين ، وطبقة رجال الثقافة الحديثة ؛ الذي جرَّ على كثيرٍ من البلاد الإسلامية شقاءً ، وكان السبب في كثيرٍ من الأحيان في اتجاه البلاد العلماني ، واللاديني .

ومن يجهل أنَّ الإسلام لا يعرف طائفتين منفصلتين متحاربتين ؛ إنه لا يعرف ديناً لا يتصل بالحياة ، ولا يعرف دنيا لا تخضع للدين ، ولو لم يكن لمتخرجي الندوة غير هذه الحسنة ، أنَّهم وقفوا وسطاً بين هذين الطرفين ، وكانوا سبب تقاربهم وتعارفهم لكفاهم فضلاً أنهم أثبتوا : أنَّهم لا يعيشون في عزلةٍ عن العالم ، وفي جزيرةٍ منقطعةٍ في بحر الحياة ، فكان منهم أدباء ، وباحثون ، ومؤلفون في لغة البلاد ، واجتماعيون يشاركون في الحياة ، وكان منهم من كون للنشء الإسلامي الجديد المثقف مكتبةً كاملةً[1] .

تقوم فكرة ندوة العلماء ودعوتها في الدين والعقيدة على الدِّين الخالص ، النقي من الشوائب ، البعيد عن تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، وعلى العودة ـ في تلقِّيه وفي فهمه ، وتفسيره ـ إلى منابعه الصَّافية الأولى ، ومصادره الصحيحة الأصيلة ، وفي العمل والسلوك على التمسُّك بلباب الدِّين ، والعمل بأحكامه ، والتحلِّي بحقيقته وروحه ، والربانية المشرقة الصَّافية ، وفي تصورها للتاريخ على أنَّ خير العصور هو العصر الذي ظهر فيه الإسلام ، والجيل المثالي هو الجيل الذي نشأ في أحضان النبوَّة ، وتخرَّج في مدرسة القرآن والإيمان الأولى ، وأنَّ السعادة كلَّ السعادة في الرجوع إليه ، والاقتداء به ، وفي نظرتها العلمية ، وفلسفتها التعليمية ، على أنَّ العلم وحدةٌ

(١) ملتقط من كتابات للمؤلف نفسه .

لا ينقسم إلى قديمٍ وحديثٍ ، وشرقي وغربي ، وإن انقسم فإنما ينقسم إلى صوابٍ وخطأ ، ونافعٍ وضارٍّ ، وأصولٍ وفضولٍ ، وغاياتٍ ووسائل ، وفي موقفها من الأخذ والترك ، والانتفاع والاقتباس على التعليم النبوي الحكيم : « الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها ؛ فهو أحق بها »[1] وعلى المبدأ القديم الحكيم : « خذ ما صفا ، ودع ما كدر » وفي مجال الدفاع عن الإسلام ، ومواجهة تحديات العصر على الإرشاد الرباني : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، وفي أسلوب الدَّعوة إلى الله ، وعرض محاسن الإسلام ، وإقناع العقول على الوصية الحكيمة المأثورة[2] « كلموا الناس على قدر عقولهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله » وفيما اختلف فيه السلف من مذاهب وآراء على التحقيق والتطبيق ، وإحسان الظنِّ بهم ، والتماس العذر لهم ، وترجيح ما هو أوفق بالكتاب والسنة ، وأقرب إلى جمع الشمل ، وأبعد عن الفرقة والتنافر ، وأقرب إلى مصلحة الإسلام الاجتماعية[3] وبالجملة فهي أقرب إلى مدرسة حكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدَّهلوي (المتوفى سنة ١١٧٦هـ) العلمية والفكرية ، والكلامية والفقهية .

وبذلك فندوة العلماء مدرسةٌ فكريةٌ شاملةٌ أكثر من مركز تعليميٍّ يقتصر على تعليم الكتب ، أو العلوم ، أو اللغات ، ونقل بضاعة العلم من جيلٍ إلى جيلٍ ، ومن طبقةٍ إلى طبقة .

●●●

---

(١) حديث صحيح .

(٢) مشهورة من أقوال سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ووصاياه .

(٣) توجد لكل ما جاء في هذا العرض من الخصائص والشعائر التي تمتاز بها ندوة العلماء بين المدارس الفكرية والمراكز التعليمية ، شواهد ونصوص في كتابات مؤسسي هذه الحركة ، والقائمين عليها .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الكتاب	٥
ملامح من حياة العلامة الندوي وشخصيته	٧
إسهامات العلامة الندوي في الفكر التربوي	١٥
صوغ نظام التربية والتعليم من جديد	٢٦
نظرة محمد إقبال إلى نظام التعليم العصري ومراكزه	٤٠
طرق الاستفادة من التعليم وضرورة إزالة العقبات من طريقه	٤٤
سياسة التربية والتعليم السليمة في الأقطار ذات الشخصية والعقائد	٦٠
مشكلات الشباب في الجامعات الدينية وعلاجها السليم	٦٧
خطوط عريضة لجامعة للدعوة والإرشاد	٨٧
أهمية نظام التربية والتعليم في الأقطار الإسلامية	٩٧
دور الجامعات في إنشاء الجيل الجديد	١٠٩
حيرة الشباب المردية ـ أسبابها وطرق علاجها	١٢٠
تعليم المسلمين وتربيتهم العامة	١٢٩
مكانة العلم ومسؤوليات العلماء	١٤٥
إيجاد الرباط المقدس الدائم بين الدين والعلم	١٥٣
استخدام العلم والعقل والانتفاع به	١٦١
دور الإسلام الثوري البناء في مجال العلوم الإنسانية	١٦٦
التوجيه الإسلامي للعلوم	٢٠٣
كيف توجه المعارف في البلاد الإسلامية	٢١٣
هستريا عصبية اللغة والثقافة	٢٢٨

الموضوع	الصفحة
مكانة الهند الدينية والعلمية وعواملها التاريخية	٢٣٢
موقف المسلمين في الهند من التعليم والتربية	٢٤٢
ندوة العلماء مدرسة فكرية شاملة	٢٥٤
فهرس الموضوعات	٢٥٩

* * *